إحياء التراث

للدكتور ابراهيم مدكور

(١)

تتوالى الحضارات الإنسانية وتتعاقب ، يأخذ بعضها عن بعض ، ويرث لاحقها سابقها ، وللحضارات الكبرى آثار ومخلفات شتى : والحضارة الإسلامية من أعمق الحضارات القديمة أثراً ، وأوسعها ثقافة . انتشرت ثقافتها شرقاً وغرباً ، وامتدت إلى العالم القديم فى قاراته الثلاثة ، وأسهم فيها عدة شعوب ، وتتابع إنتاجها نحو ثلاثة عشر قرناً ، وكتبت بلغات مختلفة ، بين عربية وعبرية وسريانية ، أو فارسية وتركية وكردية : تعددت ألوان هذه الثقافة وتنوعت أبوابها ، فيها منقول أو معقول ، أدب ولغة ، علم وفن ، سياسة وعمران . وتحت كل شعبة من هذه أقسام متعددة ، وفى كل قسم بحوث ودراسات مختصرة ومطولة : متون وأصول ، شروح وحواش . وقد وضعت فى عصور متتابعة ، وعلى أيدى باحثين متلاحقين ، ونمت على مرّ الزمن نمواً كبيراً .

بيد أنها لم تسلم من عدوان هذا الزمن نفسه فقضت الحرائق والحروب ، والعسف والظلم على قسط كبير من أصولها ، ومن أوضح مظاهر هذا العدوان غزو التتار فى القرن السابع الهجرى الذى أباد الحرث والنسل ، وقضى علينا بأن نحرم من مؤلفات لا يعرف منها إلا الاسم ، أو بعض ما نقل عنها من مؤلفات أخرى معاصرة أو لاحقة . ومع هذا لا يزال ماوصل منها إلينا عظيما ، تعمر به المكتبات العامة فى الشرق والغرب . ومن حسن الحظ أن الولاة والأمراء والباحثين والعلماء كانوا يتنافسون فى جمع الكتب واقتناء نفائسها . وكان ينسخ من المؤلف الواحد عشرات المخطوطات لسد حاجة الطالبين ، وقد يعاد النسخ فى عصور متلاحقة ، فتتوفر للنص الواحد عدة نسخ ، بل عدة روايات .

وللوضع السياسى والخلاف المذهبى شأن فى تخير الكتب واقتنائها ، فكان الفاطميون والبويهيون مثلا حراصاً على جمع كتب الشيعة ، حرص السلاجقة على جمع كتب أهل السنة . وأضحى لكل نوع من الكتب مكان يبحث عنه فيها ، ففقه المالكية مدين فى مدارسته وحفظ أصوله لشمال أفريقيا ، فى حين يرجع إلى الشام ومصر فى البحث عن كتب الشافعية ، ويعد اليمن اليوم أكبر مصدر لما بقى من مؤلفات المعتزلة ، وبخاصة المتأخرون منهم . ولما كان النفوذ السياسى فى الإسلام قد آل فى القرون الأخيرة إلى

الدولة العثمانية ، فإن مكتبات استامبول تعد الذخيرة الكبرى للتراث الإسلامى ، وفيها مؤلفات قد لا توجد فى مكان آخر ، وفى حصرها حصراً دقيقاً ما يمكن من استكمال حلقات مفقودة . وقد بذلت فى ذلك جهود ملحوظة فى الثلث الأول من هذا القرن ، وما أحوجنا إلى استكمالها . وحبذا لو أنشئ فى استامبول معهد للدراسات العربية يعد طائفة من الباحثين لجميع هذه المخطوطات وحصرها ، ويقينى أن الحكومة التركية سترحب بذلك .

ولسنا فى حاجة أن نشير إلى ما للتراث العربى من شأن فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فهو عنوان حضارة سادت العالم عدة قرون ، وهمزة وصل بين القديم والحديث : أخذ عن الحضارات القديمة ، وأثر فى الحضارات الحديثة . أحيا معالم التراث اليونانى ، واحتفظ بأجزاء منه ضاعت أصولها الأولى ووجه نظر الغرب إليه ، فبدأ يأخذ عنه ويتتبع خطاه . ونشأ من ذلك تراث القرون الوسطى اللاتينى . وللتراث العربى شأن أيضاً فى الحضارة الغربية الحديثة ، أثر فى علمها وفلسفتها فى فنها وصناعتها . وهو اليوم للعرب والمسلمين جميعاً مجد الماضى ، ونبراس الحاضر ، وهدى المستقبل .

* * *

وقد عنى المسلمون من قديم بحفظ تراثهم المكتوب ، فاقتنوا فى نسخه ، وأجادوا فى تغليفه ، وأودعوه أماكن أمينة . وأُنشئت منذ عهد مبكر مكتبات لجمعه وحفظه ، وأُعدت فى المساجد خزائن خاصة به . وتعددت مخطوطاته — ويكاد يصل ما بقى منها إلى بضعة ملايين ، موزعة بين الشرق والغرب فى العالم القديم والجديد . وقد تسابق الغربيون منذ القرون الوسطى إلى جمع المخطوطات العربية ، وتنافسوا فى شرائها ، ولم يضنوا عليها بمال . واشتد تنافسهم فى التاريخ الحديث وجدوا فى اقتنائها منذ القرن الثامن عشر ، ولها أقسام خاصة مسجلة ومفهرسة فى المكتبات الأوربية الكبرى ، وبخاصة المتحف البريطانى ، ومكتبة باريس الأهلية ، والأسكوريال ، والأمبروزيانا ، ولمكتبات بعض الجامعات الأمريكية نصيب منها . وعلى دعائمها قامت حركة الاستشراق منذ أوائل القرن الماضى .

ولا يزال فى العالم الإسلامى والعربى ثروة كبيرة منها ، وما أجدرنا أن نرعاها ونتعهدها وقد أشرنا من قبل إلى الثروة الهائلة التى تحتفظ بها مكتبات استامبول ، ودعونا إلى متابعة كشفها وفهرستها والتعريف بها . وفى إيران قدر ما أحوجنا أن نقف عليه ، وأن نفيد منه . وسبق لحيدر آباد الدكن أن عرفت ببعض مخطوطاتها .

والتبادل الثقافى ضرورى ونافع ، فى المطبوع والمخطوط على السواء ، وعن

طريق الفيلم والتصوير يمكن تبادل المخطوطات على اختلافها. وفي العالم العربي ثروات يعتز بها ، وهي موزعة بين المكتبات العامة والخاصة ، وندعو مخلصين أصحاب المكتبات الخاصة أن يكشفوا عن كنوزهم ، وأن يمكنوا الباحثين والدارسين منها . ويكفي على سبيل المثال أن أشير إلى « كتاب المغني » للقاضي عبد الجبار الذي أخرجنا بعض أجزائه ، واحتفظت مكتبات اليمن الخاصة بالأجزاء الباقية .

ومخطوطات العالم العربي موزعة بين عواصمه ومدنه ، وربما كانت القاهرة والرباط من أعظمها حظاً . وفي مكتبات مصر العامة والخاصة مخطوطات تكاد تصل إلى مئات الألوف وقد لا تكون ثمة مجموعة تعادلها في بلد عربي آخر . إلا أن منها ما فهرس وعرف به ، ومنها ما لم يفهرس بعد ، وأغلبه تنقصه الأحراز الملائمة والأماكن الصالحة .

* * *

وأول خطوة في سبيل إحياء التراث العربي المكتوب أن يحصر ، وأن تجمع مخطوطاته وتفهرس ويعرف بها ، تمهيداً لنشرها ؛ وهذا ما سنعرض له فيما يلي .

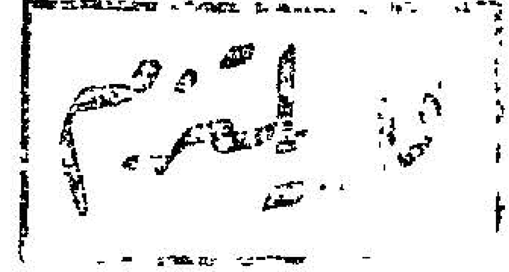
ابراهيم مدكور

رئيس المجمع



من الدراسات القرآنية

للأستاذ علي النجدي ناصف



القرآن الكريم الأخذ بمقتضى الظاهر في كثير من آياته ، فهو حينا يضع المفرد مكان الجمع ، وحينا آخر يخالف بين الضمير ومرجعه ، وهكذا .

ومعاذ الله أن يكون شيء من ذلك — إلا لأمر يراد : من حكمة بالغة وسر مكنون . والمرء إذ يتدبر هذه الآيات ، ويجيل في أعطافها الفكر ، فيفتح الله عليه ، ويكشف له عن وجه الرأي فيها ، ويذهب عنه الحيرة — يشعر ببرد اليقين ، ويذوق حلاوة الإيمان ، ويزيد اقتناعا بأن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد ، وأنه الكلام يعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله وكان بعضهم لبعض ظهيرا .

وسأقتصر في هذه الكلمة على مثال واحد مما حل فيه المفرد محل الجمع ، وآخر مما لا يطابق فيه الضمير مرجعه ، ثم أحاول أن أكشف السر الذي هديت إليه في كل من المثالين :

فأما المفرد الذي حل محل الجمع فهو لفظ « العبد » . ونحن إذ نتتبعه بالإحصاء جمعاً ومفردًا في القرآن الكريم — نجده مذكورًا بلفظ الجمع مرتين ومائة مرة ؛ كان لفظه مطابقاً لمعناه فيها كلها . ونجده مذكورًا بلفظ الإفراد — والمراد به الجمع — مرة واحدة ، وذلك إذ يقول الله تعالى : (إنْ كلُّ مَن في السموات والأرضِ إلَّا آتِي الرحمنِ عبْدا ، لقد أحصاهم وعدَّهم عَدًا ، وكلُّهم آتيهِ يومَ القيامة فَرْدًا [1]) .

وذكر « العبد » بلفظ الجمع إذن — لا يسترعي انتباها ، ولا يثير سؤالا ، لأنه من قبيل وضع اللفظ بموضعه ، والمطابقة بينه وبين معناه ، لكن الذي يسترعي الانتباه حقا ، ويثير السؤال إلحاحا —

---

(١) سورة مريم : ٩٣-٩٥

هو من التعبير بلفظ « العبد » مكان « العباد » ، أو « العبيد » فى الآيات المذكورة ، مع أن المقام – بحسب مقتضى الظاهر – لأحد الجمعين ، لا لمفرده .

فنحن – إذ ننظر فى الايات – نراها – كما لا يخفى – تتظاهر على تصوير حال الناس يوم يعرضون على ربهم ، أى على تصوير حال البشر كافة ، منذ خلقهم الله إلى يوم يبعثون . هم إذن الكثرة التى لا أكثر منها ، والعدد الذى لا يحصيه إلا الله تعالى . فإذا هم لم يذكروا هنا بلفظ الجمع فمن يذكر ؟ ومتى يذكرون به إذا هم ذكروا ؟

خواطر تحوك لأول وهلة فى نفس القارئ إذ يقرأ الآيات ، أو السامع حين يسمعها تتلى عليه ، ثم يبدو له أن ينظر فى معناها ويكتنه سرها . وهو – حينئذ لا يملك أن يقر عليها ، ولا أن يضرب صفحاً عنها ، فتظل تراوده ، ويظل فى حيرة من أمرها حتى يبلغ منها أرباً ، أو يسلو عنها يأساً .

على أنه إذ يروّى فيها ، ويلقى باله إلى الحال التى تومئ إليها ، والمقام الذى تتحدث عنه – لم يمتنع عليه أن يتبين بتوفيق الله أن المقام فيها للحساب والجزاء ، لا للعد والإحصاء وأن الأمر قد شبه عليه ، فوهم أن حياة الاخرة كحياة الدنيا وأن حال الناس هناك كحالهم هنا حين يعرضون على ربهم ، فإذا هم أجناس وأمم ، وطوائف وفرق ، تتخالف على العهد بها ، أصولا وأنساباً ، وتتفاضل درجات ومنازل وتتميز مواهب وسمات ، حتى ما تكاد تجمعهم جامعة ، أو تؤلف بينهم آصرة إلا أنهم لآدم وحواء .

والحقيقة أن الأمر مختلف جداً . فالآخرة غير الأولى ، وحال الناس فى هذه غير حالهم فى تلك . ويومئ لفظ «العبد» فى الآيات إيماء خفيا إلى مشهد مهيب من مشاهد الآخرة ، مشهد لا كالمشاهد ، ولا الناس فيه كالناس . الملك يومئذ لله الواحد القهار ، وكل من فى السموات والأرض خاضع مقهور ، والناس بين يدى ربهم أشباه متساوون ، كأنهم فرد واحد ، تتكرر ذاته ، وتتوحد صفاته . ذهبت من بينهم الفوارق فلا علية ولا سوقة ، ورفعت من دونهم الحجب فالتقى الأحمر والأسود ، ومحيت الحقب فالتقى الماضى والحاضر ، ورد الأول على الاخر .

تقطعت الأسباب فانفض الأنصار والأعوان، تناكر الخلصان فلا يسأل حميم حميما، قطعت الأرحام فلا يجزى والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً. انحلت عرى الأنساب فكل يعزى لآدم وحده، ولايعزى لأبيه منه ولا لأحد من جدوده الأقربين أوالابعدين.

خرست الألسنة، وخشعت الأبصار، ووجلت القلوب، وذهبت النفوس ضياعاً بين القلق والاطمئنان، وبين اليأس والرجاء، لاتدرى ما الله صانع بها، ولا المصير الذى هى صائرة إليه، فتشابهت الملامح والسمات، وتوافقت المشاعر والخلجات: المنظر واحد، والمخبر واحد، حتى ليتمثل الجمع فى سمت الواحد، ويتراءى الغائب فى شخص الحاضر، ويغنى القريب عن البعيد.

وما كان لذلك كله أو لشىء منه أن يكون لولا وضع « العبد » هنا بلفظه المفرد مكان « العباد » أو « العبيد »، لكى يؤدى المعنى الذى ذكرنا أداء إشارة وتلميح، لاحديث بسط وتفصيل.

وأما المثال الذى لم يطابق فيه الضمير مرجعه — فقوله تعالى: (ثُمَّ إنكم أيُّها الضالون المكذِّبون لآكلون من شَجَرٍ من زَقُّوم فمَالئون منها البُطونَ، فشَارِبُون عليه من الحَميم) .

طعام الزقوم — كما تدل الايات عليه — نوع من العقاب الذى أعده الله للعصاة من عباده. ويختلف العلماء فى تفسير الزقوم: فمن قائل: إنه اسم يطلقه أهل اليمن على كل ما يتقيأ به، وهو — على هذا — لايخص نوعاً من الشجر، بل يعم كل ما تقلس له النفس، ويهيج به الجوف فيقذف ما عسى أن يكون فيه. ويكون عقاب العصاة بالأكل منه حينئذ أنهم يحملون عليه، وإنهم ليعلمون ماهو صانع بهم من التهوع وإثارة الجوف.

ومن قائل: إنها شجر باليمن لا ورق لها، وفروعها أشبه شىء برءوس الحيات، فيكون عقاب العصاة بها أنهم يحملون على الأكل منها مع بشاعة منظرها، وتقزز النفس منها، وسوء ما تخيله لهم حين يطعمونها، حتى ليحسبون أنهم لا يأكلون من شجر بل من رءوس حيات.

ويفسر أبو جهل الزقوم ساخراً مستهزئاً حين ذكر له، فيقول: « إن هذه كلمة

---

(١) سورة الصافات: ٥١ — ٥٤

لم تكن من لغة قريش ، وإن رجلا أخبره أن أهل يثرب يقولون : تزقمت ، إذ أكلت التمر بالزبد[1] » ، فالزقوم فى تفسيره مأخوذ من هذا الأصل ، وطعامه إذن نعمة ورضا لانقمة غضب وسخط .

ويذكر القرآن الكريم شجرة الزقوم فى قوله تعالى : (أَذَلِكَ خَيرٌ نُزُلًا أَم شجرةُ الزقُّوم ، إنا جعلناها فتنةً للظالمين ، إنها شجرةٌ تَخرجُ فى أَصلِ الجحيمِ ، طَلْعُها كأَنه رءُوس الشياطين[2]) ووصفها — باللعن ولم يسمها فى قوله ، سبحانه (وإذْ قُلنا لك إنَّ ربَّك أَحاط بالناس وما جَعلْنا الرؤيا التى أَريناك إلا فتْنة للناس والشجرةَ الملعونةَ فى القرآن ونُخوِّفهم فما يَزِيدُهم إلا طُغياناً كَبيرًا[3]) .

ونخلص من وصف القرآن لها بأَنها شجرة لاكشجر الدنيا ، فهى تنبت فى قرار الجحيم ، وتنمو على السعير ، خبيثة المطعم ، بشعة المنظر ، تعافها النفس ، وتنفر منها العين . تضرم العطش فى جوف آكلها ، فلا يجد غير الحميم ، فيشرب منه ضارياً به ، مشتفاً له .

هذه كلمة عن الزقوم ، بدالى أن أُقدمها بين يدى الحديث عن تصريف الضمير فى الآيات التى ذكرتها فى مستهل الكلام .

ونحن إذ نرجع إلى هذه الآيات نرى أن شجر الزقوم فيها قد عاد عليه ضميران أولهما هو المتصل « بمن » قوله : (فمالئون منها البطون) ، والآخر هو المتصل «بعلى» فى قوله : (فشاربون عليه) . والأول كما لايخفى — لمؤنث ، فهو مطابق للشجر بحسب معناه ، والآخر لمذكر ، فهو مطابق للشجر بحسب لفظه . ولا يمكن أن يكون تصريف الضمير على هذه الصورة إلا ناشئة من البلاغة ولطائف الإشارة .

ويقول أبو حيان فى ذلك : (فمالئون منها) ، الضمير فى « منها » عائد على « شجر » ، إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر . (فشاربون عليه) ، قال الزمخشرى : ذُكِّر على لفظ الشجر ، كما أُنث على المعنى فى « منها » . . وقال ابن عطية : الضمير فى « عليه » عائد على المأْكول أو الأَكل[4] .

(١) الروض الانف : ١ : ٢٨ (٢) سورة الصافات : ٥١-٥٤ (٣) سورة الإسراء : ٦٠
(٤) البحر المحيط : ٨ : ١٠ .

ولا خلاف أن اسم الجنس يجوز تذكير ضميره مراعاة لتذكير لفظه ، ويجوز تأنيثه مراعاة لدلالته على متعدد .

أما قول ابن عطية : « إن الضمير فى « عليه » عائد على المأكول ، أو على الأكل – فليس بذاك ؛ لأنه يجعل لكل من الضميرين مرجعا ، فضمير « منها » للشجر ، وهو الوجه ، لأنهما متجاوران ، والمعنى عليه . وضمير «عليه» للمأكول أو الأكل الذى تشير إليه كلمة « لآكلون » . وهى مذكورة قبل « الشجر » ، وإذا يكون على ضمير « عليه » أن يتخطى كلمة « شجر » . وضميرها لكى يعود الى المرجع الأول . ولا يخفى ما فى هذا من مباعدة وتفريق لغير حكمة ولا فائدة .

بقى أن القول بتأنيث الضمير الأول مراعاة لمعنى الشجر ، وتذكير الآخر – مراعاة للفظه لايغنى من التساؤل عن سر هذا التخالف أولا ، وعن وجه تقديم المقدم وتأخير المؤخر من الضميرين دون العكس بعد ذلك .

ويبدو – والله أعلم – أن هذا التخالف فى صورته السابقة – إنما يراد به حكاية حال الآثمين حين يأكلون من شجر الزقوم وحين يفرقى بطونهم ما يأكلون منه ، فهم حين الأكل لا يأكلون من شجرة واحدة ، بل من عدة من شجره ، كأن لكل شجرة مذاقاً متميزاً ، فبعض الشجر أخبث من بعض ، وفى تعدد ما يأكلون منه إذن مزيد من العذاب وتنوع فيه . والضمير الذى يطابق ذلك ويمثل معناه هو ضمير الجمع لا ضمير المفرد .

وهم إذ تمتلئ بطونهم مما يأكلون ، وإذ تستقر فيها أصنافه المتعددة – لا تظل على حالها من التميز والتنوع ، بل يمتزج بعضها ببعض حتى تصير فى رأى العين شيئاً واحداً ، على نحو مايصير إليه الطعام فى الحياة الدنيا ، حين يكون مؤلفاً من أصناف متنوعة ، بعد أن تعمل المعدة عملها فيه . والضمير الذى يصلح لذلك ويمثل معناه هو ضمير المفرد لاضمير الجمع . والله تعالى أعلم .

على النجدى ناصف

عضو المجمع

الجناس وأنواعه

في منظومة ابن طاهر الهواري قاضي فاس

للأستاذ عبد الله كنون

الجناس ضرب من البديع ، والبديع لم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ، ووضوح دلالته على المراد ، اللذين يبحث عنهما في علمي المعاني والبيان ، والثلاثة يعبر عنها بعلوم البلاغة . وكان ابن المعتز هو أول من جمع البديع ، وألف فيه كتاباً ، إلا أنه لم يتوسع فيه توسّع من أتى بعده ، وإنما ذكر بعض ضروبه ، ومنها الجناس ويسمى أيضاً التجنيس ؛ لتجانس كلماته إن تشابها في الحروف كُلاًّ أو بعضاً ، ومن ثم يعلم أنه من المحسنات اللفظية لا المعنوية وهذا ما حمل بعضهم على الاستهانة به حتى قال في كنز البلاغة : « لم أر من ذكر فائدته » لكنه عاد فقال : « وخطر لي أنها الميل إلى الاصغاء إليه فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها . ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوف إليه » نقله السبكي في شرح التلخيص .

والاستهانة به والقول بعدم جدواه مما لا يصح قبوله ، كيف وهو واقع في الكتاب العزيز والحديث الشريف ؟ قال تعالى : « وهم ينهون عنه وينأون عنه » وقال « فأقم وجهك للدين القيم » وقال : « قال إني لعملكم من القالين » وقال : « والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق » ، وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله ، وعصية عصت الله ورسوله » وقال : « نعوذ بالله من الأيمة والعيمة والغيمة والكزم والقزم » . وهو في كلام العرب كثير ، كما قال في العمدة

ونحن نعلم أن البلاغة تتعلق باللفظ كما تتعلق بالمعنى، والديباجة الجميلة يستحسنها كل أحد، ولصناعة البديع فيها دَخلٌ كبير. نعم ينبغي عدم التكلف في ذلك وعدم الإكثار منه؛ فهو كالملح في الطعام قليله صالح، وكثيره لا خير فيه. ولعل هذا أمثل ما يقال في الجناس وسائر المحسنات البديعية. وقد أحسن الهوارى صاحب المنظومة التي نحن بصددها حين شبهه بالخال يكون في الخد الجميل فيزيده جمالًا، لكن الخيلان إذا كثرت في الوجه كانت شيناً وعيباً.

المنظومة

هذه المنظومة هي رجزية من ٤٤ بيتاً، منها ٩ أبيات للخطبة وبيتان للختم، فما يبقى للكلام على الجناس وأنواعه هو ٣٣ بيتاً، وقد سماها صاحبها بتحفة الجلاس، وصدرها بسابقة تعرض فيها لذمّ ابن حِجّة الحمويّ الجناس وغضّ ابن رشيق القيرواني منه، ورجح عليهما مذهب الصفَديّ في استحسانه واستبداعه، ثم عقب برأيه هو الذي أشرنا إليه آنفا، والملخص في أنه على حسنه لا ينبغي الإكثار منه.

ذم ابن حجة للجناس

للأديب أبي بكر علي بن حِجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ قصيدة بديعية عارض بها بديعية عز الدين الموصلي. والبديعيات قصائد عَنِيَ بنظمها المتأخرون، يضمنونها أنواع البديع على سبيل التورية والرمز؛ ويجعلون موضوعها الغزل والمديح وما إليهما. ولعل أول من ابتكر هذا اللون من النظم هو الصَّفِيّ الحِلِّيّ.

والمهم أن ابن حجة شرح بديعيته بشرح سماه «خزانة الأدب وغاية الأرب» وشحنه بالكثير الطيب من اللطائف الأدبية والمختارات الشعرية، وهو مطبوع في مجلد ضخم يحتوي على ٥٧٠ ص. ولما تكلم على الجناس في شرحه هذا قال ما يلي:

«أما الجناس فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ فإن كُلًّا منها يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة». وبعد أن أتى بأمثلة مستكرهة ومُستثقلة منه، عاد فقال: «والجناس من صور الألفاظ».

وممن وافق على ذلك علامة عصره الشهاب محمود (الخفاجي) قال

: «إنما يحسن الجناس إذا قلّ وأتى فى الكلام عفوًا من غير كد ولا استكراه، ولا بعد، ولا ميل إلى جانب الركة».

وهذا هو ما يراه صاحب المنظومة، فهو وابن حجة إذن متوافقان فى الرأى.

كلام ابن رشيق

عقد ابن رشيق فى عمدته باباً للجناس وهو يسميه التجنيس، أطال الكلام فيه على أنواعه، وذكر ما ورد منه فى القرآن والحديث والشعر المطبوع منوها به، منبها على وجه حسنه، ثم مثل ببعض ما أتى على سبيل الصنعة المجردة، فقال: «وهذا أسهل معنى لمن داوله، وأقرب شىء لمن تناوله، من أبواب الفراغ وقلة الفائدة، وهو مما لا يشك فى تكلفه، وقد أكثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون فى نثرهم ونظمهم حتى برد وا، بل نادر كذرا».

وهو كلام لا غبار عليه، ولا يستحق ما قاله صاحب المنظومة فى الغض منه.

مذهب الصفدى

أما الصلاح الصفدى فإنه كان معجباً بالجناس مكثرًا منه، وألف فيه كتاباً سماه «جنان الجناس» ضمنه الكثير من نظمه فيه، وهو فى الغالب من المتكلف المتهافت،

وقد انتقده عصريه جمال الدين بن نباتة لما وقف عليه بكلمة استعمل فيها جناس التصحيف فقال: «بل هو جناس الخناس»،

والغريب أن صاحب المنظومة مع استحسانه لمذهب الصفدى، وترجيحه له، لم يأخذ به، وإنما مال فى الأخير لرأى ابن رشيق وابن حجة الذين انتقدهما.

أنواع الجناس فى المنظومة

جملة ما ذكره الهوارى فى منظومته من أنواع الجناس خمسة، تصل باعتبار أقسامها إلى ستة عشر نوعاً:

الأول: التام؛ وتحته ستة أقسام، فإن كان من نوع كاسمين سمى متماثلا نحو: «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة»، وإن كان من نوعين كاسم وفعل سمى مستوفى، كقول الشاعر.

مادات من كـرم الزمـان فإنه
يحيى لـدى يحيى بن عبد الله

ومنه المركب فإن اتفق فى اللفظ سمى المتشابه، كقوله:

إذا ملكٌ لم يكـن ذاهِبَـهْ
فَـدَعْـه فـدولتُـهْ ذاهبـهْ

وإلاسمى بالمفروق كقوله :

كلُّكم قـد أخذ الجـا

مَ ولا جـام لنـا

ما الذى ضرَّ مُديرَ الجا

مِ لـو جاملَنـا

وهذا إذا اختلف اللفظان فى الرسم فقط وكانا مستقلين، أما إذا تركب أحدهما من كلمة وبعض أخرى، فسمى بالمَرْفُوّ وقد مثل له الناظم.

والثانى المُحرَّف ؛ وهو ما تختلف هيئة حروفه نحوجُبَّة البُرْد جُنَّة البَرْد وتشديد الحرف هنا ملغى كما فى قولهم: الجاهل إما مُفْرِط أو مُفَرِّط.

الثالث الناقص ؛ وهو ما نقص منه حرف سواء كان فى الأول مثل: «والتفّت الساقُ بالساق إلى ربك يومئذ المساق»، أو فى الوسط نحو: جَدِّى جَهْدِى، أو فى الآخر كقوله:

* يَمُدُّون من أيْدٍ عواصٍ عواصم *

وهذا له اسم خاص وهو المُطَرَّف، فإن كان النقص بأكثر من حرف سمى مُذيَّلا كقوله:

إن البكاء هو الشفاء

من الجَوَى بين الجوانح

الرابع المضارع ؛ وهو ما اختلف حرف من حروفه مع تقارب المخرج سواء كان ذالك أولاً أو وسطاً أو آخراً، نحو ليل دامس وطريق طامس، وقوله تعالى: «وهم ينهون عنه وينأون عنه»، وقوله عليه السلام: «الخيل معقود فى نواصيها الخير» وقد مثل الناظم لمُختلِف الحرف الأول ومنه اللاحق، وهو ماكان الاختلاف فى حروفه غيرَ متقارب المخرج، نحو «ويل لكل هُمَزة لُمَزة» ونحو: «إنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد»، ونحو «وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به». وقد مثّل الناظم لمُختلف الوسط، ومنه جناس القلب وهو ما اختلف ترتيب حروفه، فإذا كان الاختلاف كلياً مثل فَتْح وحَتْف سمى قَلْب كُلٍّ، وإذا كان فى بعض الحروف فقط نحو: اللهم استُر عَوْراتنا وآمِّن رَوْعاتنا سُمِّى قَلْبَ بعض. وإذا وقع أحدهما فى أول البيت والآخر فى تمامه سمى مقلُوباً مُجنَّحاً كقوله:

ساق يُـرينى قلبُـه قسوةً

وكل ساقٍ قلبُـه قـاسِ

وإذا اقترن المتجانسان سُمى مُزْدَوِجا ومُكرَّرا ومُردَّدا، وقد مثله الناظم بقول

الله تعالى : «وجئتك من سبإ بنبإ يقين ».

الخامس جناس الخط ، كما سماه الناظم ، ويسمى الجناس المطلق ؛ وهو ما توافق فيه اللفظان خطًّا من غير توافق فى الحروف نحو قوله عز وجل : « قال إنِّى لعملكم من القَالِين » وما توافقا اشتقاقاًوإن لم يتوافقا لفظاًكقوله سبحانه : « فأَقِمْ وجهَك للدين القَيِّم »،ويسمى جناس الاشتقاق كما أن الأَول يسمى جناس شِبْه الاشتقاق ، والناظم ضمَّن هذا النوع فى لاحقة جعلها ختام المنظومة ؛ وذلك لعدم دخوله تحت تعريف الجناس ، وكذلك فعل صاحب التلخيص ؛ إذ جعله من الملحق بالجناس .

صاحب المنظومة

هو أبو عبد الله محمد بن طاهر الهوَّارى الفاسى ، أحد الأَعلام فى الفقه والعربية والأَدب ، أَخذ عن جِلَّة علماء عصره ،وأخذ عنه السلطان سليمان العلوى فمَن دُونه ،وولى قضاء فاس فحُمِدت سيرتُه وأَلف عدة تآليف أكثرها نظم ،منها أُرجوزة فيما انفرد بن ابنُ عاصم عن المختصر الخليلى من المسائل الفقهية ، وأُرجوزةٌ فى علم الكلام ، وأُرجوزةٌ فى علم المنطق وأُرجوزة الجناس التى بين أيدينا ، وكتب حاشية على شرح الشيخ سعيد قَدُّورة على السُّلَّم سماها «اليواقيت المنثُورة »،وله شعر جيد ،وتوفى سنة ١٢٢٠ هـ

ومن شعره هذا الموشَّح الذى ارتكب فيه من الجناس ماجاء على خلاف مذهبه فى عدم الإكثار منه ، ولكنه مع ذلك أحسن فيه وأَجاد وأَبان عن براعته التامة فى هذه الصناعة :

شـادنٌ بالغَـرامْ
يستفـز الغـريمْ
وصلُـه لا يُـرامْ
والهوى لا يريم
أغيـدٌ لا يُقِيـلْ
مُهجتى بالمُقَـلْ
وبطَـرْف كحيـلْ
حـلَّ فيـه الكَحـلْ
وبِخَـدٍّ أَسِيـلْ
فوق غُصْنِ الأَسلْ
بُخْـلُه بالـسَّلامْ
أضنَى قلبى السَّليمْ
ليْتَـه بالكَـلامْ
أحْيَا صبًّا كَلِيمْ

وحْشَـــةُ الهـــاشمِى

صيَّـــرتْنى هَشِيمْ

مــن غَـــدا لائمِى

فى هــــواهُ لَئِيمْ

أيُّهـــا الفـــاطمى

صِــلْ مُحِبًّــا فَطِيمْ

لحظُه كالحسام

لفُـــؤاد حَسِيمْ

مُظهِـــرٌ بابْتِســـامْ

دُرَّ ثغْــر بَسِيمْ

نص المنظـومة

أجــلُّ ما اعتَنى به الإنسان

وخيــرُ مــا فاه به اللِّسانْ

بَــدْءُ الكلام بالثَّنا والحمدِ

فالحمـــدُ لله العــلىِّ الفــرْدِ

ثُم على من شَرَّفَ البيانَ بِهْ

وتَمَّ النُّعمى لنــا بِسببِهْ

محمــد نبيِّنــا المختــارِ

وآلِــه وصحبِــه الأَخيــارِ

أزكى صــلاةِ اللهِ والسلامِ

مــا حَسُنَ الجناسُ فى الكلام

وبعدُ فالقصد بهذا الرجــزِ

نظمُ الجناس بكلام مُوجزِ

مُنمَّــق مُــرونَــق عجِيبِ

يــرُوقُ كلَّ حــاذق أَريب

سميتُــه بتحفة الجُلَّاسِ

فى جمع ما جاءَ من الجناسِ

واللهَ جَــلَّ وعَــلا سبحانهْ

أَرجُــوهُ فى التوفيق والإعانهْ

سابقة

مــا إنْ بدَتْ فى قوْلة ابنِ حِجَّهْ

فى ذمِّ أنواع الجنــاس حُجَّــهْ

ولا أَتى أَبــو علىِّ بنْ رشيــقْ

فى الغضِّ من ذا النوع بالفهم الرشيقْ

ومذهبُ الشيخ الشهير الصَّفَدِى

وقــد مضَى عليه غيرُ واحــدِ

أنَّ الجنــاسَ خيرُ مــا يُرتكَبُ

وهو بديع الحسن لايُجتَنَبُ

والــرأْىُ فيــه أنَّهُ مُستحسنُ

لكنما الإِ قــلالُ منه أحسَنُ

بل قيل كالخَال فما قلَّ يزِينْ

وكثرةُ الخِيلان فى الخــد تَشِينْ

ذكر الجناس التام واقسامه

إن حصل الطِّباقُ فى اللفظيْن

فى عــدد الحروف دون مَيْنِ

واتفقت فى النــوع والترتيب

واتحــدت فى هيئة التركيبِ

فذاك يُنسب إلى التامِ
ويَتَنَوَّعُ إلى أقسامِ
فإن يكُ اللفظانِ من نوع فذا
بالمُماثل يُسمَّى حبذا
وإن يكونا اختلفَا فى النوعِ
فذاك مُستوفى بديعُ الوضعِ
وإن يكن بعضُهما تركّبا
من كلمتين فادْعُه المركّبا
فحيثما يتفقان رسْمَا
فالمُتشابهَ لديهم يُسْمَى
ولْتدْعُهُ المفْروقَ مهما اختلفَا
فى الرَّسْم ، والمَرْفُوَّ إمَّا ائتلفَا
من كلْمةٍ وبعضِ أخرى كالمُصاب
وطعمُ صابٍ فى كلام من أصابْ

ذكر المحرف

وحيثما فى هيئة الحروفِ
تخالفَا فانْسُبْه للتحريف
وحُكْمُ ما شُدِّدَ من ذى الأحرُفِ
كحكم ما خُفِّفَ منها فاعرِفِ

ذكر الناقص وفروعه

وإن يكُ التعددُ فى إحداهُمَا
أنقصَ حرفاً ، ناقصٌ له سُمَى
فى أولٍ أو وسطٍ أو فى التمامْ
وبالمُطرَّف ادعُ ذا بلا كلامْ
وبالمُذَيَّل ادعُ ما زاد كَما
بين الجَوارِى والجَوَى فلْتعلَمَا

ذكر المضارع واللاحق

وحيث الاختلافُ فى نوع فمَا
فى غير واحد يكون منهما
فإن يكُونَا مُتقاربَيْنِ
فهْوَ المُضارِعُ بغيرِ مَيْنِ
لا فرق بين طرفٍ ووسطِ
كجِىءْ بذا المختبط المغتبطِ
وإن تباعدَا فذاك اللاحقُ
كمثل ما فى لاسق ولاحق
وحيث الاختلاف فى الترتيبِ
فهو جناس القلب فى التركيب
كالفتح والحتف وذا يُلقَّبُ
بقلْب كُلٍّ حيثما يستوعبُ
وقلْب بعْضٍ إن ببعض الأحرُفِ
كمثل روْعَاتٍ وعَوْراتٍ يفى
وإن أتتْ فى البيت أُولى الكلْمتيْنْ
صدرًا وأُخرى عَجُزًا بغير مَيْنْ
وفيهما تجنيسُ قلْب فادعُهُ
مُجنَّحاً ولا يعزُّ وضعُهُ

وعند الاقتران يُدعى حيث جَاءَ مردّدا مكررا مزدوجا
وحيثما اشتقاقٌ أو شِبْه يجِيء بينهما فَبالجِناس يلتحقْ

كسبا بنبأ يقين
ثمَّ جناس القلب بالتَّبْيين

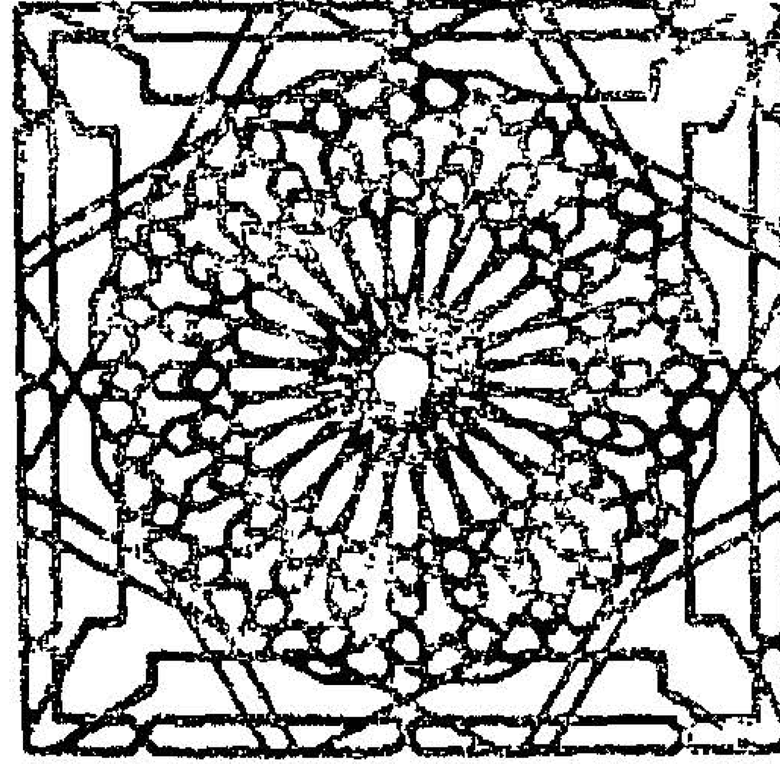
تَمَّ الذى رُمْتُ من الجناسِ
والحمد للإلٰهِ ربِّ الناسِ

ثُم على أفضل رُسْلِ اللهِ
أزكى صلاته بلا تَناهِ

لاحقة

وعندهم تجنيسُ خطٍّ وهْو ما
توافق اللفظان فيه فاعْلمَا

عبد الله كنون
عضو المجمع من المغرب



سجل شعري تاريخي فريد

للدكتور شوقي ضيف

كل من يدرس تراثنا الشعرى يعرف أنه يصور حياة أسلافنا من جميع أطرافها السياسية والاجتماعية والعقلية فقد مثلوا فيه جوانب حياتهم، ولم يقصروه على وصف مشاعرهم الوجدانية الخالصة، بل وسعوا من قديم جنباته ليصور بيئتهم ومجتمعهم وحروبهم أو أيامهم. وعرف ذلك علماؤنا فى العصر العباسى، فحينما حاول الجاحظ مثلا أن يتحدث عن الحيوان ملأ كتابه عنه بأشعار الجاهليين فى الحيوان وطبائع أنواعه سواء منها ما كان سبعاً أو بهيمة؛ وبالمثل علماء اللغة حين تحدثوا عن النجوم والرياح والأمطار والفلوات ومراعيها وأشجارها ونباتاتها وأزهارها ساقوا فى ذلك أشعاراً كثيرة، كما ساقوا أشعاراً كثيرة تصور عاداتهم وتقاليدهم وديانتهم.

وقد مضى الشعر العربى على هذا النحو طوال عصوره يصور تاريخ العرب السياسى والحربى وحياتهم الاجتماعية والفكرية، وتنبه لذلك مؤرخونا قديماً، إذ نرى الطبرى وغيره يتوقفون فى تاريخهم مراراً لينشروا بعض الأشعار التى نُظمت فى الأحداث السياسية والحربية، وكأنما هداهم حسُّهم التاريخى من قديم إلى أن الشعر وثيقة تاريخية ينبغى أن تضاف إلى وثائق الأخبار المروية. ولا أرتاب فى أنهم تنبهوا إلى أنه وثيقة أكثر نبضاً بالحيوية والحياة من الروايات الشفوية، لأن هذه الروايات تعتمد على السمع، بينما يعتمد الشعر غالباً على البصر والمشاهدة، إذ يشاهد الشاعر الأحداث التاريخية ويصورها، وليس من رأى كمن سمع. وليس ذلك فحسب، فإن الرواية للحدث التاريخى قد يدخل عليها الكذب والتعصب والهوى، وقد يدخل عليها أيضاً شىء من النسيان لبعض دقائق الحدث.

ومن المؤكد أن الشعر أحياناً يكمل التاريخ، فقد ينسى المؤرخون معركة

كبرى ويذكرها بعض الشعراء كمعركة الأسطول العربي مع الأسطول البيزنطي في عهد الخليفة المتوكل، فإن الأسطول الأخير دُمِّر كأن لم يكن شيئاً مذكوراً. وسكتت عن ذكر ذلك كتب التاريخ العربية، ولولا أن البحتري صور المعركة وبطولة العرب فيها ما عرفنا عنها شيئاً. وكلنا نعرف أنه لو لم يقيَّض المتنبي لتصوير بطولة سيف الدولة أمير قلعة حلب الذي ظل ينازل جيوش الدولة البيزنطية نحو ثلاثين عاماً وينزل بها هزائم متعاقبة ما تجسدت هذه البطولة في نفوس الشباب العربي من جيل إلى جيل بالصورة الرائعة التي رسمها المتنبي للبطل العربي، وإذن لكانت سرداً تاريخيا لايحوي شيئا من هذا اللهب الحماسي الشعري الذي أودعه المتنبي سيفياته. ومن يقرأ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: دولة نور الدين ودولة صلاح الدين، لأبي شامة المقدسي يلاحظ أنه قسم وصفه لمعاركهما الحربية ضد الصليبيين قسمين: قسماً لنفسه يسرد فيه أحداث المعركة، وقسماً للشعراء يصفون فيه المعركة وأحداثها وصفاً شعريا، يصور بسالة قائدها وجنوده تصويراً يشعل الشجاعة والمضاء والعزيمة المصممة في نفوس العرب كي يسحقوا الصليبيين سحقاً لايُبْقِي ولا يذر.

وعلى هذا النحو كان الشعر العربي دائما سجلا تاريخيا قيما لأحداث القرون الماضية؛ وليس هذا كل ما أريد أن أقوله، بل أريد أن أقول أيضا إنه حين نفتقد التاريخ الدقيق لدولة من دولنا في العصور الغابرة ينبغي أن نلجأ إلى دواوين الشعراء الذين عاصروها. لعلنا نجد فيها ما افتقدناه أو بعض ما افتقدناه. ولعل من الطريف أن نعرف أن دولة العيونيين التي حكمت إقليم الأحساء والقطيف وهجر والبحرين نحو مائة وسبعين عاماً لم تسجَّل تسجيلا واضحا أحداثها وشئونها التاريخية لاعند ابن الأثير ولاعند غيره من المؤرخين القدماء، ولولا أن شاعراً سجل كثيراً من هذه الشئون والأحداث في أشعاره لضاع منا تاريخ هذه الدولة إلا قليلا. وهو شاعر من الأسرة الحاكمة أسرة العيونيين خلَّف ديواناً كبيراً من الشعر هو علي بن المقرب العيوني الذي عاش نحو ستين عاماً من سنة ٥٧٢ إلى سنة ٦٣١ ولم يسجل ما عاصره من أحداث دولته التاريخية فحسب؛ بل سجل أيضاً

أحداثها منذ نشأت إلى عصره فى تضاعيف مديحه لأمرائها وفخره بآبائه وأسلافه، وبذلك كان الديوان سجلا شعرياً تاريخياً طريفاً. وقد طبع فى مكة و الهند ودمشق وآخر طبعاته فى القاهرة بتحقيق وشرح عبد الفتاح الحلو.

ويحدثنا ابن المقرب طويلا عن قضاء مؤسس الدولة العيونية عبد الله بن على العبدلى على القرامطة نهائياً، بينما تقول كتب التاريخ إن دولتهم فى الأحساء والبحرين كانت قد تلاشت قبل ظهوره بأكثر من ستين عاماً على يد الأصفر بن أبى الحسن الثعلبى سنة ٣٩٨ للهجرة، وردت إلى خلافة بغداد. ويشير ابن المقرب إلى اضطرابات وقلاقل حدثت فى هذه الديار لمنتصف القرن الخامس الهجرى، وأن ابن عياش استطاع الاستيلاء عليها، ومن يده أخذها عبد الله بن على العبدلى جميعاً، ولم يبق مع أحد من أعوانه شيئاً، وفى ذلك يقول:

فصار ملك ابن عَيّاشٍ وملك أبى الـ
بَهْلول مَعْ مُلكنا عِقْدًا لنا نُظما

وأبو البهلول كان ضامناً لخراج جزيرة البحرين. ويبدو من شعر ابن المقرب أن ابن عياش كان قرمطيا، إذ يذكر أن عبد الله بن على العبدلى قضى عليه وعليهم قضاءً مبرماً، يقول:

سل القـرامطَ من شَظَّى جَماجمهم
فَلْقاً وغادرهم بعد العُلا خَـدمَا
من بعد أن جَلَّ بالبحرين شأنُهمُ
وأرجفوا الشام بالغارات والحَرما

وهو يشير إلى الطامّة الكبرى طامة إغارة أبى طاهر القرمطى فى سنة ٣١٧ للهجرة على الحجاج فى مكة يوم التَّروية وهم يلبُّون وهو يقتلهم قتلًا ذريعاً، وقصة اقتلاعه الحجر الأسود مشهورة. كما يشير إلى غاراتهم على الشام فى سنة ٣٦٠ وما بعدها، ومضى فى القصيدة يذكر غاراتهم على العراق وتحريق مؤسس دولتهم أبى سعيد الجنابى لكثير من قبيلة عبد القيس، ويشير إلى فساد عقيدتهم قائلًا:

وأبطلوا الصَّلَوات الخمسَ وانْتَهكوا
شَهْرَ الصيام ونَصُّوا منهمُ صَنَما
وما بَنَـوْا مسجدًا لله نعـرفُـه
بل كلُّ ما أدركوه قائماً هُـدِما

وابن المقرب ينصُّ على تعطيل القرامطة لفروض الدين، ويفصِّل القول فى حروب

عبد الله بن على مع ابن عياش وكيف أنه فرَّ منه إلى أُوال (البحرين الآن) وتبعه بعض قواده هناك وقضوا عليه، يقول:

فانْصَاعَ نحــو أُوالٍ يبتغى عِصَما
إذ لم يجد فى نواحى الخطِّ مُعْتَصَما

فأقحم البحر منا خلفــه مَلِكٌ
ما زال مذ كان للأهوال مُقْتَحِماً

والخط: القطيف ونواحيها. وكان القرامطة قد استنجدوا ببنى عامر بن ربيعة، فجاءهم من كل فَجٍّ، واحتشد معهم كثير من البوادى، ولقيهم عبد الله ابن على فمزَّقهم شر ممزَّق، وفى ذلك يقول ابن المقرب:

فاستنجدتْ عامرًا من بأسِها فأتتْ
مُغِذَّةً لاترى فى سيرها يَتَما

واليتم: البطء. ويذكر أن فرسانهم كانوا ألفاً كاملة، وأنهم نكَّلوا بهم تنكيلا شديدًا:

دُسْناهمُ دَوْسَةً مــريَّــةً جمعتْ
أشلاهم وضِبــاعَ الجوِّ والرَّخَما

مرية: قوية. فهم حطموهم حطما، جعل أشلاءهم تتكاثر وتتناثر، وتحط عليها ضبــاع الأرض ونسور الجو. وتدين الأحساء والقطيف وأُوال لعبد الله بن على العيونى وتصبح خالصة له ولأبنائه من ورائه. ويتولَّى بعده زمام الحكم فى البلاد ابنه الفضل ويشيد ابن المقرب بشجاعته، ويذكر أنه هو الذى اقتحم الخليج إلى البحرين وراء ابن عياش وأجهز عليه، ويتحدث عن أيامه وأنها كانت أيام أمن ورخاء، وفيه يقول:

منا الذى حــاز من ثاجٍ إلى قَطَرٍ
وصيَّر الرملَ من مال العدوِّ حِمَى

وثاج: قرية فى شمالى البحرين، وقطر فى جنوبيها، والرمل: مرعى فى الطريق إلى عُمان، حماه فكان لايرعى فيه أحد، على نحو ما صنع قديماً كُلَيْب. ويذكر من رخاء البلاد فى أيامه أن قوماً من التجار حاولوا العبور إلى البحرين فانكسرت بهم السفينة، وسلموا. ولكن أموالهم غرقت، فعوَّض كلا منهم بقدار ما فقد من ماله، وكان بينهم جوهرى، فقد عقودًا من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف، فأعطاه المال واشترى به ثانية عقودًا مماثلة. ثم نزل هذا الجوهرى العراق، وعرض جواهره على سلطان هناك فبخسه ثمنها. فقال له: خذها بلا ثمن، فإن هذه الجواهر جميعها من مال ملك البحرين، وقصَّ عليه القصة.

فأمر السلطان فى الحال بجام من شراب . فشربه قائماً — كما يقول الخبر — إجلالا لملك البحرين الفضل بن عبد الله . واشتراه من التاجر ، كما قال ، دون أى انتقاص للثمن الذى ذكره ، وفى ذلك يقول ابن المقرب مفاخراً :

منا الذى قام سلطانُ العراق لَهُ
جلالةً والمَـدى والبُعْدُ بينهمـا

واطّرد الأمن والرخاء فى عهد ابنه محمد أبى سنان ، وقد ظل أميراً على القطيف وأوال ، أو البحرين ، ثمانية عشر عاماً ، وكان بحراً فياضاً مثل أبيه الفضل ، ويروى أن عامله على البحرين جاء إليه بمال ولآلىء وجواهر كثيرة ، وتصادف أن كان فى مجلسه شاعر عراقى يعرف بالثعلبى ، دبّج فيه مدائح كثيرة ، فقال للعامل : ادفع المال إليه ، وكان فيه جوهرة بألف دينار ، فبُهت العامل ، ومات على الأثر ، وإلى ذلك يشير ابن المقرب بقوله :

منا الذى مِن نَداه مـات عاملُهُ
غَمًّا وأصبح فى الأموات مُخْتَرما

وخلفه ابنه أبوفراس غرير ، ويُرْوَى أن الثعلبى شاعر أبيه امتدحه يوماً بقصيدة فطلب إلى صاحب خزائنه أن يعطيه جميع مفاتيحها ويتنحى بعيداً عنها ليأخذ منها ما يريد ، فقال الثعلبى : فى بعض ذلك غنى وسَعة ، ويكفينى ألف دينار ، فأمر له بأربعة آلاف ، وفى ذلك يقول ابن المقرّب :

منا الذى جادَ إيثاراً بما ملكتْ
كفّاه لا يَـدَ يجزيها ولارَحِمَـا

وهذه العطايا للشعراء إنما وقفنا عندها لندل على الرخاء الذى نعمت به تلك الديار فى عهد هؤلاء الأمراء ، وأيضاً لندل على أنه كانت هناك نهضة أدبية رَعَوْها خير رعاية ، على نحو ما نرى الآن فى عطاياهم وجوائزهم الغامرة للشعراء . وهذه الأخبار التى نسوقها مع الأبيات السالفة إنما استقيناها من الديوان نفسه ، فمع كل قصيدة وأبياتها شروح لإشاراتها التاريخية . وكأن ديوان ابن المقرّب يحمل تاريخ العيونيين شعراً وشرحاً أو نثراً . ويذكر أنه كان يلى الأحساء فى زمن غرير عمه على بن عبد الله وأنه أتت على أهل الأحساء سنة شديدة ، فأمر بخزائن الغلال والتمر أن تفتح ويأخذ منها أهلُ كلِّ بيت ما يسدُّ حاجتهم ، وأمر برفع الضرائب عنهم ،

وما زال ينفق عليهم حتى صلحت ثمارهم وأخصبت معايشهم، يقول ابن المقرب :

منا الذى نَفَض أمـوالَ الخزائن فى
غَوْث الرعيّـة لا قَرْضاً ولا سَلَما

وبيع السَّلَم المؤجل معروف، فهو قد أعطاهم ما أعطاهم دون أى مقابل .

وعاصر هذا الأمير فى القطيف أبو الحسن ابن عبد الله بن على، وإليه لجأت جماعة من فرسان عبد القيس، عدادهم سبعون فارساً، فأكرمهم وأمر لكل منهم بدور وأمتعة وخدم، وسجل لهم فى البساتين والأراضى إقطاعات يتوارثونها خلفاً عن سلف، يقول ابن المقرب :

منا الذى جعل الأقطاع من كرمٍ
إرْثـاً تـوزّعـه الوُرّاث مقتسَما

وأهم من ذلك أنه حضر هذا الأمير ذات يوم أربعون شاعرًا، فأعطاهم أربعين فرساً مُسْرَجاً ملجما

ولعل فى هذا العدد الوفير من الشعراء مايدل بوضوح على النهضة الأدبية زمن العيونيين، وإلى هذا العطاء وأولئك الشعراء يشير ابن المقرب بقوله عن أبى الحسن :

وجاد فى بعض يومٍ وهْوَ مُرْتَفِقٌ
بـأربعين جوادًا تَعْـلُكُ اللُّجُمـا

وخلفه ابنه الحسن على القطيف، ووفد عليه عمه على بن عبدالله - المار ذكره - أمير الأحساء فتلقاه خارج القصر ماشياً، وأقطعه قرية الظهران على ساحل البحر، وهى - كما يقول شارح الديوان - ذات نخيل وأشجار وثمار وزروع. وحرّم أن توقد بها نار - للضيافة غير ناره، يقول ابن المقرب :

منا الـذى لم يَدَعْ نارًا بساحتِه
تُذْكَى سوى ناره للضيفِ إن قدِما

ولابد لقارىء ديوان ابن المقرب أن يلاحظ أنه يتحدث تارة عن أمير القطيف وتارة عن أمير الأحساء، وكانت للأول الإمارة الكبرى فى تلك الدولة، وغالباً تكون معه أيضاً إمارة أوال - أو البحرين الحالية . ومن أهم أمراء الأحساء فى عهد الحسن بن أبى الحسن ابن عبد الله أخوه شكر ويذكر ابن المقرب أن شخصاً ثار عليه يسمى النائلى وأنه جمع له جموعاً غفيرة من البدو، وحاصر الأحساء ثلاثين يوماً، اقتحم فى نهايتها أبوابها، وكاد يكتب له النصر، غير أن شكرا تلقاهم مع أنداده وجنده وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً عند بستان يسمى بالخائس وكان من

فقتلاهم المسبيع أحد شجعانهم ، يقول ابن المقرب :

منا الذى عامَ حَرْبِ النائلىِّ جَـلا
يوم السُّبيْع ويومَ الخائسِ الغَمَما

وكان شكر فارساً مغوارًا ، وفى عهده وعهد أخيه الحسن — ويلقب بالزئر — سار صاحب جزيرة كيش بمراكب كثيرة لغزو أُوال ،ونزل فيها بمكان يسمى سُترة ، وفاجأهم فيه شكر ، واحتدم القتال بين الفئتين ، ودارت على صاحب جزيرة كيش وجنده الدوائر ، فقتل منهم ألفان وثمانمائة ، ولم يسلم منهم إلا عدد يسير ، وفى ذلك يقول ابن المقرب :

ويومَ سُتْرةَ منا كان صاحبُـه
لاقتْ به سامةٌ والحاسكُ النَّدما
ألفين غادر منهم مَعْ ثمـانِ مِئى
صَرْعَى فكم مُرْضَعٍ من بعده يَتَما

ويتِم : أصبح يتيما . ويتوفى شكر سنة ٥٦٢ ونظل نحو عشرين عاماً لايلقانا أمير نابه للعيونيين يتحدث عنـه ابن المقرب مفاخرًا كعادته فى أشعاره . حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ تولى على الإمارة جميعها أهم أمراء هذه الأسرة العيونية : محمد بن أبى الحسين أحمد بن عبد الله ابن على وكان قد بدأ بولايته على الأحساء ، وترك القطيف للحسن بن شكر بن الحسن ابن عبد الله فلم يفكر أولًا فى ضمها إليه ، وحدث أن حلّ على القطيف فى القيظ ونزل منها على صَفْوَى . فخشى الحسن أن يكون غرضه الاستيلاء على بلده ، فأثار عليه آل شبانة وآل الجحّاف وعساكر القطيف وفرسانها ، ونازله ، ودارت الدوائر عليه وعلى من معه ، وفى ذلك يقول ابن المقرب :

لما أتتْ أهلُ القَطيف بجَحْفَلٍ
متـوقِّـدٍ كتـوقـدِ النيـرانِ
ورمى الأميرُ جموعهم فتَمَزَّقَتْ
كالشَّاء إذ جَفَلَتْ من السِّرْحانِ
فـرَّتْ فـوارسُهم لما قد عاينتْ
هَرَباً ولم تَعْطف على النسوانِ
وحـوَى ظَعائنهم وأحـرز مالهم
غَصْبـاً وأنـزلهم بشرٍّ مكانِ

وبذلك مدّ الأمير محمد بن أبى الحسين لواء إمارته إلى القطيف وجميع بلاد تلك الدولة ، بل لقد أخذ يمده على القبائل فى نجد ، واتسع فى مَدِّه غرباً وشمالًا ، مما جعل

الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ.) يعهد إليه بخفارة الحاج من بغداد إلى مكة ذهاباً وإياباً، وفرض له فى كل سنة ألفاً ومائتى ثوب من عمل مصر أكثرها من الإبريسم كما فرض له من البصرة كل سنة ألفاً وخمسمائة حِمْل حنطة وشعير وأرز وتمر مدة حياته، وإلى ذلك يشير ابن المقرب إذ يقول:

منا الذى كلَّ عامٍ بالعـراق له
رَسْمٌ سنىٌّ إلى أن ضُمِّن الرَّجَما

والرجم: حجارة القبر. يريد إلى وفاته.

ويشيد به فى أشعاره إشادات كثيرة، جعلته يقول له: نشدتك الله الذى لا إله إلا هو أن لا تتحامى مايحويه ملكى من أمر ونهى وفرس ومال وخادم ولا تشاورنى فى شىءٍ مما أملك، فأمرُك فيه كأمرى، وله يقول:

رِماحُ الأعادى عن حِماك قصارُ
وفى حَـدِّها عما تروم عِثـارُ
وكل امرىءٍ ليستْ له منك ذمةٌ
يُضـامُ على رغمٍ لـه ويُضـارُ
وما عزَّ من أمسى سواك مَعاذَهُ
ولو عَصَمتْه يَعْرُبٌ ونزارُ
فَعِشْ فى عظيم الملك ما لاحَ كوكبٌ
وأظلم ليـلٌ أو أضـاءَ نهـارُ

وقد استطاع أن يمد رياسته على قبائل نجد الشرقية وأن يحمى الحجاج، كما أراد الناصر، فى ذهابهم وإيابهم إلى الحج، فأصبحت الطرق آمنة، ولم يعد بين القبائل من يقطع الطريق على الحجاج وينهب أموالهم أو يسفك دماءهم ويسبى نساءهم. وجاءته أخبار فى سنة ٥٩٨ بأن بنى مالك الطائيين يتجمعون حول لينة - ماء بطريق مكة يرده الحجاج - كى يقطعوا عليهم الطريق فجمع لهم فرسان قومه، وفاجأهم، يقتل فيهم ويسفك دماءهم. وكانوا جمرة من جمار العرب ذوى بأس ونجدة، فأوقع بهم وقعة مُبيرة، أهلك فيها كثيرا من الرجال وأخذ الأموال وسبى الحريم والذرارى، وفى ذلك يقول ابن المقرب:

وفى لِينـةٍ أردى شغـاميمَ طَيِّىءٍ
جِهـارًا ولونُ الجـوِّ بالنَّقْع حائلُ
عشيَّةَ لايَلْـوى عِنـانَ جـواده
حِمًى والعَـذَارى دَأْبُهنَّ التعاول

الشغاميم: الطوال، ويريد الشجعان وكأنما أرادت طيىء أن تثأر لهـذه الواقعة من أمير القطيف والأحساء، فجمع رؤساء بنى ربيعة بن حارثة من طيىءٍ وهم

سعيد بن فضل ومانع بن حديثة ومسعود ابن بريك جموعاً غفيرة من قبيلتهم، وانضم إليهم دهمش بن سند وقبائل شتى من زبيد وعرب الشام، وائتمروا فيما بينهم أن يقطعوا الطريق على حجاج بغداد ونَقْض ذمة الأمير محمد بن أبى الحسين وإثبات أنه لايستطيع أن يفى بما حمَّله الخليفة الناصر من تأمين طرق الحجاج . وعلم الخليفة بما اعتزموا عليه، فأنبأه الخبر، فجمع عرب إمارته وانضم إليه عرب العراق العقيليون من بنى المنتفق وبنى خفاجة ومن خالطهم من قبائل قيس وربيعة، وسار حتى لقى جموع طيىء ومن معهم بظاهر الكوفة، واقتتلوا قتالًا عنيفاً، ودارت الدوائر على طيىء وحشودها، وتقهقروا حتى بلغوا رِحالهم . وأرسل رؤساء طيىء إلى الأمير محمد يناشدونه العفو عنهم، فرقَّ لهم وعطف عليهم وأجارهم وأجار أهلهم وأموالهم، ولم يُجِرْ دَهْمَشًا، فدخل مشهد الإمام على بن أبى طالب وتحرَّم به مستجيرًا بقبره . فأقام الأمير محمد عليه الحراس خوفاً من هربه، وأرسل إلى الخليفة الناصر يذكر له أمره ويسأله رأيه فيه، فأرسل إليه جنودًا ساقوه فى الأغلال إلى بغداد. واستتابه الناصر، فتاب، وخلع عليه وخَلَّى سبيله . ويردد ابن المقرب ذكر هذه الواقعة فى مدائحه للأمير محمد من مثل قوله :

ولما أتتْ أهلُ الشآم يقودُها
إليه الرَّدَى قَوْدَ الجَنيب لراكبِ

سعيدٌ ومسعودٌ ورَهْطُ حديثةٍ
يُسِيرون جُرْدَ الخَيْل بين النجائب

أتاهم يجوبُ البِيدَ بالخيل والقَنا
فتًى عبدلىٌّ فى الوغَى غيرُ هائب

فلم يُنْجِهِم إلا الفرارُ وجيرةٌ
أتتْ منه ما فيها معابٌ لعائب

ومالَ أميرُ المؤمنين بودِّه
إليه وسَمَّاهُ زعيمَ الأعارب

حمَى البرَّ من حدِّ العراق فحازَهُ
إلى الشام واستولى على كلِّ ناعب

ودانت عرب نجد جميعاً بالولاء للأمير محمد من دياره إلى مكة والمدينة، ومن العراق إلى الشام، ولم يعد هناك من يقطع الطريق على الحجاج ولا من

يعبث بالأمن ، وسارت القوافل من عُمان إلى حلب ومن بغداد إلى مكة دون حاجة إلى خفارة . وهو حدث مهم ومأثرة عظيمة . ولولا ابن المقرب وديوانه ماعرفنا أعمال هذا الأمير وماكفله للجزيرة العربية فى أيامه من أمن ما بعده أمن ، وهو أمن شمل الحجاج إلى بيت الله الحرام ، فلم يعودوا يُنْهَبون ولا يسلبون أموالهم وأزوادهم ، ولم تعد السيوف والرماح تنوشهم وتُهْدر دماءهم . ومن العجب العجاب أن هذا الأمير العظيم يأْتمر به بعض أهله فى سنة ٦٠٣ للهجرة ، إذقُدِّر له أن يُغْوى ابنُ عمه غرير بن الحسن ابن شكر راشدَ بن عميرة على اغتياله نظير أخذه لجميع أمواله وذخائره ، أما الإمارة فتكون لغرير . وتمت المؤامرة وقُتل الأمير غيلةً ، وبكته إمارته طويلا ، وأنّ ابن المقرب وأعول بمثل قوله :

لِيبْكِ العُلا والمجدُ والبأْسُ والنَّدى
لقد ضلّ واديهـا وجفّتْ مَسَايلُـهْ
وتنـدبُه البيضُ الصوارمُ والقَنا
لمـا أنْهلتْهـا كفـه وأنامِلُـهْ

لعمـرى لئن كان الأميـرُ محمَّدٌ
قَضَى وأُصيبتْ يـوم نَحْسٍ مقاتلُهْ
لقـد مُنِيتْ منه الأعـادى بثائرٍ
همامٍ أبِىَ أن يَحْمل الضَّيْمَ كاهِلُه

وصلٌ . أجدب . ولا نرى لابن مقرب مديحاً فى غرير ، بل على العكس نرى له فيه لمزًا كثيرًا ، وهو لمزٌ شمل به أيضاً خليفته على الأحساء أبا ماجد محمد بن على بن عبد الله ، مما جعله يجتاح أمواله من طريف وتالد وصامت وناطق ، ولم يبق له صفراء ولا بيضاء . ولا راعى فيه حق النسب والولاء ، وزجّ به فى غياهب السجن وضيّق عليه فى الأصفاد ، وجعل على الأبواب لحفظه الحراس والأرصاد . ونظن ظناً أن ذلك كله لم ينزل به لندبه الأمير محمداً ولمز قاتليه ومن خلفوه ، بل أيضاً لأنه فكر فى أن يستخلص الأمر لنفسه ، إذ يقول فى بعض قصائده :

إلى م بنى الأعمام نُغْضى على القَذَى
ودَمْعُ المـآقى قـد تداعتْ حَوافِلُهْ
وهل يحمل العزمَ الثقيلَ أخو العُلا
ويضعف عن حَمْل الظُّلامة كاهلُهْ

وما بعد سَلْب المال والعِزّ فاعلموا
مُقامٌ وزادُ المرءِ لابُدَّ آكِلُهْ

ومضى يستثير قومه وأهله للثورة على الحاكمين ثورة تأتى عليهم . وأقام فى السجن مدة ، ظل فيها يدبِّج القصائد فى مديح محمد بن على بن عبد الله حتى عفا عنه وردَّ إليه حريته ، فولَّى وجهه نحو العراق ونزل البصرة ، ومدح واليها باتكين بن عبد الله الرومى ، وانعقدت بينهما صلة منذ هذا التاريخ : سنة ٦٠٥ للهجرة . واتجه نحو بغداد ، فمدح الخليفة الناصر ، ونال بعض جوائزه ، وتعرَّف على أدباء بغداد وعلمائها وفى مقدمتهم أبو البقاء العكبرى العالم النحوى المشهور. ورأى أن يعود إلى موطنه الأحساء محملا بتجارة من أعمدة الحديد ، غير أنه فوجىء فى مدينة واسط بابن الدبيثى ضامن المكوس يطالبه بضريبة تبلغ نصف ثمن بضاعته ، مما جعله يُصْليه نارًا حامية من هجائه المقذع . وحين قدم البصرة طالبه ضامن المكوس فيها شرف الدين المعروف بالكاتب ببعض الضرائب ، فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة بمثل قوله :

يا شمس دين الله كم لك من يد
يُثْنِى بها بادٍ ويشهد حاضرُ
ولدىَّ أعمدةٌ قليلٌ قَدْرُها
جدًّا وللديوان وال قادرُ
ولقد جرى فيها بواسطَ وقعةٌ
ما كان لى فيها هنالك ناصرُ
فادْفَعْ بجاهك أو بمالك مُنْعماً
عنى ، فمالُك للعُفاة ذخائر

ويعود إلى موطنه الأحساء فى سنة ٦٠٥ مؤملا زوال البغضاء بينه وبين محمد ابن على أميرها . ونجده يستعطفه ببائية طويلة يذكر فيها مناقب قبيلته وعشيرته وأهله العيونيين ، ويطيل فى مديحه طامعاً أن يرد عليه أمواله وبساتينه ، متوسلا إليه بقرابته وأواصرها الوثقى بمثل قوله :

أبا ماجدٍ أنظرْ إلى ذى قرابةٍ
بعينِ رِضاً يُغْضِى لها الخائنُ الخِبُّ

ولما أنشده القصيدة أقبل عليه واعدًا له وعدًا جميلا ، غير أنه لم يبادر إلى تحقيق وعده ، فمدحه ابن

المقرب بكافية يستنجزه فيها وعده ، مكررًا ذكر القرابة وما بينهما من رحم واشجة ، ومغالياً فى مديحه غلوا شديدًا بمثل قوله :

تَـرَى العَرَبَ العَرْبا يحجُّون بَيْتَهُ
كأَنَّهمُ جـاءُوا لـذَبْح النسائكِ
رِجـالا ورُكْباناً فمن طالبٍ غِنًى
ومن تائبٍ عن زَلَّـةٍ متـداركِ

وعاد إلى وعده . ولم يحظ منه الشاعر بغير الوعد والمماطلة فيه ، وفى هذه الأَثناء استطاع الفضل بن الأَمير محمد ابن أَبى الحسين بمساعدة الخليفة الناصر وما أَمده به من الجند والسلاح أَن يستولى على القطيف وأَن يفتك بغرير وقتلة أَبيه ، فرحل إليه ابن المقرب وأَخذ يدبِّج فيه مدائح كثيرة مثنياً فيها على أَبيه ومترحماً ، غير أَنه لم يحظ منه بطائل ، إلا قليلا ومقدارًا حقيرًا ، مما جعله يتلوَّمه بقوله :

فلا تتَّكلْ يا فَضْلُ فى الفَضْل والنَّدَى
على سالفٍ أَسْداه جَـدٌّ ووالِـدُ
فلاَ حمدَ إلا بالذى يفعـل الفتَى
ولو كثرُتْ فى أَوَّليـهِ المحامـدُ

وعبثاً يذكره بما أَصابه من مصادرة أَملاكه وأَمواله وسجنه فى سبيل ميله إليه وندبه لأَبيه واستثارة الناس ضد قاتليه . ولم يكن الفضل فى همة أَبيه وعزمه وشجاعته ، وزادت القطيعة بينه وبين ابن المقرب وغيره من أَبناء عمومته حين وقَّع صلحاً بينه وبين أَمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين وبعض مقاسيمها ، وفرض على نفسه إتاوة له سنوية : خمسمائة دينار ، مما جعل الناس فى القطيف والأَحساء يسخطون عليه سخطاً شديدًا . ويثور عليه ابن أَخيه على بن ماجد بن محمد بن أَبى الحسين ، ويفرح به الشاعر كما فرح به أَهل إمارته الأَحساء وغير الأَحساء ، إذ نشر العدل فى ربوع البلاد ورفع عن الناس الجور والمظالم ، وله يقول :

أَضحتْ بك الأَحساءُ ساكنةً وقد
رَجَفتْ بمن فيهـا وكادت تُقْلَبُ
ومنَعْتَها من بعد ماكانتْ سُدًى
فى كلِّ ناحيـةٍ يُغـار ويُنْهَبُ
وملأْتَهـا عَـدْلًا وكانت عُمِّمَتْ
جَـوْرًا تغورُ به الديار وتُخْـرَبُ

فعلى بن ماجد قد أَشاع فى الأَحساء الأَمن والعدل اللذين لاتصلح حياة الرعية

بدونهما ، وعمّ الرخاء ، غير أن ذلك لم يدم طويلا ، إذ ثار عليه مقدم بن غرير ابن الحسين بمساعدة ابن أبى جروان أحد رؤساء قبيلة بنى عبد القيس .

وضعفت أداة الحكم حينئذ ضعفاً شديداً ، وعاث فيها المفسدون ، وأصبح لأهل البادية السلطان الأكبر وخرجت الأموال إلى أيديهم ، واجترأ الناس ، وصار كلٌّ له هوى يميل إليه ، ويود لو يكون الملك وزمامه فى يديه ، وزُجّ فى السجون كثير من العيونيين وغيرهم وصودر ما فى خزائنهم من أموال . ونرى ابن المقرب يصور كيف فسد الحكم حينئذ فسادا من الصعب درؤه أو إصلاحه فى قصيدة له نونية طويلة يوجه فيها الحديث إلى قبيلة عبد القيس جميعها لعلها تتدارك الصدع المتفاقم ، قائلًا :

أرِجالَ عبدِ القَيْسِ كم أدعوكمُ
فى كل حينٍ - للعُلا - وأوانِ
القومُ تأكلكم ويأكل بعضُكم
بَعْضاً كأنكمُ من الحيتانِ
مَنْ عزَّ منكم كان أكبرُ همِّهِ
شَقَّ العَصَا وتذكُّرَ الأضغانِ
لم يغضب البدوىُّ إلا قلتمُ
سُدُّوه ، كى يرضى ، بمال فلانِ
والله ما نحسَ البلادَ سِواكمُ
لا بالعِدى انتحسَتْ ولا السلطانِ

ويدعو عبد القيس إلى الالتفاف ثانية حول أميرها القديم ، ويتجه إلى ابن أبى جروان باللوم العنيف أن يكون أداة من أدوات الخراب فى الإمارة العبدلية . ثم يأخذ فى استعطافه ، حتى يكف عن ظلم الناس ، إذ كان مقدم بن غرير لعبة فى يده . وتظلم الدنيا فى عين ابن المقرب ، فيخرج من البلاد إلى العراق ، ويمتدح والى البصرة باتكين بن عبد الله الرومى والخليفة الناصر فى سنتى ٦١٣ و ٦١٤ للهجرة ، ويعود إلى موطنه ، فيجد صولجان الحكم بيد أبى القاسم محمد بن مسعود ابن محمد بن على ، فيمتدحه بقصيدتين : دالية وميمية ، ويشيد فيهما بكرمه وشجاعته ، ويتنصل فى ثانيتهما من وشايات خصومه وما يزوِّرونه عليه من القول . ويمضى فى استعطافه وأنه تحمل ماتحمل من اجتياح ماله وسجنه فى سبيل أُسرته الحبيبة إليه ، ويتوسل إليه أن يبقى على ذمامه وأن يرعاه بعنايته ، ويمتدح ابنه مسعودًا أيضاً بقصيدتين لامية وميمية ،

ويبدىء ويعيد فى وصفه بالكرم والشجاعة والفروسية والتنكيل بالأعداء. ويتولى إمارة البلاد أخوه الفضل على بن مسعود، فيمتدحه بقصيدة لامية، يشيد فيها بحكمه وحسن تدبيره وسياسته، وعدالته ونشره لأحكام الشريعة وأخذه على أيدى المفسدين والفاسقين، يقول:

رفعتَ عمادَ المجد من بعد ماوَهَى
وَرَثَّ وأضحى رُكْنُه وهْو مائلُ
وقمتَ بأحكام الشريعة فاستوتْ
لديك ذوو الأجبال: طَيٌّ ووائلُ
وأوهيتَ كيدَ الفاسقين فأصبحوا
وناصرُهم من جُمْلة الناسِ خاذل

وفى القصيدة ما يدل على أن الأُسرة: أسرة مسعود لم تكن تسبغ عليه مودتها وعطاءها، إذ يشير إلى أن المكان إذا نبا به اغترب وأن من عادته الاغتراب والهجرة عن الوطن، إذا وقع به أذى أو أحسّ ضيما، يقول:

ولى عن مكان الذل مَنْأًى ومَزْحَلٌ
وذا الناسُ فى الدنيا غريبٌ وآهِلُ

ونراه فى العراق سنة ٦١٧ وعادة ينزل أول ما ينزل فيها بباتكين أمير البصرة ويولّى وجهه نحو بغداد فيمتدح خليفتها الناصر، غير أنه فى هذه المرة يوغل فى رحلته شمالا، فينزل فى الموصل وسِنْجار وديار بكر، ويمتدح مرارًا بدر الدين لؤلؤًا مدبِّر الموصل والقائم على شئونها منذ سنة ٦٠٧ لملكها القاهر بن نور الدين أرسلا نشاه. ويمد رحلاته إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل الأيوبى صاحب حَرَّان وديار الجزيرة. ويعود إلى دياره وموطنه فيجد أميرها الفضل قد أفسد أداة الحكم فيها إفسادًا لا يمكن إصلاحه، إذ قرَّب منه جماعة من غير أهل بيته اتخذهم حاشية له، فاتفقوا مع رؤساء قبيلة بنى عُقَيل أن يعصفوا بالبلاد عصفاً، حتى إذا استشارهم الفضل أشاروا عليه أن يحكِّمهم فى أملاك أقربائه يأخذون منها ماشاءوا. وحاصروا الأحساء وأفسدوا ثمارها وزروعها، ونزل الفضل على مشورة حاشيته، فملك البدو من بنى عقيل البساتين ظلما، وصار الرجل من أهل الأحساء يضطر إلى بيع البستان الذى تبلغ قيمته مائتى دينار بدينار واحد أو دينارين أو بثوب أو بجَزور وما أشبه

ذلك. ويأسى ابن المقرب لما أصاب الأسرة والدولة ويرى فيه نذيرًا بانتهاء أيامها، ويصور أساه وحزنه فى نونية، يقول فيها وقد أمضّه الأسى وأوجعه الحزن الشديد:

يا ليت شعرىَ أىُّ الذَّنبِ كان لنا
حتى به اجْتِيحَ دانينا وقاصينـا
أَضْحَتْ بَساتينُنا نَفْدِى بأَحْسَنِها
شِقْصاً لأدنى خسيسٍ من مواليـنـا
بجُلَّةِ التَّمْرِ والشاة الرَّعوم غَدَتْ
أملاكُنا واحتمتْ أملاكُ عَادِينـا
إنّـا إلى اللهِ لا أرحامُنا نَفَعتْ
ولا طِعـانُ حُمـاةِ القوم يَحْمِينـا

والشقص: الشيء اليسير. وجلة التمر: وعاؤه. والشاه الرعوم: الهزيلة. وهو يبكى اجتياح أموال عشيرته من العيونيين، ويقول إن البستان يباع – خوفاً وقهرًا – بوعاء من التمر أو بشاة هزيلة. ويسترجع محزونا لدولته وأسرته، ويرى نهايتها قد دنت. وفعلا لا يمضى نحو عشر سنوات، حتى تغرب شمس تلك الدولة إلى غير مآب، وتخلفها دولة من العقيليين، هى دولة بنى عصفور.

وواضح أن ابن المقرب دوّن لنا فى شعره وديوانه تاريخ أسرته على مر السنين حين حكمت القطيف والأحساء والبحرين الحالية، ولم يترك حادثة مهمة دون تدوين. وفى هذا ما يدل بوضوح على قيمة هذا اللون من شعر المديح والفخر، ففى تضاعيفه قدم لنا ابن المقرب وثائق تاريخية دقيقة عن دولة العيونيين لم تقدمها لنا كتب التاريخ، ولولا ديوانه لضاع تاريخ هذه الدولة فيما ضاع من تاريخ دولنا وإماراتنا الصغرى فى العصور السابقة.

ولا نفيد من ديوان ابن المقرب وثائق تاريخية عن الدولة العيونية فحسب، فقد تعرض للقرامطة وعقيدتهم الفاسدة، على نحو ما مرَّ بنا، ومما ذكره عنهم أنهم كانوا ابتدعوا فى البحرين بدعة سموها الماشوش، إذ كان يجتمع الرجال والنساء فى الليلة العاشرة من شهر المحرم ويشعلون الشموع ويرقصون ويختلطون، حتى إذا تعبوا من الرقص أطفأوا الشموع، وظلوا فى اختلاطهم. فحين تولى إمارة القطيف والأحساء والبحرين عبد الله بن على رأس الأسرة أبطل هذه العادة، وشدد فيها

التكبير وإلى ذلك يشير ابن المقرب إذ يقول :

منا الذى أَبطل الماشُوش فانقطعتْ
آثارُهُ وانْمَحى فى الناس وانْطَسَما

انطسم هنا : انطمس. ومما يسجله الديوان من وثائق تاريخية ارتفاع المكوس على انتقال البضائع من بلد إلى بلد كما مر بنا فى شكوى الشاعر من ابن الدبيثى ضامن المكوس فى واسط وأنه طالبه بنصف ثمنها مكسا أو ضريبة جمركية ، وله يقول :

نِصْفُ البِضاعة حين تَظْفَرُها
مَكْسٌ ، لقد بالغتَ فى النُّكْرِ

ومدائحه فى باتكين بن عبد الله الرومى والى البصرة وثائق مهمة فى بيان أعمال الولاة لعصر الخليفة الناصر ، وربما كانت تلك أعمالهم دائماً ، فهو لا يقف عند مديحه بالكرم والشجاعة والتقوى والعدالة التى لا تستقيم حياة الرعية بدونها ، بل يتعرَّض لأعماله ، ويصفها وصفاً تفصيلياً فى ثلاث قصائد : داليتين ولامية ، من ذلك قوله :

بَنَى بالبصرة الفَيْحاءِ سُورًا
يضاهى السدَّ سَبْكاً وانعقادَا

وزيَّنها بأَسواقٍ أَرانَا
بها كلَّ البلاد لها سَوادا

وكم من مَشْهَدٍ ورباط زُهْدٍ
ومدرسةٍ بَنَى وهُدًى أَفادا

وجامعُها المعظَّم إذ تَداعى
وقال القائلون عَفَا وبادا

أَقام له إلى الأَهواز عِيرًا
صِلادًا تحمل الصُّمَّ الصِّلادا

فهو قد بنى حول البصرة سورًا يحميها من غارات الأَعداء. ويقول الشاعر فى قصيدة أُخرى إنه بنى حوله خندقاً ليحول بين البلد وما قد يدخلها من الأُسود ليلا . ويذكر أنه عُنى بأَن يقيم بها أَسواقاً كبيرة للتجار وأن تعمر بالبضائع ،ويقول الشاعر فى قصيدة أُخرى إن سوقها الكبيرة تفوق سوق الثلاثاء ببغداد يريد سوق البزازين فيها . ويذكر أنه عُنى بمشاهد وأَربطة الزهاد أَو المتصوفة . والرباط كما هو معروف مركز إعداد الجيش لحرب الأَعداء ، ومن قديم تسمَّى زوايا المتصوفة أَربطة ، لأَنهم كانوا يستعدون فيها ومن ينضم إليهم للجهاد فى سبيل الله ، وكان العصر عصر الحروب الصليبية وكان صلاح الدين يبنى هذه

الأربطة فى القاهرة وفى جميع بلاد دولته ، ليتجمع فيها المتصوفة والمجاهدون فى سبيل الله . ويبدو أن الخليفة الناصر كان يصنع صنيعه فى بلاد العراق ، ولذلك عُنى واليه على البصرة باتكين بإعداد الأربطة فى مدينته ، ولم يعن بأربطة المتصوفة ومشاهدهم فحسب ، كما يقول ابن المقرب ، بل عُنى أيضاً ببناء المدارس ، ويقول الشاعر فى لاميته :

أحْيَى بها للشَّافعىِّ ومالك
وأبى حنيفةَ أحرفاً وفُصولا

فكان فقه المذاهب الثلاثة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى يُدْرَسُ فيها ، يدرسه العلماء المتخصصون . وليس ذلك فحسب ، فقد كان يدرس فيها الحديث وتفسير الذكر الحكيم كما يقول الشاعر فى داليته الثانية :

وحَشَا تلكمُ المدارسَ بالكُتْ
بِ الشِّرافِ الصحيحةِ الإسنادِ

وواضح أنه يشير إلى أنه كان فى المدارس مكتبات جليلة تضم الكتب والمخطوطات الصحيحة الوثيقة . ويذكر ابن المقرب أن باتكين بنى جامعها الكبير حين تداعى فى عصره . ويقول فى اللامية إنه اتفق أن امتد إليه حريق أتى عليه ، فأعاد عمارته ، وجلب إليه من الأهواز وغير الأهواز مواد البناء من الأخشاب والرخام . ويقول :

كم من رُواقٍ زاد فيه وحُصْرُهُ
زادتْ إلى تـرفيلـهِ تَـرْفيـلا

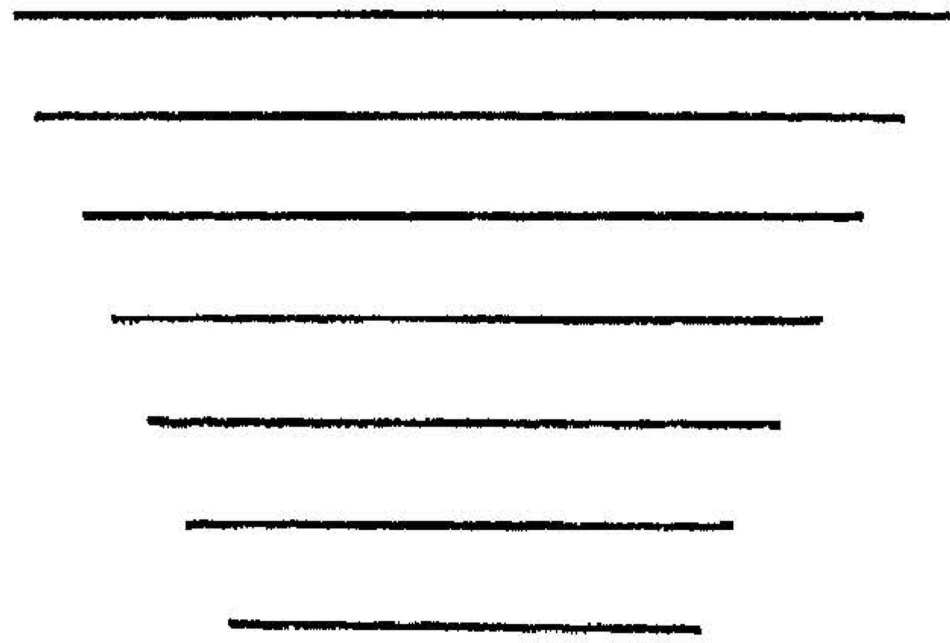
فقد زاد فى أروقته حين بناه ، وتأنق فيما جلب إليه من الحصر . ويذكر أنه بنى للوفود دار ضيافة ، وليس ذلك فحسب كل ما نهض به باتكين فى البصرة ، فقد شيد فيها مارستانا للمرضى وذوى العاهات ، يقول الشاعر فى الدالية الثانية . وهو يعدِّد أعماله :

أم لأن شيَّد المرَسْتانَ للزَّ
مْنَى وحفظِ العقول والأجسادِ

ويقول أيضاً فى نفس القصيدة إنه أمَّن السبل وفتك باللصوص ، وإنه يقيم الحدود كما تفرضها الشريعة الإسلامية ، وليس من شك فى أن هذه صورة مثالية لولاة الخليفة الناصر فى العصر وما كانوا ينهضون به فى ولاياتهم

لا من نشر الأمن والعدل فحسب ، بل أيضاً من إقامة حدود الشريعة وتطبيقها ، وتشييد المارستانات والجوامع والعناية بفرشها وحصرها ، وتشييد مدارس الفقه والحديث والتفسير ، والعناية بمكتباتها وتزويدها بالكتب النفيسة ، وتشييد الربط والمشاهد ، وعمارة الأسواق والعناية بأسوار البلدان . وكل هذه الأعمال التي ساقها ابن المقرب لباتكين والى البصرة لانجد لها أثراً ولا مايشبه الأثر فى كتب التاريخ ، ولذلك لانبالغ إذا قلنا إن ديوان ابن المقرب يعد سجلاً شعرياً تاريخياً فريداً ، وهو سجل لايخص فقط دولة العيونيين فى القطيف والأحساء والبحرين بل يتسع ليشمل دولة الخليفة الناصر وعماله على البلدان فى العراق . ولعل فى كل ماقدمنا مايدل بوضوح على أن شعر المديح عند أسلافنا فى صميمه شعر تاريخى يسند التاريخ حينا كما قلنا فى صدر هذا الحديث وحينا يضيف إليه وثائق وحقائق جديدة ، بل قد يضيف تاريخ دولة بأكمله ، لم يدوّن منه المؤرخون إلا شذوراً قليلة .

شوقى ضيف
عضو المجمع



شعراؤنا القدامى والجن

للدكتور أحمد الحوفى

عضو المجمع

عاش العرب في صحراء رحيبة جديبة مليئة بالتلال والنجاد وبالقيعان والأغوار والوهاد، يقل سكانها، ويقل الجائلون فيها، ويسدل الليل ستاره فيغمر الظلام والسكون والوحشة كل شيء، فتتسلط الأوهام، وتتجسم المخاوف والأحلام، فيدعى كثير من العرب أنهم رأوا الجن، وخالطوها، وصادقوها وخاصموها، ونسلوا منها.

وكل حديثهم في هذا خرافة.

ولقد علل الجاحظ لذيوع الشعر المتصل بالجن تعليلا حسناً بقوله: «ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومدَّ لهم فيه، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم، وإلا غبياً لم يأخذ نفسه قط بتمييز مايوجب التكذيب والتصديق والشك . . . . . وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر، فالراوية عندهم كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثه أكثر، فلذلك صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها[1]».

لكن تعليل الجاحظ صالح لبيان السبب في انتشار هذه الأكاذيب ورواجها، أما السبب في نشأتها فهو ما أسلفته.

١ – تصورهم للجن

خصوا بعض أصناف الجن بالتحدث عنها كالغيلان والسعالى، وأطلقوا كلمة الغول على كل شيء من الجن عرض للمسافرين، ويتلونون في أشكال الصور والثياب، سواء أكان ذكرًا أم أنثى، والأكثر أنه أنثى.

(١) الحيوان للجاحظ ٦/٧٩

وأطلقوا كلمة السعلاة على واحدة من نساء الجن تتغول لتفتن المسافرين ، وقالوا إن هذا منها على سبيل العبث ، أو لعلها تفزع إنساناً فيتغير عقله[1] .

وزعموا أن خلق الغول كالإنسان ، ولكن رجليها رجلا حمار .

وادعوا أنها تتغول لهم فى الخلوات ، وتظهر لخواصهم فى صور شتى ، فيخاطبونها وربما ضيفوها ، وكانت تتراءى لهم فيتبعونها فتتبعهم ؛ ولهذا كانوا إذا ما رأوها صاحوا بها :

يا رجل عنز نهقى نهيقاً
لن تنزلى السبيل والطريقا

لأنهم زعموا أحياناً أن رجليها رجلا عنز .

وتكلموا كثيراً على الأنثى من الغيلان قال أبو المطراب :

وحالفنى الوحوش على الوفاء
وتحت عهودهن وبالبعاد
وسولا قفرة ذكر وأنثى
كأن عليهما قطع البجاد[2]

وزعم تأبط شراً أو زعموا له أنه رأى الغول وضربها ضربة قضت عليها ، وجاء فى تصويره لها أنها صغيرة الرأس ، مشقوقة اللسان ، يشبه لسانها لسان الكلب ، مشوهة الساق ، تلبس ثوباً من جلود بالية :

إذا عينان فى رأس دقيق
كرأس الهر مشقوق اللسان
وساق مخدج ولسان كلب
وثوب من عباء أو شنان[3]

ونسبوا مثل هذا التصوير إلى شاعر آخر هو أبو الغول الطهوى[4] .

والعجيب أنهم تأثروا بهذا التصوير ، فاستمد بعضهم منه صوراً شتى ، فمثلا شبه الخطفى جد جرير – النوق السائرة بالليل ترفع أعناقها تهز رءوسها بالجن التى تمد

---

(١) الحيوان ٦/٤٨

(٢) مروج الذهب ١/٢٥٢

(٣) صبح الأعشى ١/٤٠٥ والأغانى ٢/٧٣٩ و بلوغ الأرب ٢/٣٧٩ و معجم البلدان ٤/٢٣١

(٤) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٦٣

أعناقها، وقالوا إنه سمي الخَطَفَى لقوله هذا :

يرفعن بالليـل إذا مـا أسدفـا
أعنـاق جنّـانٍ وهـامًا رُجَّفـا
وعَنَقًا بـاقَى الـرَّسيم خَيْطَفَـا[1]

وشبه بعض الشعراء خيلهم السريعة الضامرة بالسَّعالى كقول عمرو بن الأيهم التغلبي :

وقراهن شُزَّبـا كالسَّعـالى
يتطلعن من ثغـور نِقـابِ

٢ – تشكلها

رووا كثيرا من الأقاصيص عن تشكل الجن لهم بصور شتى ، منها أن عبيد ابن الأبرص سافر فى ركب من بنى أسد ، فبيناهم يسيرون إذا هم بشعبان ضخم ينقلب على الرمضاء فاغرا فاه من العطش ، وكانت مع عبيد فضلة من ماء ، فنزل فسقى الثعبان حتى روى واستنعش ، فانساب فى الرمل وتوارى .

فلما كان الليل ونام القوم نَدَّتْ رواحلهم ، فقام كل واحد يطلب راحلته ، فتفرقوا ،وبينا عبيد وحده وقد أيقن بالهلكة إذا هو بهاتف يهتف به :

يا أيهـا السارى المضَلُّ مَذْهبُهْ
دونك هذا البَكْرَ منا فاركبُهْ
وبكرك الشارد أيضاً فاجنُبُهْ
حتى إذا الليل تجنَّى غيهبُهْ
فحط عنـه رحلـه وسيِّبُهْ

فقال له عبيد : يا هذا المتكلم نشدتك الله إلا أخبرتنى من أنت ؟ فقال :

أنا الشجاع الذى ألفيته رَمِضـاً
فى قفـرة بين أحجـار وأعقـاد
فجـدت بالمـاء لمـا ضَنَّ حامله
وزدت فيه ولم تبخل بإيجاد
الخير يبْقَى وإن طال الزمان به
والشر أخبث ما أوعيتَ من زاد

فركب عبيد البكر ، وجنب بكره ، فبلغ أهله مع الصبح ، فنزل عن مركبه وحل رحله وخلاه ، فغاب عن عينه ، ثم جاء إخوانه الذين سلموا بعد ثلاث ليال[2]

---

(١) البيان والتبين ٢٨٣/١ والحيوان ٥٣/٦ العنق : السير الشديدة . الرسيم : أشد منه . خيطف سريع .

(٢) الأغانى ٨٩/١٩ أعقاد : جمع عقد وهو كثيب الرمل .

ولا شك أن هذا الخبر وأمثاله بيِّنُ الافتعال والوضع ، والغرض منه الترغيب فى عمل الخير ، وقد نقله أبوالفرج من كتاب لابن الكلبى عن أبيه ، وعلق عليه بقوله : وهو خبر مصنوع يتبين التوليد فيه .

كذلك زعموا أن الجن تتشكل أحياناً فى صور حيات ، كما ترى فى القصة التى ذكرها الدميرى ، إذ روى أن فتى قتل حية ، ثم اضطربت عليه فقتلته لأنها جنية[1] .

وإذا كان من الطبيعى ألا يصدق أحد هذه المزاعم كما نفى أبوالفرج الأصفهانى قصة عبيد والثعبان فإن ابن هشام علق على قول كعب بن زهير الذى شبه فيه تقلب المرأة بتلون الغول[2] .

فما تدوم على حال تكون بها
كما تَلوَّنُ فى أثوابها الغـولُ

فقال : إن للعرب أمورا تزعمها لاحقيقة لها ، منها أن الغول تتراءى لهم فى الفلوات ، وتتلون ، وتضلهم عن الطريق ؛ وإلى ذلك ذهب أبوعبيدة ، فقد سأله رجل عن قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » كيف ذلك ؟ وإنما يقع الوعد والوعيد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، فأجابه بقوله : إن الله تعالى كلم العرب على قدر عقولهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفىُّ مضاجعى
ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكن لما كانت تهولهم أوعدوا بها[3]

فالغول أو الجنى المتشكل وهمٌ أو تخيل ، ولذلك سموا الغول الخيتعور ، وهو كل شىء لايدوم على حال واحد ، ويضمحل ، كالسراب والهباء ، قال الشاعر :

كل أنثى وإن بـدا لك منهـا
آية الحب حبهـا خَيْتَعُـورُ

أما المسعودى فقد علل لهذا الوهم تعليلا حسناً مقبولًا فى قوله : « وقد تنازع الناس فى الهواتف والجان .. وإن ماتذكره

---

(١) حياة الحيوان للدميرى ١ / ٣١٩
(٢) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٣٠٨
(٣) شرح بانت سعاد لابن هشام

المعرب وتنبىء به من ذلك إنما يعرض لها من التوحد في القفار، والتفرد في الأودية، والسلوك في المهامه الموحشة، لأن الإنسان إذا سار في هذه الأماكن رُوِّع ووجل وجبن، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة، والأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة، فصورت له الأصوات، ومثلت له الأشخاص، وأوهمته المحال، كما يعرض لذوى الوساوس . . . . . لأن المتفرد المتوحد يستشعر المخاوف، ويتوهم المتالف، ويتوقع الحتف، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به، واعتراض الجان له (1).

٣ ـ مساكنها واستعاذتهم بها

اعتقد بعضهم أنها تخالطهم في كل مكان، فاستعاذوا بها واحتموا، وقد أخبر القرآن الكريم بذلك فقال تعالى: «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن، فزادوهم رَهَقاً».

وقد أفاض الشعراء في هذا، قال شاعر:

هيا صاحب الشَّجْراء هل أنت مانعى
فإنى ضيف نازل بفنائكا

وإنك للجنان فى الأرض سيدى
ومثلك آوى فى الظلام الصعالكا

وزعموا أن أحدهم إذا مرض وطالت علته أن الجن مسته عقوبة له على قتله حية أو يربوعاً أو قنفذا أو أرنباً أو غزالًا، لأنها من مراكب الجن وأحبابها (2)، فقدموا الدية للجن جوالقات ملاء بالحنطة والشعير والتمر على جمال من طين، ووضعوها بجانب جحر إلى جهة الغرب وقت الغروب، فإذا أصبحوا ووجدوا الجمال على حالها قالوا إن الدية لم تقبل، فزادوا عليها، وإن رأوها تساقط وتبدد ما عليها من حب قالوا إنها قبلت، واستبشروا بشفاء المريض، وفرحوا وضربوا بالدف، قال بعضهم:

قالوا وقد طال عنائى والسَّقَمْ
احمل إلى الجن جمالات وَضَمْ

قد فعلتُ والسقام لم يَرِم
فبالذى يملك برئى أعتصم

---

(1) مروج الذهب للمسعودى ١ / ٢٥٤
(2) بلوغ الأرب ٢ / ٢٩٩

أما مساكنها فهى الفلوات ، وقد أكثروا من زعهم أنهم سمعوا عزيفها هنالك ، ولعل الذى خيل إليهم هذا رجع الأصوات وصدى الرياح المتناوحة ، والرعود القاصفة ، والوحوش المصوتة فى بيداء كلها وهاد ونجاد.

وبقى هذا التخيل إلى مابعد العصر الجاهلى ، فجران العود النميرى يقول فى قصيدة غزلية قصصية :

حملن جران . العودحتى وضعنه
بعلياء فى أرجائها الجن تعزف[1]

قال الأصمعى : « إنما العزف من الريح على الرمل ، فتسمع لها صوتاً ، والجن . لاتعزف ، ولكن الأعراب قالوه بجهلهم[2] »

٤ ــ صحبة وزواج

راجت أقاصيص زواج الإنس بالجن ، وربما كان رواج هذا الزواج عائداً إلى رواج السحر والخفاء ، ورواج ما كان يتحدث به السمار والرواة من غرائب تشوق السامعين .

وقد أفرد ابن النديم فى كتابه الفهرست ثبتا بأسماء عشاق الإنس للجن ، وعشاق الجن للإنس ، وعلق عليها بقوله : وكانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها ، مشتهاة فى أيام خلفاء بنى العباس ، لاسيا فى أيام الخليفة المقتدر ، فصنف الوراقون وكذبوا وكان ممن يفتعل ذلك رجل يعرف بابن دلان وآخر يعرف بابن القطار[3] .

أكثروا من ذكر صحبتهم للجن ومعاشرتهم ومخالطتهم لها ، افتخاراً بشجاعتهم وقدرتهم على مايعجز الناس عنه ، قال عبيد ابن أيوب العنبرى إنه رأى نار الغول التى كانت توقدها للغريب المتقفر ليأنس بها ويهتدى إليها :

فللّهِ درُّ الغول أى رفيقة
لصاحب قفر فى المهامه يُذْعَرُ
أَرَنَّتْ بلحن بعد لحن وأوقَدتْ
حوالىَّ نيراناً تلوح وتُزْهر[4]

---

(١) و (٢) ديوان جران العود النميرى ١٢/١٩

(٣) الفهرست ٤٢٨

(٤) الحيوان ٤٢/٥ و ٥٠/٦ وفى مروج الذهب ٢٥٣/١ أن القائل أبو المطراب .

وزعموا أن ابن الحارث الضّبي أوقد ناره بالصحراء، فطرقته الجن، فدعاهم إلى الطعام فأبوا :

أتوا ناري فقلت منون قالوا
سراة الجن، قلت عموا ظلاما

فقلت إلى الطعام فقال منهم
زعيم نحسد الإنس الطعاما

وأحسن ما قيل فى معنى الحسد أنهم لايأكلون ما يأكل الناس وإن كانوا يشتهونه[1].

ووزعموا أن عمرو بن يربوع تزوج الغول، وأولدها بنين، ولهذا سموا بنى السّعلاة[2].

وزعموا أن عبيد بن أيوب العنبرى حدث عن نفسه أنه تزوج الغول، وقال :

علام ترى ليلى تعذّب بالمنى
أخا قفرات كان بالذئب يأنس

وصار خليل الغول بعد عرارة
صفيّا وربته القفار البسابس[3]

والأمثلة على هذا كثيرة.

٥ ــ قتلهم الغول

ادعوا أن الغول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت، فإن أعاد الضارب ضربة أخرى قبل أن تموت فإنها لاتموت. قال تأبط شرا إنه لقى الغول فراودها عن نفسها فأبت فقتلها

فطالبتها بُضْعها فالتوت
فكان من الرأى أن تقتلا[4]

وقال شاعر :

فثنّيت والمقدار يحرس أهله
فليت يمينى قبل ذلك شُلّت

وينسبون أبياتاً فى هذا إلى أبى البلاد الطهوى وتأبط شرا[5].

٦ ــ الجن فى الأدب اليونانى

لم يشذ العرب بتخيلهم الجن وتصورهم أشكالها وادعاهم مخالطتها، فإن الأدب اليونانى حافل بهذا التخيل والأساطير الإغريقية ملأى بأخبار وأحداث عن

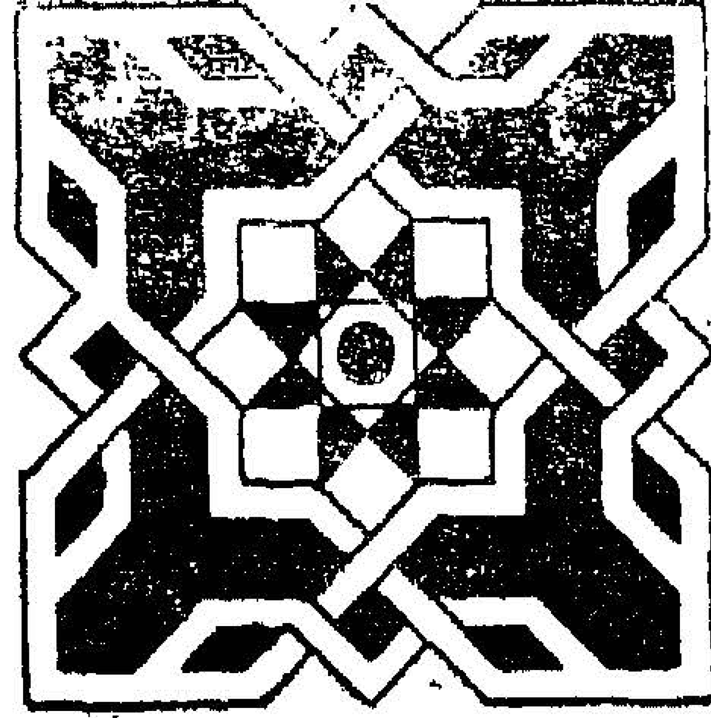
(١) الحيوان للجاحظ ٤/١٥٣ و٦/٦٠
(٢) شرح أدب الكاتب لابن السيد
(٣) الحيوان ٦/٥١ العرارة : النساء يلدن الذكور. البسابس : القفار الخالية
(٤) الأغانى ١٨/ ٢٠٩
(٥) الحيوان ٦/٧٢ والأغانى ١٨/٢٠٩ ومعجم البلدان ٤/٢٣١ والمؤتلف والمختلف ١٦٣

الآلهة وأنصاف الآلهةوعرائس البحار وبنات الماء .

وفى زعمهم أن من مميزات سكان الأولمب المقدرة على التشكل بهيئة إنسان أوحيوان أو نبات أو جماد ،فليس عجيباً أن مَثَّل هومير بعض أساطير الإغريق فى صور شعرية شائقة ، وليس عجيباً أن عمرت أساطيرهم بأقاصيص الغرام بين الآلهة والبشر فى ثنايا الإلياذة والأوديسة ، وفى شعر هسيود وروايات سوفو كليس ، ويوريبيدس

وما قصة غرام آفروديت بأودونيس إلا صورة من قصة الجنية العاشقة فى تصوير شعرى رائع .

احمد الحوفى
عضو المجمع



الملاحم
بين اللغة والأدب والتاريخ
للأستاذ محمد شوقي أمين

١ ــ شاعت كلمة « الملاحم » في العصر الحديث ، اسماً لتلك القصائد المطولة التي تصور أحداثاً من التاريخ ، تتجلى فيها بطولة الحرب والقتال ، عليها مسحة من الخيال تثقل أو تخف ، وبين تضاعيفها تساق الأساطير بقدر يسير أو قدر كبير .

وقد تناول كثير من الباحثين والنقاد موضوع « الملاحم » في الأدب العربي ، والجمهرة من هؤلاء انتهوا إلى أن هذا الأدب قد خلا من « الملحمة » ، وثمة فريق يجادلون في ذلك الرأي . على أن الذين اتفقوا على خلو الأدب العربي من الشعر الملحمي ، اختلفوا في بيان العلل والأسباب ألواناً من الخلاف .

ومدار البحث هذه الأسئلة الثلاثة :

(أ) علام تدل كلمة « الملاحم » في أصولها اللغوية ، وفي استعمالها على مدى العصور ؟

(ب) من أين جاءت كلمة « الملاحم » التي أصبحت الآن اسماً لتلك القصائد المطولة القصصية المعروفة في آداب بعض الأمم ؟

(ح) أمحدثة هي في إطلاقها على ذلك النوع من الشعر القصصي الأسطوري ؟

* * *

٢ ــ أما في اللغة ، فالملاحم جمع ملحمة على وزن مدرسة ومحكمة ، والملحمة : الوقعة العظيمة من وقائع الحروب ، إذ يتلاحم فيها الجيشان المقتتلان .

يقول « بشار بن برد » :

في كل يوم لنا عيد وملحمة
حتى سئمنا بأسياف وأغماد

وكانت تستعمل « الملحمة » في معنى الفتنة التي تفضي إلى الحرب ، ومن ذلك ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمران بيت المقدس : خراب يثرب ، وخراب يثرب : خروج الملحمة ، وخروج الملحمة : فتح القسطنطينية » .

وقد وُصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه « نبي الملحمة » وقيل في تفسير هذا الوصف : إنه نبي القتال ، لمجاهدة الكفار والمشركين ، ولكن بعض المفسرين عدلوا بكلمة « الملحمة » في وصف الرسول إلى معنى

آخر ، وهو التأليف والإصلاح ، فقالوا : نبي الملحمة ، أى نبي الإصلاح . فالكلمة هنا مأخوذة من : لحم الأمر ، بمعنى أحكمه ، وألف بين أجزائه ، فإذا هو متماسك متين.

وكما استعملت كلمة « الملحمة » فى معنى الوقعة العظيمة ، استعملت فى معنى المجادلة والمناقضة . وفى الجزء الأول من كتاب « الإمتاع والمؤانسة » يقص « أبو حيان التوحيدى »على أحد الوزراء حديث المناقشة التى جرت بينه وبين « ابن عبيد » فى تفضيل الحساب على الإنشاء ، فيقول له الوزير : هذه ملحمة منكرة !

وفى « جمهرة أشعار العرب » للقرشى سبع قصائد تسمى : « الملحمات » وهذه بضم الميم ، مفردها ملحمة بضم الميم ، وهى غير الملحمة المفتوحة ميمها المجموعة على ملاحم وإن كانت تلك القصائد سميت « الملحمات » لأنها محكمة النظم ، ملحمة النسج ، كما سميت الملحمة المفتوحة الميم بمعنى الفتنة والقتال ، لما يكون فى ذلك من تلاحم الجيوش . فالاشتقاق فى كلتا الكلمتين من منبع واحد ، والمعنى فى كلتيهما قريب من قريب .

* * *

٣ ــ هذا معنى الملحمة فى اللغة ، وفى مناحى استعمالها اللغوى ، والأدبى ، فهل استعملت بفتح الميم اسماً لنوع من الشعر ؟

لقد أسفر التتبع والاستقصاء ــ جهد المستطاع ــ عن أن أقدم نص يدل على استعمال كلمة « الملاحم » لنوع من الشعر ، هو نص « الجاحظ » فى كتابه « البيان والتبيين » ، وهو يكشف لنا عن أول شعر ملحمى فيما نظن :

قال « الجاحظ » :

« فلما جن أبو يس كان يهذى بأنه سيصير ملكاً ، وقد ألهم ما يحدث فى الدنيا من الملاحم ، وكان أبو نواس والرقاشى يقولان شعراً على لسانه على مذاهب أشعار ابن أبى عقب الليثى »

وفى « الأغانى » روى « أبو الفرج عن غيره هذا القول :

« ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبى العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بنى عامر . . . »

وصاحب « كشف الظنون » يقول عن « ابن أبى العقب » أن هذا الرجل كان معلم الحسن والحسين ؛ وملحمته منظومة لامية أولها :

رأيت من الأمور عجيب حال
لأســباب يســطرها مقالى

ما هذه « الملاحم » التى يكتب « الجاحظ » أنها كانت على مذاهب « ابن أبى العقب » ؟

لقد عبر « أبو الفرج » فى الأغانى عن هذا الرجل بقوله : صاحب قصيدة الملاحم .

وإذن فالملاحم شعر . . . فما نوعه ؟

تفسير هذا النوع من الشعر يبين من التعليق على نص « الأغانى » فى تعريف كلمة الملاحم

بأنها أصبحت اسما لعلم خاص تعرف به أوقات الفتن والوقائع بدلائل النجوم . وقد جاء هذا التعريف فى كتاب « أبجد العلوم » لصديق حسن خان .

فالشاعر « ابن أبى العقب » كان ينظم شعراً يضمنه وصف الأحداث والوقائع ، متوقعاً أن تكون فى قريب من الزمن أو بعيد ، معولا فى ذلك على استدلالات فلكية .

وهذا يتوضح فى غير شك من القصيدة التى ساقها « الجاحظ » معزوّة إلى أبى نواس » يتكلف فيها هذا المذهب الشعرى ، على جهة السخرية ، لكى يدعيها « أبو يس » الموسوس لنفسه ، ويذيعها فى الناس ، حتى يقولوا عنه إنه يستشف ما يكون فى الغد المجهول .

ويبدو أن الفقهاء كانوا يستنكرون هذه الملاحم ، لأنها رجم بالغيب ، والله لا يظهر على غيبه أحداً . وينسب إلى الإمام « أحمد ابن حنبل » — كما فى تاريخ الطبرى — أنه قال :

« ثلاثة لا أصل لها : التفسير ، والملاحم ، والمغازى » .

أضف إلى ذلك أن « السيوطى » يقول فى « حسن المحاضرة » :

« يزيد بن حبيب — مفتى مصر — أول من أظهر العلم بها من حلال وحرام ، وكانوا قبل ذلك يتحدثون فى الفتن والملاحم » .

* * *

٤ — لم يفت « البستانى » فى مقدمة « الإلياذة » أن يدرس كلمة « الملاحم » ، بيد أنه علم شيئاً وغابت عنه أشياء ، وسبحان من تفرد بالكمال .

ودونك قول « البستانى » :

لم يتصل بنا أن العرب وضعوا اسماً لمنظومات الشعر القصصى ، من نظائر الإلياذة ، إلا أن يكون ذلك ما استحدثه أهل المغرب ، وسماه بعضهم : الملاحم ، وهو ما يتضمن من المنظوم أحوال أمة أو قوم ، وفصلت فيه وقائع الحروب والتاريخ» .

وقف « البستانى » ببحثه وتحديده عند « أهل المغرب » ، على حين أن هذا النوع من الشعر يرجع كما أسلفنا إلى عهد بعيد عهيد ، إلى عصر « الجاحظ » كما جاء فى كتابه « البيان والتبيين » ، بل إلى « ابن أبى عقب » الذى علم الحسن والحسين فى القرن الأول الهجرى ، كما جاء فى كشف الظنون » ، وإن كان صاحب الأغانى » ينفى وجود الرجل على الإطلاق .

وفى كتاب « ابن أبى أصيبعة » أن الرئيس « ابن سينا » تنسب إليه قصيدة فيما يحدث من الأمور والأحوال عند قران المشترى وزحل فى برج الجدى ببيت زحل ، وهو أنحس البروج . وجملة ما قيل فى هذه القصيدة

من أحوال التتر وقتلهم الخلق وخرابهم للقلاع . وقد رأيناه فى زماننا . وأول هذه القصيدة :

احذر بنىّ من القران العاشر
وانفر بنفسك قبل نقر الناقر

ويضيف « ابن أبى أصيبعة » أن أحد التجار أنشده قصيدة فى هذا المعنى أولها :

إذا شرق المريخ من أرض بابل
واقترن النحسان فالحذر الحذر

ولا بد أن تجرى أمور عجيبة
ولا بد أن تأتى بلادكم التتر

وكان هذا الشعر الذى ينسب إلى « ابن سينا » يدرج فى نوع الملاحم ، ويطلق عليه هذا الاسم ، كما نرى ذلك فى مقدمة « ابن خلدون » إذ عقد فيها فصلا عنوانه : «فصل فى ابتداء الدول والأمم ، وفيه الكلام على الملاحم ، والكشف عن مسمى الجفر » .

يقول « ابن خلدون » :

«ثم كتب الناس فى حدثان الدولة منظوماً ومنثوراً ، ورجزاً ، ما شاء الله أن يكتبوه ، وبأيدى الناس متفرقات منه ، وتسمى الملاحم ، وبعضها فى حدثان الدولة على العموم ، وبعضها فى دولة على الخصوص ، ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربى الحاتمى ، وسمعت أيضاً أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب . »

٥ ــ ولم تكن « الملاحم » مقصورة على القصيد ، فقد نثرت بعد أن كانت منظومة ، وهذا يستفاد من قول صاحب « كشف الظنون » عن ابن أبى عقب : أن « ملحمته منظومة » .

فما الملاحم المنثورة ؟

فى ذيل كتاب « تذكرة داود الأنطاكى » حديث عن الملحمة ، تناول فيه الأشراط والعلامات التى تنبئ لوقوع الأحداث ، وتدل عليها ، فالغالب أن كلمة « الملاحم » تطلق على كل حديث يتناول التكهن بالمستقبل ، ويبنى عليه تصوير الوقائع والأحداث التى تكون . وقد نقلنا من قبل كلمة الإمام « ابن حنبل » وكلمة « السيوطى » ، وفيهما استعملت كلمة « الملاحم » دون تعيين لمدلولها من شعر أو نثر . .

٦ ــ من مجموع هذه النصوص التى أجملنا اقتباسها ، والإشارة إليها ، بل من أمثالها فى شتى المراجع والأصول ، بإجمال أو تفصيل ، ولم نشأ أن نمضى فى نقلها ، إرادة الاختصار والاقتصار ــ تتجلى لنا الحقائق الآتية :

أولا ــ أن كلمة الملاحم أطلقت على نوع من الشعر ، يصف ما يجرى على الدول والأمم من أحداث وشجون ووقائع ، مما ينضاف إلى المستقبل ، من طريق الاستدلال عليه بأحكام النجوم ، كما فى نصوص « الجاحظ » ، وصاحب « الأغانى » و « ابن خلدون » .

ثانياً ــ أن هناك قصائد مطولة وغير مطولة ، على هذا النحو ، سميت « الملاحم » ، وأثبتت كتب الأدب والتاريخ وجودها ،

ونقلت طرفاً منها ، كقصائد من اختلف فى تسميته : أهو « ابن عقب » أو « ابن أبى عقب » ولم ينفرد هو بها . فقد نظم على هذا الغرار « ابن سينا » و « ابن العربى » .

ثالثاً – أن تاريخ إطلاق كلمة « الملاحم » على هذا النوع من الشعر ، يرتد إلى القرن الهجرى الأول ، وأنه مسجل فيما دونه المؤلفون فى القرن الهجرى الثانى . كما ألمحنا إلى ذلك فيما عرضناه من النصوص، فإن كان هذا الإطلاق فى القرن الأول على جهة الظن والاحتمال ، للشك فى حقيقته ، فهو فى القرن الثانى على جهة اليقين والثبوت ، لوروده فى كتاب « البيان والتبيين » .

رابعاً – أن الإطلاق العصرى لكلمة « الملاحم » على معنى القصائد المطولة التى تتناول التاريخ الأسطورى للأمم والدول ، كإلياذة هوميروس ، لا يختلف عن الإطلاق العربى القديم ، إلا فى شىء واحد : هو أن الملاحم العربية القديمة كانت تقص ما عسى أن يكون من أحداث الأمم والدول فى المستقبل المغيب . وأما الملاحم فى آداب الأمم الأخرى فتتناول قصص تاريخها الماضى وما يشيع فيه من أساطير .

بعض المراجع :

البيان والتبيين ج ٢ – ٣٦ – ٢٣١
الأغانى ج ٢ – ٩
ديوان بشار ج ٢ – ٣٠٣
تاريخ الطبرى ج ٢ – ٦٠٧
الإمتاع والمؤانسة ج ١ – ٩٧
الإتقان للسيوطى ج ٢ – ٢٢٠
حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ – ١٣١
عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ – ١٦
مقدمة الإلياذة – البستانى
ذيل تذكرة داود

محمد شوقى أمين
عضو المجمع

تحقيق لسان العرب

— ٨ —

للأستاذ عبد السلام هارون

فى الجزء الرابع عشر

٩٢٨ ـ (غضل) ٩ س ١٣ وبيروت ٤٩٧ قول الشاعر :

كأنَّ زمامَها أيمٌ شجاعٌ

تراد فى غصونٍ مُغْضَئِلَّة

والصواب «ترأَّدَ» كما فى المخطوطة ، وكما هو فى اللسان (رأد) والمقاييس (أيم) . ترأدت الحية : اهتزت فى انسيابها .

٩٢٩ ـ (غلل) ١٤ س ١٧ وبيروت ٥٠١ والمخطوطة أيضاً قول ذى الرمة يصف الثور والكناس :

يحفِّرهُ عن كلِّ ساقٍ دقيقةٍ

وعن كلّ عِرقٍ فى الثرى متغلغِلِ

وإنما يحفر الثورُ هنا لينبشَ عن سيقان النبت المدفونة فى الأرض ، لايؤْثر دقيقةً على جليلة ، وكذلك يبحث عن العروق التى تغلغلت فى باطن الأرض . والوجه فيه : « عن كل ساقٍ دفينةٍ » ، كما هو فى ديوان ذى الرمّة ٥٠٥ .

٩٣٠ ـ (غول) ٢٢ س ٤ : « والغَوْل بُعد المَغازة ، لأنَّه يغتال من يمرُّ به » . وفى المخطوطة : « بعد المفاره » ، وصوابهما « المفازة » بالفاء والزاى ، كما فى الصحاح . وعلى ذلك الصواب وردت فى طبعة بيروت ٥٠٨ .

٩٣١ ـ (غيل) ٢٥ س ٢٢ وبيروت ٥١٢ قول الشاعر :

* حجارةُ غيلٍ وارشات بطُحلُبِ *

وهو عجز بيت لامرئ القيس فى ديوانه ٤٧ . وصدره :

* ويخطو على صُمٍّ صِلاب كأنّها *

والصواب : « وارسات » بالسين المهملة ، كما فى الديوان واللسان (ورس) .

وجاء فى المخطوطة : « وارسات » بالسين المهملة ، ووُضع فوق السين سكون ، وهو علامة من العلامات القديمة لإهمال الحرف كما أشرت إلى ذلك فى كتابى « تحقيق النصوص » فظنّها القارئون نقطاً يعبر عن الشين ، وليس كذلك . والوارسات : المصفرّات . شبّه حوافر الفرس فى صلابتها وملاستها بحجارة ماءٍ قد علاها الطُّحلب فاصفرّت واملاسّت وصلبت .

٩٣٢ ـ (فتل) ٢٩ س ١١ وبيروت ٥١٥ والمخطوطة ، قول لبيد :

* حرَجٌ من مِرْفقيها كالفتَلْ *

وصوابها : « فى مِرْفقيها » كما فى الديوان ١٧٥ والمقاييس (بطن) . وصدره :

* قد تجاوزتُ وتحتى جَسرة *

وفى المقاييس : « قد تبطّنتُ » .

٩٣٣ ـ (فسكل) ٣٤ س ١٣ وبيروت ٥٢٠ : « ثم السكيت ، وهو الفِسْكل والفاشور » .

وفى المخطوطة : « الفاشور » بدون نقط للفاء ، وصوابها « القاشور » بالقاف كما فى الصحاح . وفى اللسان (قشر) : « والقاشور : الذى يأْتى فى الحلبة آخر الخيل ، وهو الفسكل » .

٩٣٤ ـ (فضل) ٤١ س ٨ وبيروت ٥٢٦ والمخطوطة أيضاً : وقال ابن عثمة :

لك المرباعُ منها والصفايا
وحكمك والنّشيطةُ والفُضول

وموضع الخطإ فى اسم الشاعر ، فالصواب أنّه « ابن عَنَمة » ، وهو أحد شعراء المفضليات والأصمعيات . واسمه عبد الله ابن عَنَمة بن حُرثان بن ثعلبة بن ذؤيب ابن السِّيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبّة . وهو شاعر إسلامىٌّ مخضرم ، شهد القادسيّة . والبيت الذى أنشده ابن منظور هو السادس من الأصمعية الثامنة التى يرثى بها بسطام بن قيس . انظر الأصمعيات ٣٧ . وقد سبقت الإشارة إليه فى التحقيق رقم ٤٠٢ .

٩٣٥ ـ (فلل) ٤٧ س ١٩ وبيروت ٥٣٢ والمخطوطة أيضاً : « واستفلّ الشىء : أخذ منه أدنى جزءٍ لعُسْره » . وليس للعُسر هنا وجه ، وإنما هى « كعُشْرِه » كما فى القاموس .

٩٣٦ - (قلل) ٤٨ س ١٣ وبيروت ٥٣٢ والمخطوطة كذلك ، قول ابن مقبل :

فمرّت على أضراب هِرٍّ عشيّةً
لها توأبانيّانِ لم يتفلفلا

و « أضراب » صوابها « أظراب » بالظاء المشالة ، كما فى الديوان ٢١٢ والمقاييس ١ : ٣٦٥ والصحاح (تأب) واللسان (تأب) . والأظراب : جمع ظَرِب ككتف وهو الجبل الصغير . و « هِرّ » بالكسر : اسم موضع . وقد سبق الكلام على البيت فى التحقيق ٥٩٩ .

٩٣٧ - (قبل) ٥٢ س ١٩ وبيروت ٣٥٦ والمخطوطة : « وقال الخليل : قبل وبعد رفعا بلا تنوين لأنهما غائيان » ، والوجه « غايتان » كما فى التهذيب ٩ : ١٦٢ وهو المعروف فى اصطلاح النحويين . وفى كتاب سيبويه ٢ : ٤٤ : « فأما ما كان غاية نحو قبل وبعد وحيث فإنهم يحركونه بالضمة .

وسميت الظروف المقطوعة عن الإضافة غايات لأن أصل استعمالها أن تستعمل مع ما أضيفت إليه ، فلما اقتطع عنهن ما أُضِفن إليه وسُكت عليهن صِرن حدودًا وغايات » .

٩٣٨ - (قبل) ٦٣ س ١١ وبيروت ٥٤٦ قول ابن مقبل :

يُرخى العِذارَ وإن طالت قبائلُه
عن حُزَّةٍ مثل سِنف المَرْخة الصَّفِرِ

والخطأ فى « حُزَّة » فإن صوابها « حَشْرة » كما فى الديوان ٩٧ والمعانى الكبير ١١٣ . والحشرة بالفتح صفة للأُذن ، وهى الرقيقة المنتصبة . ومنه قول النمر ابن تولب :

لها أذنٌ حَشْرةٌ مَشْرةٌ
كإعليطِ مَرخٍ إذا ماصَفِرْ

كما يقال أيضاً أذنٌ حَشْرٌ . قال ذو الرمة :

لها أذنٌ حَشْرٌ وذِفرى لطيفةٌ
وخدٌّ كمرآة الغريبةِ أسجحُ

وجاءت فى المخطوطة : « حَـرَة » بهذا الضبط وبدون أسنان .

٩٣٩ - (قتل) ٦٨ س ١٥ وبيروت ٥٥١ : « أبو عمرو : المجرَّب والمجرَّس والمقتَّل كله الذى جرَّب الأمور وعرفها » .

وفى المخطوطة : « المحرّب » بالحاء المهملة موضع « المجرب » ، وكلاهما محرف ، والصواب « المجرّذ » براءٍ مشددة مفتوحة بعدها ذال معجمة ، كما فى التهذيب ٩ : ٥٥ واللسان نفسه فى مادة (جرذ) وفيه : « أبو عمرو : هو المجرَّذ والمجرَّس » . وفيه أيضاً : « ابن الأعرابى : جرّذه الدهر ودلّكه وديّثه ونجّذه وحنّكه » . وفى اللسان ـ (جرس) : « ورجل مجرَّس ومجرِّس : مجرِّب للأمور » .

٩٤٠ ـ (قرمل) ٧٣ س ٩ وبيروت ٥٥٥ : « القرملة : شجرة ضعيفة لا ذُرى لها ولا سُتْرة » . وجاءت « ذرَى » فى المخطوطة مضبوطة بفتحة فوق الراء فقط وصواب ضبطها « ذَرَى » بفتح الذال لا ضمها . والذَّرى : ماكنَّك من الريح الباردة من حائط أو شجر . ويقال فلانٌ فى ذَرى فلان ، أى فى ظلِّه .

٩٤١ ـ (قسطل) ٧٥ س ٤ وبيروت ٥٥٧ قول الشاعر :

كأنّ عليها القسطلانىَّ مُخْمَلا
إذا ما التقت شُقَّاتُه بالمناكب

وفى المخطوطة : « شفاته » بالفاء والتاء والذى فى التهذيب ٩ : ٣٩١ : « إذا ما اتَّقت شَفَّانَه بالمناكب » . والشَّفَّان : الريح الباردة مع المطر .

٩٤٢ ـ (قول) ٩٢ س ١ وبيروت ٥٧٣ قول رؤبة :

فاليوم قد نَهنَهنِى تَنَهْنُهِى
وأوّل حلمٍ ليس بالمسفَّه

ومع ما يستتبعه ضبط « أوّل » من انكسار الوزن ، فيه خطأُ الرواية ، صوابها « وأَوْل » كما ضبطت بذلك فى المخطوطة ، وهو الثابت فى ديوان رؤبة ١٦٦ . والأَول هنا : الرجوع . يعنى أنَّ حلمه عاد إليه فى مكْبِرِه واحتناكه بالسِّنّ . فهذا هذا .

٩٤٣ ـ (قول) ٩٢ س ٥ وبيروت ٥٧٣ والمخطوطة : « وسمعت الكسائى يقول : فى قراءة عبد الله : ذلك عيسى بن مريم قالَ الحقِّ الذى فيه يمتَرون . فهذا من هذا . كأنه قال : قال قولَ الحقِّ » . وصواب رواية هذه القراءة : «قالُ الحقِّ» أى قولُ الحقّ ، كما فى التهذيب ٩ : ٣٠٤ وتفسير أبى حيان ٦ : ١٨٩ حيث قال : « وقرأ ابن مسعود والأعمش : قالُ بألف ، ورفع اللام » . وزاد ابن خالويه فى شواذ القراءات ٨٤ قراءة « قالُ الله » لابن

مسعود أيضاً ، وفيه : « قالُ الحقِّ ، وقالُ الله ، بضم اللام ، ابن مسعود » . وأقول : فلا عبرة إذن بما ورد في كتاب المصاحف للسجستانى ص ٦٤ من ضبط « قالَ » بالفتح ضبط قلم لا عبارة ، أو بالأحرى ضبط مطبعة تخطئ وتصيب .

وكلمة « قال » الثانية فى عبارة ابن منظور مقحمة تكرارًا. وصواب العبارة : « كأنه قال : قولُ الحق » .

٩٤٤ - (قول) ٩٣ س ١ وبيروت ٥٧٣ والمخطوطة ، قول الراجز :

وابتدأت غضبى وأمّ الرِّحال
وقُولَ لا أهلَ له ولا مالْ

والشاهد فيه « قُول » على لغة بنى أسد فى بنائه للمجهول بمعنى « قِيل » . وصواب « أمّ الرِّحال » « أمُّ الرَّحّال » ، كما فى تهذيب اللغة ٩ : ٣٠٥ . والرحّال علم من أعلامهم ، به سمى عدد من الصحابة والتابعين . ومن شعرائهم : الرحّال بن عَزْرة .

على أن الرواية فى تهذيب اللغة ، وكذا فى المنصف ١ : ٢٥٠ والمحتسب ١ : ٢٤٥ « وابتذلت غضبىَ » .

٩٤٥ - (قيل) ٩٨ س ٨ وبيروت ٥٧٩ والمخطوطة أيضاً قول الراجز :

يُسقين رَفهاً بالنهار والليلْ
من الصَّبوح والغبوق والقَيلْ

والرِّفه فى ورد الإبل إنما هو بكسر الراء. وفى اللسان : « الرفه بالكسر : أقصر الورد وأسرعُه ، وهو أن تشرب الإبل الماء كلّ يوم » .

٩٤٦ - (كفل) ١٠٧ س ٢٥ وبيروت ٥٨٨ : « وفى حديث أبى رافع : ذلك كِفْل الشيطان ، يعنى معقده » . والصواب « مقعده » بتقديم القاف ، كما فى المخطوطة .

٩٤٧ - (كلل) ١١٣ س ٦ وبيروت ٥٩٥ والمخطوطة : « ابن الجراح : إذا لم يكن ابن العم لحًا وكان رجلًا من العشيرة قالوا : هو ابن عمِّى الكلالة » إلى آخر النص . والصواب « أبو الجراح » ، كما فى التهذيب ٩ : ٤٤٨ . وفيه : « أبو عبيد عن أبى الجراح » . وأبو الجراح هذا أحد الأعراب الفصحاء الذين أخذت عنهم اللغة . ذكره ابن النديم فى الفهرست ٧٠ والقفطى فى إنباه الرواة ٤ : ١١٤ والمرزبانى فى معجم الشعراء ٥١١ . وقد سمّوه جميعاً أبا الجراح العقيلى .

٩٤٨ـ (كلل) ١١٥ س ٢١ وبيروت ٥٩٥ والمخطوطة كذلك فى تفسير قول النابغة الجعدى :

بكرت تلوم وأمس ما كلّلتها
ولقد ضللتُ بذاكَ أىَّ ضلالِ

« ما صلة كلّلتُها أدعصتها »ولا وجه له، والصواب : «ما : صلةٌ . كلّلتُها أى عصيتها ». كما فى التهذيب ٩ : ٤٤٩ . وقوله «ماصلة » أى زائدة .

٩٤٩ـ (كلل) ١١٥ س ٢٢ وبيروت ٥٩٥ وكذا المخطوطة ، قول الشاعر :

* وفرحه بحصَى المَعْزاء مكلولُ *

الصواب : « وفرجُه » بالجيم كما فى التهذيب ٩ : ٤٤٩ والمفضليات ١٤٠ . والبيت لعبدة بن الطبيب فى المفضليات . وهو فى صفة ثور . وصدره :

* له جَنابان من نَقْعٍ يثورُه *

والفَرْج : ما بين قوائم الدابة . يقال جرت الدابة ملء فروجها ، وهو ما بين القوائم . ومنه قول امرىء القيس :

لها ذنبٌ مثل ذيل العروس
تسدُّ به فَرجَها من دُبُرْ

٩٥٠ـ (كلل) ١١٥ س ٢٢ وبيروت ٥٩٥ : « والكُلَّة : الصَّوقعة ، وهى صوفة حمراء فى رأس الهودج . وصواب الضبط « الكِلَّة » بالكسر ، كما فى التهذيب والقاموس ، إذ صرَّح فى القاموس بضبطه بالكسر . ووردت هذه الكلمة فى المخطوطة مجردة من النقط والضبط ، ووجهها ما أشرتُ إليه . وأما الكُلَّة بالضم فهى تأنيث الكُلّ ، وهى كذلك بمعنى التأخير . والكَلَّة ، بالفتح : الشَّفرة الكالَّة .

٩٥١ـ (كلل) ١١٧ س ٨ وبيروت ٥٩٦ والمخطوطة والتهذيب ٩ : ٤٥١ : وأنشد قول العجاج :

* حتى يُحلُّون الرُّبا الكلاكلا *

ونسبة هذا الشطر إلى العجاج غير صحيحة . وليس للعجاج فى ديوانه أرجوزة على هذا الروىّ ، وإنما الأرجوزة لرؤبة فى ديوانه ، وهى طويلة جدًّا بلغت أشطارها ٢٩٧ شطرًا مائتين وسبعة وتسعين شطرًا . وشطرنا هذا هو الشطر ٣٩ فى ص١٢٢ والرواية فيه :

* حَوْما يُحِلُّون الرُّبى كلاكلا *

٥٩٢ ـ (كيل) ١٢٦ س ٨ وبيروت ٦٠٥ قالت امرأةٌ من طيِّئ :

فيَقْتل خيرًا بامرئٍ لم يكن له
نِـواءً ولكن لاتكايُلَ بالـدم

أما هذه المرأة فهى بنت بَهدل بن قِرفة الطائى ، كما فى الحماسة ١ : ٢١٢ بشرح التبريزى وحواشى المرزوقى ٢١١ .

و « خيرًا » لا وجه لها هنا ، وصوابها « جبرًا » كما فى المرزوقى والتبريزى . قال المرزوقى : « جبر هو القاتل لولىّ هذه المرأة » .

وأما « نِواءً » فهى خطأٌ فى اللفظ وفى الضبط ، وصوابها « بَواءً » بالباء المفتوحة فى أولها وبالنصب ، كما اتفق على ذلك ضبط المرزوقى والتبريزى . والمراد : لم يكن القتيل بواءً لجبر ، أو لم يكن جبر بواءً لهذا المرء القتيل ، أى يكون دمه وفاءً بدمه ويرتضى قتله بدلا منه . والبَواءُ : السَّواء . وفلانٌ بواءُ فلانٍ ، أى كفؤه إن قُتِل به . وهذا كان دينَ الجاهليّة . فلما جاء الإسلام سقطت المكايلة فى الدماء ، فلا يقتل بدل الواحد إلّا واحد، شريفاً كان أو وضيعاً . ورواية الرفع فى « بواء » إن صحّت كان معناها أنَّ هذا القتيل الشريف ، وهو بهدل بن قرفة ، لم يكن له نظير ولا له كفىءٌ فيُقتَلَ به .

٩٥٣ ـ (مسل) ١٤٦ س ٢ وبيروت ٦٢٣ والمخطوطة كذلك قول أبى حية النميرى :

إذا ما تَغَشّاه على الرَّحْل يَنْثَنى
مُسالَيْـه عنه من وراءٍ ومُقْـدِمِ

وهو إنما يصف راكباً أدام السُّرى حتى غلبه النومُ فطفق ينثنى فى عطفيه وناحيتيه من مؤخر الرحل ومقدمه . وصوابه « إذا ما نعشناه » ، أى رفعناه وحاولنا إيقاظه . سيبويه ١ : ٢٠٥ والصحاح واللسان (سيل) والأزمنة للمرزوقى ١ :٣٠٧ .

ومُساليه منصوب على الظرفية .

٩٥٤ ـ (ملل) ١٥٣ س ١٠ وبيروت ٦٣٠ والمخطوطة أيضاً قول شبيب بن البرصاء :

وهمٌّ تـأْخـذ النُّجـواء منـه
يُعَـدُّ بصـالبٍ أو بالمُلَال

والنُّجَواءُ : الرعدة ، ومثلها « النُّحَواءُ » بالحاء المهملة . والمُلال بالضم : التقلُّب

من المرض أو الغمّ . و « يُعَدّ » محرفة عن « يُعَلّ » باللام كما فى اللسان (نجا ، نحا) . ويُعَلّ من العَلل ، وهو الشرب الثانى . والصالب : الحمَّى الحارّة ، وهى الصُّداع أيضاً . وأنشد فى اللسان (صلب) :

* يـروعك حُمَّى من مُـلالٍ وصالبِ *

فالمراد أن الهمّ تزداد وطأته بالصالب والمُلال . وأشار فى اللسان (نجا ١٨٠) إلى رواية « يُعَكّ » بالكاف . ورواية المقاييس ٤ : ١١ : « تَعُكّ » ، وأتى به شاهدًا على قولهم : عكَّته الحمَّى ، أى كسرته .

٩٥٥ — (ميل) ١٦١ س ١٨ وبيروت ٦٣٨ قول الجوهرى : « الميلاء من الرَّمل : العُقْدة الضخمة ، والشجرة الكثيرة الفروع » ووردت « العقدة » فى المخطوطة مهملة الضبط . وضبطت فى مطبوعة الصحاح « العُقْدة » بالضم أيضاً . ولا يمال فى الرمل عُقْدة وعُقَد ، وإنما هى « العَقِدة » بفتح فكسر ، أو « العَقَدة » بالتحريك ، كما هو المجمَع عليه فى المعاجم المتداولة ، وفى مقدمتها الصحاح نفسه ، وفيه : « والعَقِد أيضاً بكسر القاف : ما تعقَّد من الرمل ، أى تراكم ، الواحدة عقِدة . و كان أبوعمرو يقول : العَقَد والعَقَدة بالفتح » أى فتح القاف . وفى اللسان : « والعَقِد : المتراكم من الرمل ، واحدته عَقِدة ، والجمع أعقاد . والعَقَد : لغة فى العَقِد » . وفى القاموس : « وككتف ، وجبل : ما تعقَّد من الرمل وتراكم ، واحدُهما بهاء » .

٩٥٦ — (نأل) ١٦٢ س ١٩ وبيروت ٦٣٩ ، قول ساعدة بن جؤيّة :

لهـا خُفَّـانِ قـد ثُلبا ورأس
كرأس العُودِ شهربَةٌ نَـؤُولُ

كما وردت كلمة « العُود » فى المخطوطة مضبوطة بضمة فوق العين وسكون فوق الواو . وصوابها « العَوْد » بفتح العين ، كما فى ديوان الهذليين ١ : ٢١٦ وشرح السكرى ١١٤٧ ، والبيت فى صفة ضبُع ، شبّه رأسها فى ضخامته برأس العَود ، وهو الجمل المسنّ ، وأين العُود من العَود؟! فلا وجه للعُود هنا . وروى « شهربَة » و « شهبرة » أيضاً ، وكلاهما بمعنى الكبيرة المسنَّة .

٩٥٧– (نخل) ١٧٦ س ٨ وببيروت ٦٥٣ قول الشاعر :

قَدَرٌ احلَّكَ ذا النُّخيلِ وقد أرى
وأبىَّ مـالكِ ذو النُّخيـل بـدارِ

وجاء فى المخطوطة : « وأَنىَّ » بالنون وتشديد الياء المفتوحة ، والصواب مافى طبعتى بولاق وببيروت . و « أَبىَّ » هى أَبُوى ، قلبت الواو ياءً وأُدغمت فيها عملا بقاعدة اجتماع الواو والياء وسبق إحداهما بالسكون . والبيت من شواهد الخزانة ٢ : ٢٧٢ بولاق ، وقد ورد فيها وفى شرح ابن يعيش ٣ : ٥٦ ومجالس ثعلب ٥٤٤ . وخطأٌ آخر هو فى الطبعتين فقط ، وهو ضبط « مالكِ » بكسر الكاف ، وإنما هى « مالَكَ » ، أى ليس لك ذو النخيل بمنزل تقيم فيه .

٩٥٨ – (نيل) ٢١٠ س ٨ وببيروت ٦٨٦ قول لبيد :

* ما جـاوز النيل يوماً أهل إبليلا *

وفى المخطوطة : « ما حاور » بالحاء والراء المهملتين ، ولا معنى للمجاوزة أو المحاورة هنا . وصوابهما « جاور » بالجيم والراء ، كما فى التهذيب ١٥ : ٣٧٣ والخزانة ٢ : ٧٩ وشرح القصائد السبع الطوال ٥٠٩ .

ونسبة البيت إلى لبيد ثابتة فى شرح القصائد وفى التهذيب أيضاً . لكنه نسب فى الخزانة إلى النعمان بن المنذر يجيب لبيدًا . وكذلك نسب إلى النعمان فى الأغانى ١٤ : ٩٢ والفاخر للمفضل بن سلمة ٧٣ . ولم يرد البيت ولا أخواته فى ديوان لبيد أو ملحقاته . فنسبته إلى لبيد مقولٌ فيها .

ونصُّ البيت فى الفاخر :

فقد رُميتَ بـداءٍ لست غاسلَه
ما جاور النيل يوماً أهله النيـلا

وفى الخزانة :

فقد رميت بشىءٍ لست غاسله
ما جاور السيل أهل الشام والنيلا

وفى شرح القصائد السبع لابن الأنبارى

فقد ذكرتَ به والركب حاملُه
ماجاور الغَيلُ أهلَ الشام والنِّيلا

وفى الأغانى :

فقد ذكرت بشىءٍ لست ناسيه
ماجاورت مصرُ أهلَ الشامِ والنِّيلا

٩٥٩ـ (هدل) ٢١٥ س ١٥ وبيروت ٦٩١ والمخطوطة قول ذى الرمّة :

إذا ناقتى عند المحصب شاقهـا
... رواحُ اليمانى والهديلُ المرجَّعُ

وصواب روايته كما فى ديوان ذى الرمة ٣٤٥ وأدب الكاتب ١٦٢ والاقتضاب ٣٥٣ : « أرى ناقتى » .

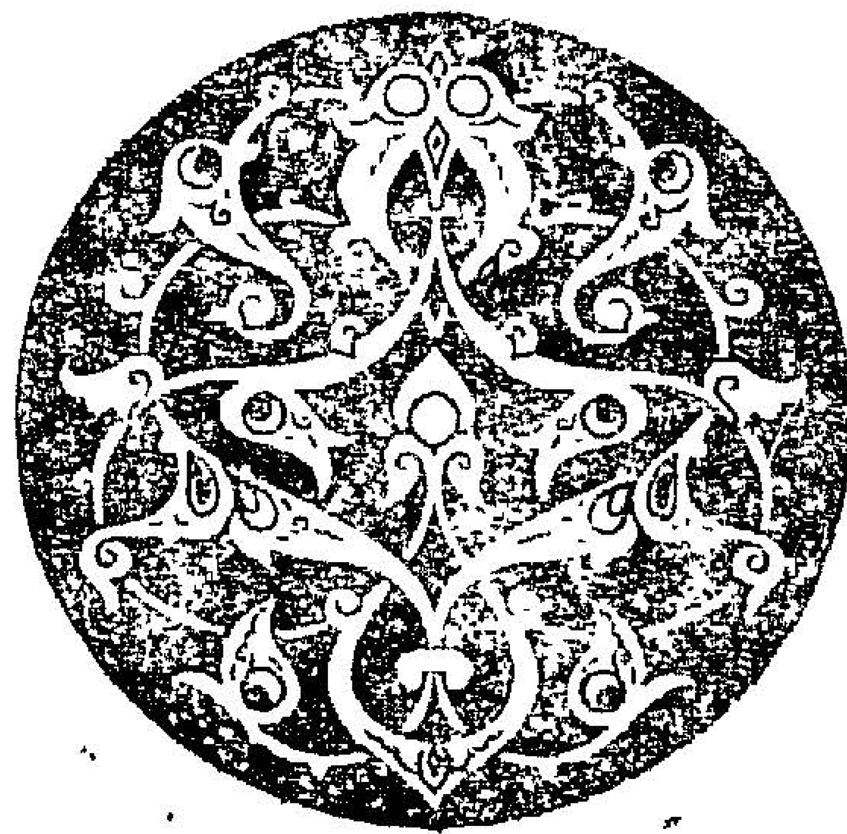
٩٦٠ـ (هضل) ٢٢٣ س ١ وبيروت ٦٨٩ والمخطوطة أيضاً والصحاح ، قول الكميت ، (وهو فى مدح خالد بن عبدالله القسرى) :

فى حومة الفيلق الجأواء إذ ركبت
قَيسٌ وهَيضَلُها الخشخاشُ إذْ نزلوا

وصواب الرواية : « إذْ نزلتْ قَسْرٌ » كما فى ديوان الكميت ٢ : ٢٢ والمعانى الكبير لابن قتيبة ٩٦٤ والتهذيب ٦ : ٥٤٧/ ٩ : ١٥٨ . وجاء فى اللسان (فلق) : « قسرًا » ، وهو تحريف ماذكرت . وقَسْرٌ هم قبيلة خالد بن عبد الله القسرى ، وهم قَسْر بن عَبقَر بن أنمار . جمهرة ابن حزم ٣٨٧ ، ٤٧٤ . وانظر ماسبق فى التحقيق رقم ٥٦٠ .

عبد السلام محمد هارون

عضو المجمع



طرف من الأدب واللغة

للدكتور أحمد عمار

(٢)

أشد الأعمال ثلاثة : إنصاف الناس من نفسك ، ومواساة الأخ من مالك ، وشكر الله تعالى على كل حال . (حديث شريف)

* * *

محمد : حُمِّدَ مرة بعد مرة ، كما نقول : مكرم ومعظم .

ومحمود : حُمِدَ مرة واحدة .

وقد سمت العرب محمداً نحو خمسة عشر رجلا .. وكذلك سمت أحمد بضع مرات .

* * *

قال هشام بن عبدالملك لسالم بن عبدالله — وكانا فى الكعبة — سلني حاجتك . فقال : أكره أن أسأل فى بيت الله غير الله .

لن ترجع الأنفس عن غيِّها
ما لم يكن منها لها زاجر

(أبو نواس)

قال أبو العتاهية : وددت أنه لى بنصف شعرى .

* * *

نقل رجل إلى عمر بن عبدالعزيز كلاماً ، فقال له عمر : إن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » . وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية :

« همّاز مشاء بنميم » .

فقال الرجل : أتوب إلى الله يا أمير المؤمنين .

* * *

الربانى الموصوف بعلم الرب .
والربى المنسوب إلى الرب .
الشعرانى الكثير الشعر .
والشعرى منسوب إلى الشعر .
اللحيانى الطويل اللحية .
واللحي نسبه إلى اللحية .
الرقبانى الغليظ الرقبة .
والرقبي نسبة إلى الرقبة .

* * *

صب الرشيد الماء على يدى أبى معاوية الضرير بعد أن أكل طعاماً عنده ، ثم قال له : أتدرى من يصب الماء على يدك ؟

قال : لا : قال : أنا . فقال : أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم إجلالا للعلم .

* * *

وجلس الرشيد مجلسه فقال : أى الناس أكرم خادماً ؟ قالوا : أمير المؤمنين . قال : بل الكسائى ، يخدمه الأمين والمأمون : (وكان الرشيد قد عهد إليه بتأديبهما — فقام الكسائى ليلبس نعليه ، فابتدراهما فوضعاهما بين يديه)

* * *

عائشة أم المؤمنين : ترثى أباها

نضر الله وجهك يا أبت . وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مذلا بإرادتك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها . ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك ، حسن العوض منك .

* * *

إن المرء ناظر باحدى عيون ثلاث : عين مودة تريه القبيح حسناً ، وعين شنآن تريه الحسن قبيحاً ، وعين عدل تريه حسنه حسناً وقبيحه قبيحاً .

(ابن المقفع)

* * *

الزلزال : بالكسر المصدر والزلزال بالفتح الاسم .

والوسواس : بالكسر المصدر والوسواس بالفتح الاسم .

(اللسان)

* * *

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

(المتنبى)

* * *

القصيدة الحرباوية : (لأبى عمرو عثمان ابن عيسى البلطى النحوى)

سميت كذلك لأنها تتلون كالحرباء : وحرف رويها يكون مضموماً ثم مفتوحاً ثم ساكناً .

(فمن الكامل : إذا حرك الروى فهو من الضرب السادس منه ، وإذا سكن فهو من الضرب السابع)

إنى امرؤ لا يطبيـ
ـنى الشادن الحسن القوام
فارقت شرة عيشتى
إذ فارقتنى والغرام
لا أستلذ : بقينة
تشدو لدىّ ولا غلام
ذو الحزن ليس يسره
طيب الأغانى والمدام
أمسى بدمع سافح
فى الخد منسكب سجام
ألقى صروف الدهر مصـ
ـطبراً وما حدى كسهام
مارستهن ومارستـ
ـنى فى تصرفها الجسام

وهى ثلاثة وثلاثون بيتاً ، أتى بما لم يسبق إليه ، وتحدى بها النحاة ؛

* * *

القرآن والشعر :

أ ـ آية كاملة : كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . (العلق ١٥)

قولوا لهـذا ينتهِ عن ذمه أصحابيه
كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصيه

ب ـ جزء من آية أو بتحوير بسيط

١ ـ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير . (فاطر ١٨)

ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه

٢ ـ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . (الإنسان ١٤)

ويقول أبونواس :

وفنية فى مجلس وجوههم
ريحانهم قد عدموا الثقيلا
دانية عليهمو ظلالها
وذللت قطوفها تذليلا

٣ ـ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات.. (سبأ ١٣)

وجفان كالجوابي وقدور راسيات

٤ ـ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . (التوبة ١٤)

ويخزهمو وينصركم عليهم
ويشف صدور قوم مؤمنينا

* * *

من أمثال العرب فى الجناح :

١ ـ ركب فلان جناحى نعامة : جدّ فى الأمر واحتفل .

٢ ـ فلان فى جناحى طائر : قلق وهش .

٣ ـ ركب فلان جناحى طائر : فارق وطنه .

٤ ـ نحن على جناح سفر : نريد السفر .

٥ ـ فلان فى جناح فلان : فى ذراه وكنفه .

(اللسان)

* * *

يقول المبرد :

عجيب أمر الإنسان ، إن سنح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ؛ وإن أفاد مالا أطغاه الغنى ؛ وإن نالته فاقة فضحه الجزع . فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد .

* * *

قال رجل للرشيد : إنى أريد أن أعظك وأغلظ لك القول . فقال له الرشيد : ليس ذلك لك ؛

لقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى ، فأمره أن يقول له قولا ليناً . يشير إلى قوله تعالى لموسى وهارون : «اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » .

* * *

يقول الإمام مالك :

من ترك قول : « لا أدرى » أصيبت مقاتله

* * *

قال ابن عباس :

أرجى آية فى كتاب الله تعالى : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .

أحمد عمار
نائب رئيس المجمع

تطويع التكنولوجيا لاسترداد جمال الكتابة العربية

للأستاذ المهندس صلاح عامر

سياسة تقليص عدد حروف الكتابة العربية :

لقد درج الكثيرون من أهل العربية على اتباع سياسة تقليص عدد الحروف العربية — فى سبيل تطويع الكتابة العربية لإمكانيات آلات الطباعة ، وخاصة الآلات الكاتبة السلكية واللاسلكية وفى الآلات الحاسبة ، وفى كل ما يستدعى الكتابة الآلية غير اليدوية ؟ وسارت سياسة التقليص فى خطتها مع أعلى المحافل الرسمية بل لقد تبناها مجمع اللغة العربية ، دهراً طويلا فأنشأ لجنة تيسير الكتابة العربية . ولقد انتهت دراسات هذه اللجنة بحمد الله عند حد من التقليص للحروف العربية لا يزال يرعى حرمة الكتابة العربية ونرجو ألا يتفاقم الأمر ويترامى إلى المدى الذى وصلت إليه سياسة التقليص فى جهات رسمية أخرى مثل ما هو جار فى إطار معهد لبحوث التعريب فى الرباط :

وساكتفى بثلاثة أمثلة تبين آثار خطة التقليص على جمال الكتابة العربية مبرزاً ذلك بين أنماط ثلاثة أولها الكتابة المتبعة فى طباعة الأحاديث النبوية ثم أردفها بمثالين لمحاولات التقليص بين مصر والرباط :

الحَدِيثُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ،
فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ،
وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » .

رَوَاهُ مُسْلِمٌ

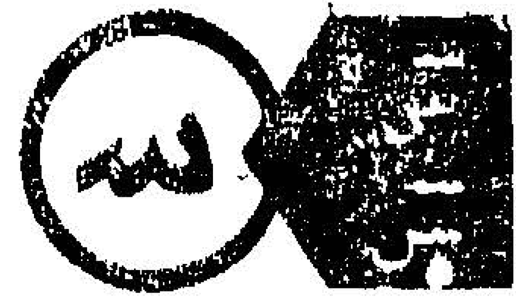
(١) طباعة المانية ترعى الى حد ما جمال الخط العربى .

* ورأت اللجنة أن تستفيد من حروف المطبعة الأميرية في فنها الخطي الذي يعتبر مثلا عاليا للكتابة العربية — فرأت أن تتخذ منها الحروف التي لم يدخل عليها تعديل ، وأن تجود الحروف المعدلة بحيث تساير في جودتها وحجمها ما لم يعدل ، وبحيث تبدو الحروف في جملتها على نسق واحد .

على أن هذه المزاوجة بين الحروف المستبقاة والحروف المعدلة ربما حالت دون التناسق المنشود على الوجه الأكمل . ولعل التنفيذ العملي للطريقة على نطاق واسع يقتضي كتابة الحروف كلها بقلم واحد ، وذلك ما رئي تأجيل البت فيه .

٢ ــ نموذج لما قررته اخيرا لجنة تيسير الكتابة العربية ، ولقد بدا استخدامه وهو كما قلت لايزال الحد الادنى من اصول الكتابة العربية .

ASV-CODAR/TT N2/77

ASV-CODAR 

Text typeset in naskhi 2 typeface

without vowels

نشد الرحال وقت الحج فيقضي الحجاج بجوار المسجد زمنا

يؤدون به الصلاة فإذا قدر لك أن تذهب إلى هذا المسجد

لراعك أن يجمع الألوف المؤلفة مجمع العبادة حيث يقفون

جميعا خاشعين أمام الله

أقبل العرب على فتح الشام واثقين من النصر

الماس نفيس

٣ ــ نموذج لمرحلة تقليص الحروف العربية في الرباط ، وتوجد ثلاث مراحل اخرى ادنى واوغل في التقليص

آلة الطباعــة أو الكتــابة وأثرها على الخط العربى :

حقيقة لقد عانت كتابة الخط العربى الصحيح من قصور آلات الطباعة ، خصوصاً الآلات الكاتبة البرقية ، أو آلات تسجيل البيانات أو إدخالها فى العقول الإلكترونية ، فلقد قصرت دون أداء هذه الكتابة صحيحة فى أبسط الصور مثل الخط الرقعة أو النسخ : فلقد بدا التصميم الأساسى لهذه الآلات مما يوفى احتياجات الحروف الإفرنجية ، واحتياجات الحروف الإفرنجية لا تستدعى نوعية من الحروف الصغيرة والأخرى الكبيرة . أما بالنسبة للحروف العربية فالأمر أكثر من ذلك بكثير ، فإن الحرف الواحد قد يحتاج إلى أربعة أشكال فيتغير شكل الحرف بحسب موقعه فى الكلمة ، سواء أكان فى البداية أو فى الوسط أو فى آخر الكلمة وكذلك فإن الحرف قد يأخذ شكلا رابعاً عندما يكون منفرداً : ولهذا فقد كان استخدام آلات الكاتبة البرقية الإفرنجية والمعدلة إلى العربية مؤدياً إلى اقتضاب فى كتابة الخط العربى وذلك مثل استخدام شكل الحرف الوسط مستعار من أحد أشكاله الأخرى وغيرها من التسويات التى قضت على جمال الخط العربى . فإن من يتابع كتابة الخط العربى ، وتقدمها يلمس كيف أنها قد وصلت إلى مستوى جعلها أساس فنون الزخرفة العربية كما تعددت أشكال الخط العربى ولكل منها روعته وجماله .

وكان كتاب هذا الخط من كبار الفنانين المرموقين ولقد قضى استخدام آلات الكتابة الإفرنجية لكتابة الخط العربى إلى زوال هذا الجمال ، بل لقد حرف هذا الأسلوب المستعار للكتابة العربية الكثير من قواعد اللغة العربية ، فإن من أبرز قواعد اللغة العربية التشكيل وهذا التشكيل للحروف عماد النطق العربى الصحيح وله دلالات فى المعنى تتغير عند فقدانه :

ولقد بذلت محاولات كثيرة لإخضاع اللغة العربية للقصور التكنولوجى فى تصميم هذه الآلات ، حتى لقد وصل الأمر إلى أن نادى البعض باستخدام الحروف العربية المنفصلة فى الكتابة ، بل لقد لجأت تركيا إلى استخدام الحروف الإفرنجية لكتابة الكلمات العربية وياالهول هذا المسخ . إنه لولا المصحف الشريف وما حباه الله به سبحانه وتعالى من الحفظ لذهبت الكتابة العربية إلى وادى النسيان ، بل إنه لولا زخارف المساجد التاريخية وما يزين جدرانها من كتابة الآيات القرآنية بالخط العربى الجميل انقدنا دائم المستوى الرفيع الذى نفخر به للخط العربى . إن كتابة المصحف الشريف هى الحصن الذى حفظ الكتابة العربية أبد الآبدين . فلقد وفق الله أهل السلف من علماء المسلمين بما عرف عنهم من دقة وتحرى للحق أن يكون طبع المصحف الشريف مصوراً من أصول مكتوبة باليد وفق الخط العربى الأصيل ، وهكذا أدى المصحف دوراً يعتمد على أنه كتاب كل مسلم دورا

مباركاً فى أن ألف المسلمون وتعودوا رغم عوامل الزحف التكنولوجى المعادى لشكل الخط العربى الأصيل .

لا أريد أن أتجاوز حدود هذه المحسوسات إلى ما يقوله منصفون كبار من أن شكل الحروف العربية له أداء من ناحية الشكل لايقتصر على النطق الصوتى أو تكوين الكلمات المركبة بل إن له أسراراً يعرفونها ودليلهم على ذلك أوائل سور القرآن المعروفة بحروف النور .

لا أريد أن أزيد فى هذه المقدمة التى تؤدى إلى نتيجة هى الهدف من هذا البحث وهو أنه لابد أن نغير من اعتبارنا لأهمية الكتابة العربية ، ولابد من أن نرد للخط العربى الصحيح اعتباره كأداة للنطق العربى مبرزاً للمعانى السليمة للغة العربية وهذا يعنى :

أن نطوع التكنولوجيا لهذا الاعتبار ، وهذا يعنى أن تكون آلات الكتابة وعلى الأخص البرقية أو اللازمة للعقول الالكترونية ذات سعة لا تقل عن كتابة أشكال مختلفة لعدد حروف اللغة العربية الثمانية والعشرين بكافة أشكالها وكذلك بإضافة علامات التشكيل إلى إمكانيات هذه الآلات لوضعها على الحروف كلما لزم ذلك ويعنى هذا أن تكون سعة المبرقة مثلا نحو ١١٠ حرفاً بالإضافة إلى علامات التشكيل :

الاتجــاهات المختلفة الحالية للكتابة الآليـــه باللغه العربية :

الأول — كما قلنا سابقاً ينحصر فى إعداد آلة كاتبة سواء فى جانب أزرار الطباعة أو فى ناحية الحروف بما يعادل كافة الأشكال المختلفة للحرف الواحد وعندئذ يكون عدد المفاتيح والحروف حوإلى ١١٠ بالإضافة إلى علامات التشكيل ، ولو تأملنا سرعة الكتابة الآلية الجديدو والتى تعتمد على تميز الطباع للشكل الواحد للحرف الواحد والذى يناسب موقعه فى الكلمة لوجدنا أن هذه السرعة ستكون بطيئة جداً مقارنة بالسرعة على الآلة الإفرنجية والتى لا تتجاوز أزرار الكتابة فيها الخمسين .

الثاني — الاتجاه الثانى كما أسلفنا هو ذلك العدوان الذى وقع على كتابة الخط العربى بتقليص عدد الحروف مما يتيح كتابة عربية غير مألوفة وغير مقبولة أو هو استخدام الحروف المتقطعة وأسوأ من ذلك استخدام الحروف اللاتينية لكتابة العربية الأمر الذى حدث فى تركيا والذى مازالت مختلف الجهود تبذل للتخلص من أضراره .

أما الاتجاه الأمثل فهو الذى يجب أن يحقق احتياجات كتابة الخط العربى بقواعده السليمة كما يجب أن يحقق احتياجات السرعة اللازمة للـــكتابة الآلية أو بمـــا يتيح كتابة آليه بسرعة تعادل السرعة المتحققة للكتابة الإفرنجية . ومثل هذا لا يتأتى كما سبق أن أوضحنا بزيادة الأزرار المقابلة لكامل أشكال الحروف العربية إلى ١١٠ غير علامات

التشكيل : أى أن احتياجات الكتابة الآلية السريعة تتيسر باختزال عدد الأزرار إلى ما يعادل نفس عدد الأزرار المستخدمة فى آلة الكتابة الإفرنجية على الأكثر أى ما يعادل نحو الخمسين :

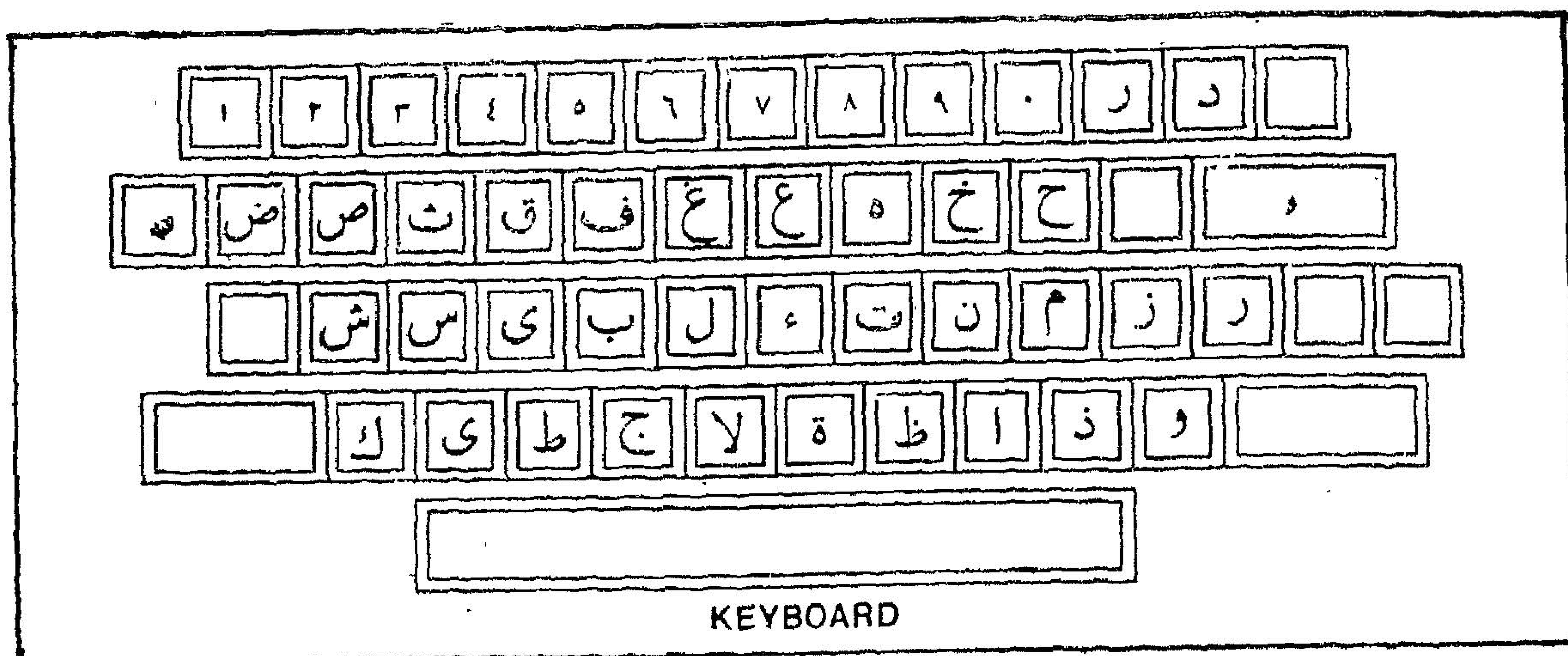
وإذا كان لابد من الجمع بين الشرطين ، وهو الكتابة الخطية المتعددة الأشكال أى أربعة أشكال تقريباً للحرف الواحد مع استمرار تحقيق ذلك باستخدام زر واحد للكتابة . وتحقيق ذلك هو ما سنحاول الكلام عنه فيما يلى :

استخدام ذاكرة الكترونية للتمييز الدال على موقع الحرف :

لقد قام بحث لتحقيق ذلك المنال فى جامعة مونتريال بكندا ، وسار البحث شوطاً بعيداً إلى الحد الذى أمكن فيه إنتاج نموذج لآلة كاتبة عربية ، أو فارسية ، يقتصر عدد أزرار كتابة كافة أشكال الحروف العربية فيه على العدد الأصلى الأساسى للحروف وهو ٢٨ حرفاً رغم أنها تطبع الكلمات العربية بالخط العربى الصحيح ، فبدلا من أن يكون الاتصال ميكانيكياً بين الأزرار وخزانة الحروف بواسطة روافع تدق شكلا واحداً للحرف فإن الاختراع يعتمد على ذاكرة الكترونية تتصل بالأزرار كهربائياً وماتقوم به هذه الذاكرة يتعادل تماماً مع الطريقة التى يميز بها عقل الإنسان عندما يكتب بيده كلمة عربية فإنه يدرك بتصوره قبل الكتابة موقع كل حرف فى الكلمة التى يكتبها ، ويكتبه بالشكل المناسب . وبالمثل فإن الذاكرة الالكترونية لا تعطى تعليماتها لخزانة الحروف الطابعة لكتابة أى حرف فى الكلمة إلا بعد تبين مدرك لموقعه؛أى هل هو فى الأول أو فى الوسط أو النهاية أو هو منفصل ؛ وهذا لا يحتاج إلا إلى تاخير طبع الحرف إلى ما بعد الضغط على زر الحرف الذى يليه ، فتدرك الذاكرة الالكترونية شكل الحرف المطلوب طبعه وتعطى تعليماتها إلى خزانة الطباعة بما يؤدى إلى تحقيق ذلك :

ولنعط مثالا واضحاً لكتابة كلمة «محمد»

الأزرار التى يضغط عليها	عمل الذاكرة المميزة	خزانة الطباعة
الميم الأساسية	تحفظ علامة الميم	لا تطبع
الحاء الأساسية	تحفظ الحاء ، وتعطى تعليمات للذاكره مميزة شكل الميم الأولى	تطبع ميما أول حرف متصل
الميم الأساسية	تحفظ الميم ، وتعطى تعليمات مقررة حاء فى الوسط	تطبع حاء بخط شكل الوسط
الدال الأساسية	تحفظ الدال وتعطى تعليمات مقررة لميم وسط	تطبع ميما متصلة فى الوسط
فترة انتظار	بعد فترة زمنية مدتها حرف تقرر دالا نهائية	تطبع دالا فى نهاية الكلمة



لوحة المفاتيح ٢٨ حرفًا

دائرة التمييز الإلكترونية

الطباعة الفعلية باستخدام ٩٦ شكلاً للحروف

النتيجة كتابة عربية سليمة

شكل توضيحي لآلة الكتابة العربية السليمة

يبين الشكل المرفق وهو المقدم من مجموعة صناعية أمريكية قامت بدراسة تطبيق التصميم المخترع بواسطة أساتذة جامعة مونتريال ومن الشكل يتبين :

١ — أن لوحة أزرار الحروف بسيطة لا تحتوى إلا على الشكل الأساسى للحرف العربى المنفصل وكذلك الأرقام ؛ وهذا الاختصار له دور أساسى فى أن تكون سرعة الكتابة عالية ومعادلة على الأقل لسرعة الآلة الكاتبة الإفرنجية .

٢ — إن تحريك الخزانة الخاصة بالحروف العربية يتم باتصال كهربائى من أزرار لوحة ضغط الحروف ويبدأ بدوائر . إحداهما دائرة « إجراء كهربائى » للحرف عليها « ذاكرة » ثم تتفرع منها دوائر كهربائية ميكانيكية خاصة بتنفيذ التعليمات المتعلقة بطباعة الحرف أو الرقم المطلوب بالشكل المناسب :

٣ — من نتائج هذا النظام أن يستخدم فى لوحة الأزرار عدد ٣٣ زراراً ويبقى من عدد ٥٢ زراراً فى اللوحة الإفرنجية عدد وافر من الأزرار لاستخدامها فى عملية كتابة التشكيل على الحروف العربية إذا أريد ذلك .

بعض آثار الانفتاح التكنلوجى على الكتابة العربية :

لا أقصد فيما أقول عن الطريقة المثلى للكتابة الآلية للخط العربى الصحيح أن أنسب لنفسى أى فضل فيما تم من بحوث بل لست إلا ناقلا للقدر الذى درسته من هذه البحوث فى لقاءات تمت فى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية مع بعض أصحاب هـذه البحوث . والحقيقة أن المنهج الذى اتبعوه فى تطوير الآلة الكاتبة والمبرقة العربية ، هو نفسه ما يدور بخلد الكاتب للخط العربى بيده ؛ فإنه لا يعطى الحرف العربى شكله المناسب إلا بعد أن يميز موقعه فى الكلمة ، وهو ما تقوم به وحدة التميز الالكترونى فى الآلة الكاتبة المبتكرة . ونتائج هذا الابتكار أن أصبح الكاتب لا يلمس إلا الحروف الأساسية للغة العربية وهو ما يعنى فى حالة إرسال رسالة بالمبرقة أن يكتفى بشفرة مختصرة هى الشفرة اللازمة لثمانية وعشرين حرفاً فقط ، أما كتابة الشكل المناسب للحرف فيتم عند نهاية الاستقبال بواسطة وحدة التميز الالكترونى والتى تعطى تعليمات صحيحة عن شكل الحرف إلى خزانة حروف الطباعة حيث يطبع هذا الحرف بالدق على صفحة ورق الكتابة .

وإن نتائج اختصار الشفرة ، والتى هى عبارة عن سلسلة العلاقات الكهربائية المكونة من نقط وشرط ، أن زالت كافة العوائق التى حالت دون استخدام اللغة العربية كأساس فى مختلف الأجهزة التكنولوجية الحديثة ؛ فلقد أصبح تخزين العقول الالكترونية بالمعلومات المعينة — سواء أكانت بيانات أو عمليات حسابية — ممكنا باللغة العربية ، بل يقرر علماء الحاسبات

الالكترونية أن اللغـــة العربية بطبيعتها يجرى فيها تركيب الجمل والتعبير عن المعانى والاشتقاق من مادة فعل واحد على طريقة التصريف المعروفة مما يخضع اللغة العربية للترجمة الحسابية أكثر من غيرها . وتستطيع بذلك أن تحقق ما يحتاجه استخدام اللغة العربية فى الحسابات الالكترونية من تخزينها أو استخراجها إما على شاشات الكتابة الفوسفورية أو بالتسجيل على الأشرطة الخاصة بها أو غيرها من وسائل التخزين . ووسيلة الإدخال بسيطة مختصرة، وطريقة لإخراج بالشكل المكتوب أو المرسوم على الشاشة قد أصبح على أحسن وجه .

كذلك قد توصل أولئك الباحثون فى جامعة مونتريال إلى اختراع وحدات جديد تعطى مزايا جديدة للآلات الكاتبة مثل استرجاع ما تمت كتابته بقصد التصحيح . وذلك باستخدام ذاكرة الكترونية مبسطة فى وحدات التمييز ، كذلك توصلوا إلى استخدام ذاكرة أكثر دقة تمكن من استيفاء قواعد اللغة العربية فى الجملة الواحدة وتلك عن طريق التمثيل الحسابى للغة العربية ،أو بمعنى آخر قد اخترعوا ما يقوم بدور المصحح فى الجرائد والمجلات .

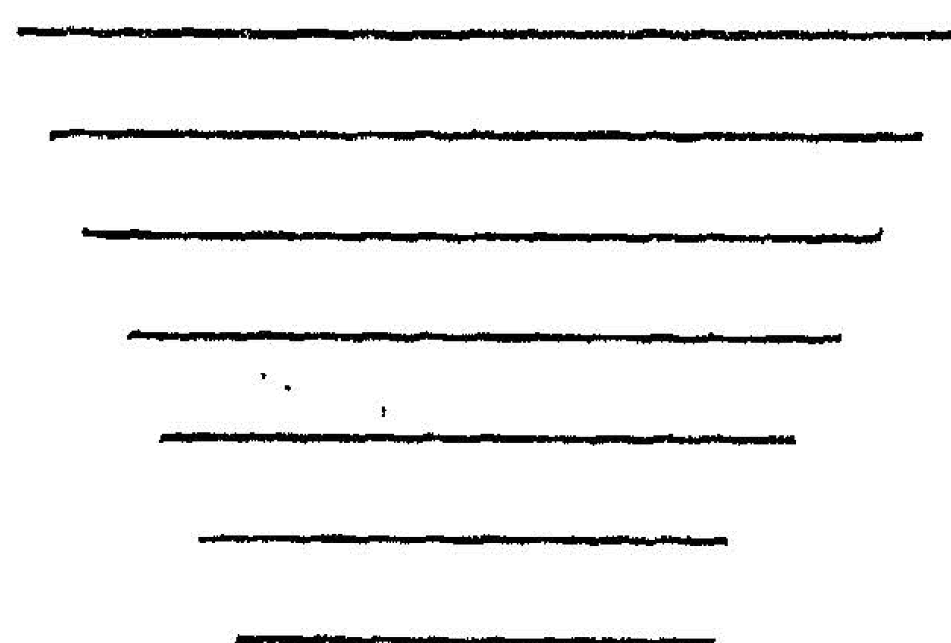
الخلاصة :

أنه لم تعد هنالك مشكلة يمكن أن تفرض على المتكلمين والكاتبين للغه العربية ، بأن يقبلوا أى نوع من الكتابة المشوهة بسبب القصور التكنولوجى ،أو أن يرضوا بالخطأ اللغوى لعدم وضع علامات التشكيل على الكلمات .

كذلك لم يعد هناك سبب يفرض على هيئات الاتصالات السلكية واللاسلكية بأن تضع اللغة العربية فى زوايا النسيان ؛ لعدم صلاحيتها لتعدد أشكال حروفها إلى أن تكون واسطة الاتصال البرقى والتلكس بكافة أنواع أشكال الخط العربى والقراءة الصحيحة .

والله الموفق .

صلاح عامر



كتاب "السحر والشعر"

للدكتور مصطفى الشكعة

إن محمد بن عبد الله ابن محمد بن محمد بن سعيد السلماني المشهور بلسان الدين الخطيب يعتبر هدية الثقافة العربية والإسلامية إلى الأندلس، كما يعتبر هدية الأندلس إلى الثقافة الإسلامية والأدب العربي بشكل عام.

وسيرة لسان الدين مسطورة على صفحات كتب الأدب والتاريخ. فقد كان رجل سياسة وحكم، ورجل علم وفكر وأدب يمارس الحكم بالنهار، ويتعاطى القراءة والتأليف بالليل، ولكثرة ما أنتج من علم وأدب لقب بذى العمرين فإن نتاج فكره وممارسته لحياته السياسية يصعب أن يتسع لهما عمر واحد، وكانت آفة الأرق التى أصيب بها لسان الدين هى التى وهبته العمر الثانى الذى منحه فرصة القراءة والتأليف.

ومؤلفات لسان الدين من الكثرة والنفاسة بمكان، فقد ألف ما يناهز ستين كتاباً فى مختلف العلوم والفنون من أدب وتاريخ وتراجم ورحلات وبلدان وسياسة وطب وفقه وتصوف وعلم كلام واختيارات أدبية، كما كان كاتباً شاعراً وشاحاً.

ولسنا الآن فى مجال سرد كتب لسان الدين وتقويمها؛ فإن ذلك مما يضيق عنه مجالنا[1]، وإنما نحن نريد دراسة كتابه «السحر والشعر» الذى هو ضرب من ضروب الاختيارات الأدبية.

على أن «السحر والشعر» ليس الكتاب الوحيد الذى صنفه لسان الدين فى الاختيارات الشعرية، فإن له كتاباً آخر، ولكن فى الموشحات المختارة أسماه «جيش التوشيح»، وهو مطبوع فى تونس والحصول عليه سهل ميسور. ولقد ترجم جيش

(١) يراجع الفصل الذى كتبناه عن لسان الدين ومؤلفاته فى كتابنا «مناهج التأليف عند العلماء العرب». طبع دار العلم للملايين.

التوشيح لستة عشر وشاحاً أندلسياً وأورد لهم مائة وخمسا وستين موشحة ، وأشهر هؤلاء الوشاحين هم ابن بقىّ التطيلى الضرير ، ابن الأبيض ، أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة .

إن كتاب جيش التوشيح إذن واحد من كتب الاختيارات الشعرية ، ولكنه موغل فى التخصص ، لأن مؤلفه قصر مادته على الموشحات دون غيرها من فنون الشعر .

فإذا ما عدنا إلى الحديث عن كتاب « السحر والشعر » وجدناه مقصوراً على مقطوعات من فن القصيد دون فن التوشيح ، ووجدناه أيضاً يضم أسماء بعض ن ذكرنا من الوشاحين الذين ضمهم « جيش التوشيح » ، ولكن من خلال قطوعات شعرية أوردها لهم المؤلف ، وليس من خلال الموشحات .

كتب الاختيارات الشعرية :

يرجع هذا الفن من التصنيف الأدبى إلى القرن الثانى الهجرى فإن المفضل الضّبّى المتوفى سنة ١٧٥ هـ هو أول من طرق هذا اللون من التأليف ، بتصنيفه مختاراته التى عرفت باسم « المفضليات » ، ثم تلاه عبد الملك بن قريب الأصمعى (١١٢ - ٢١٦ هـ) بمجموعة اختياراته التى عرفت باسم « الأصمعيات » والتى تشترك مع مجموعة المفضليات فى كثير من النصوص ، ثم تلت هاتين المحاولتين محاولة ثالثة قام بها أبو زيد محمد بن أبى طالب القرشى أسماها « جمهرة أشعار العرب » ، وفيها عمد إلى جمع أشهر القصائد العربية تحت عناوين براقة مثل المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثى والمشوبات والملحمات . وهذا النمط من التصنيف يمثل تطوراً ملحوظاً فى هذا الفن من الاختيارات الشعرية .

فلما جمع أبو تمام « حماسته » كانت بمثابة فتح جديد ونقلة واسعة فى تصنيف الاختيارات بحيث سار من جاءوا بعده على نهجه ، وأطلقوا على اختياراتهم نفس العنوان الذى أطلقه أبو تمام على اختياراته والتسمية هنا من باب تسمية الكل باسم الجزء ، فليست كل اختيارات أبى تمام مما يقع تحت باب الحماسة ، وإنما موضوعات حماسته على النحو التالى : الحماسة ، المراثى ، الأدب ، النسيب ، الهجاء ، الأضياف ، المديح ، السير والنعاس ، الصفات ، الملح ، مذمة النساء .

وبعد أبى تمام ظهرت حماسات كثيرة رسمت على منواله على الأكثر، واختلفت عنه فى الاقل، وإن عمد بعضها إلى مزيد من التفصيل ووفرة من النصوص، وأشهر هذه « الحماسات » حماسة البحترى وحماسة الخالديين وتعرف أيضاً بالأشباه والنظائر، والحماسة الشجرية والحماسة المغربية ليوسف البياسى الأندلسى المتوفى ٦٥٢ هـ، والحماسة البصرية لصدر الدين أبى الفرج بن الحسين البصرى المتوفى ٦٤٧ هـ.

فالحماسات أو الاختيارات الشعرية كما رأينا كلها مشرقية باستثناء الحماسة المغربية، وحماسة أخرى لم تصل إلينا حتى الآن: هى حماسة الأعلم الشنتمرى، وهنا يكمن السر العظيم فى أهمية مختارات لسان الدين « السحر والشعر » لأنها صدرت فى فترة زمنية مناسبة، وتعتبر حلقة نفيسة تكمل السلسلة المتتابعة لظهور كتب الحماسات والاختيارات.

نسخ الكتاب :

هناك عديد من النسخ الخطية متناثرة فى المكتبات شرقاً وغرباً وأكثرها مما يصعب قراءته، على أن أفضل النسخ التى يمكن الاعتماد عليها بحيث يمكن من خلالها تحقيق الكتاب وإخراجه هى النسخ الآتية :

١ ـ نسخة الأسكوريال المقيدة تحت رقم ٤٥٦

٢ ـ نسخة المكتبة الملكية فى الرباط المقيدة تحت رقم ١٢٩٥

٣ ـ نسخة المكتبة الوطنية فى تونس المقيدة تحت رقم ٢٢٩٨

ولقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على نسخة مصورة من نسخة الأسكوريال أطلعنا عليها تلميذنا قدور إبراهيم عمار ابن محمد الذى بذل مجهوداً مشكوراً فى تحقيق الكتاب ونال به درجة الماجستير من جامعة عين شمس، والنسخة مكتوبة بخط مغربى جمع بين الوضوح والجودة.

تعليل عنوان الكتاب :

إن لسان الدين أطلق على كتابه عنوان « السحر والشعر »، وقد عمد إلى ذلك عمداً حين علل مذهبه هذا فى مقدمة كتابه، والحق أن الأمر أيسر من أن يشغل لسان الدين، فيجعل من عنوان كتابه ما يوحى إلى القارىء العابر أن فيه مادة يمكن أن

تكون سحرًا ، ومادة أخرى أسماها شعرًا ، والأمر فى حقيقة مفهوم لسان الدين أن السحر هو ذلك الشعر المجوّد المحلّق الذى يهزّ النفس وينفذ إلى أعماقها ، ويستولى على مجامع الإعجاب ويخلب الجوانح والأعطاف ، وما كان دون هذا المستوى فهو الشعر ، فالمسألة فى حقيقتها وجوهرها تكمن فى المدى الرفيع الذى استطاع الشاعر أن يصيبه من خلال فن القول بكارة فكرة ورقة صياغة وقدرة إبداع وعمق إثارة وبراعة تناول ، فإن أصاب الشاعر هذه الأغراض مجتمعة فجماع قوله سحر ، وإن قصّر عن واحدة منها فحصيلة قوله شعر . ولا بأس علينا من أن نستعرض قول لسان الدين فى هذا السبيل :

« ولما كان السحر قوة ظهرت فى النفوس أفعالها ، واختلفت بحسب الوارد أحوالها ، فترى فى صورتها الحقيقية خيالها وتبدى فى هيئة الواجب محالّها ، وكان الشعر يملك مقادتها ، ويغلب عادتها ، وينقل هيئتها ،ويسهل بعد الاستصعاب خبيئتها ويُحمل فى قده ، على الشىء وضده ، حتى إذا حضر ما يناسبه ، وتقضى إليه مذاهبه ، وقرنت به الألحان على اختلاف حالاتها ، وما تقتضيه قوى استحالتها ، عظم الأثر ، وظهرت العِبر ، فشجّع وأقدم ، وسهّر ونوّم ، وحبّب السخاء إلى النفس ونهى ، وأضحك حتى ألهى ، وأحزن وأبكى وكثير من ذلك يُحكى ، وهذه قوى سحرية ، ومعان بالإضافة إلى السحر حرية ، فمن الواجب أن يسمى الصنف من الشعر الذى يخلب النفوس ويستفزها ، ويثنى الأعطاف ويهزها ، باسم السحر الذى ظهرت عليه آثار طباعه ، وتبين أنه نوع من أنواعه ، ولهذا المعنى فى قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « إن من البيان لسحرًا » تتوجه إشارة حرف التبعيض ، وإليه ينظر يفطن لهذا المعنى ، من يُعنى فى سر الكلام بما يُعنى فقال :

فى منطق القــول تزيينٌ لباطِلِهِ
والحقّ قــد يعتريه سوءُ تعبيرِ

تقــولُ هذا مجاجُ النحلِ تمدحه
وإن ذَمَمْتَ قلتَ : قَىْءُ الزنابيرِ

مــدحٌ وذمٌّ وعينُ الشىء واحــدةٌ
إن البيانَ يُرِى الظلماءَ كالنورِ

بالطرف الغضيض ، وما قصر عن هذه الغاية القاصية ، والمزية المتصعبة على المدارك المتعاصية سمى شعرًا تختلف أحواله عند الاعتبار ، وتتميز شبهه من النضار . وينقسم إلى أقسام : منها ما يلحظ عندما يلفظ ، لا يرى ولا يحفظ ، ومنها ما يعبث به ويسخر فلا يقتنى ولا يدخر ، ومنها ما يستخف ويستثقل ، فلا يروى ولا ينقل ، ومنها ما اشتمل على لفظ فصيح ، ووصف صحيح ، وقافية وثيقة ، وإشارة من العبارة أنيقة ، واشتمل على الحكم والأمثال ، ومعظم الشعر على هذا المثال ، ولكل قسم بيت مذكور ، وشاهد مشهور ، فإذا قلت سحر فعلى هذه المقاصد المنوية ، وإذا قلت شعر فالتخصيص والمزية » .

إن واقع الحال يشهد بأن لسان الدين قدم لنا طرفة أدبية بهذه المقدمة فى أسلوب عذب موقع ، وألفاظ حلوة منتقاه ، وديباجة وضاءة مشرقة ، وأما الفكرة التى حاول أن يجعل منها قضية أدبية بوضع حدود واضحة بين السحر والشعر ، فما زالت غائمة غائبة ، ولعل السحر الذى ذهب إليه هو مجرد الشعر المعجب المجود ، وحتى هذا اللون من الشعر تختلف فيه مقاييس الناس ومعايير النقاد .

هذا وإن لسان الدين قد كفى قارئه — بل كفى نفسه — مؤونة الانشغال بالبحث عن الحدود التى تفصل بين ما هو سحر وما هو شعر حين قدم لباب الفخر بقوله : « ونمط هذا الباب يتنازع الكثير منه أسلوبا السحر والشعر » ثم يستطرد قائلا « فليكن الخيار فى نسبته إلى الناظر فيه بحول الله » .

على أن لسان الدين يقدم بعض مختاراته بوصفها نمطاً من أنماط السحر وينص على ذلك نصاً صريحاً .

مثال ذلك ما أورده لأبى الفرج بن الجوزى ، وقد ليم على اكتحاله يوم عاشوراء فى قوله :

ولائم لى على اكتحالى
يوم أراقوا دمَ الحُسَيْن
فقلت : كُفُّوا ، أحقُّ شىءٍ
فيه يلبسُ السَّوادَ عَينِى

ويورد فى مقام الغزل بَيْتَىْ جرير المشهورين :

إنَّ العيونَ التى فى طَرْفِهَا حَوَرٌ
قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلَانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حتى لاحراكَ به
وهُنَّ أضعفُ خَلْق اللهِ إنْسانَا

ويتمثل لسان الدين في مقام أنماط السحر، بنماذج لا تحصى من شعر الغزل، ولا ينسى نفسه أيضاً فيتمثل ببعض شعره.

وفي باب الوصف يتمثل بنماذج عديدة مختارة لشعراء من مختلف الأمصار الإسلامية فمن ذلك ما نسبه إلى ابن قلاقس الإسكندري :

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوْقَهَا
وكَسَاهُ رِيشَ جَنَاحِهِ الطَّاوُوسُ
فكأنما الأنهارُ فيه سُلافَةٌ
وكأنَّ ساحاتِ الديار كُؤُوسُ

ويعتبر لسان الدين جميع مختاراته التي قدمها في باب الوصف من نمط السحر.

وفي باب الملح يتمثل ابن الخطيب بمختارات كثيرة طريفة من ذلك الذي يعتبره من نمط السحر كقول الشاعر :

ذَكَرْتُ له ضَيْفاً فَظَنَّ بأنني
ذَكَرْتُ له ضَيْفاً فقام إلى السَّيْفِ
فقُلْتُ له خَيْراً فَظَنَّ بأنني
ذَكَرْتُ لهُ خُبْزاً فماتَ من الْخَوْفِ

وهكذا يختار لسان الدين نماذجه في كتابه « السحر والشعر »، ويصنفها شعراً أو سحراً حسب تقويمه الخاص لها، ذلك التقويم الذي قد يتفق معه فيه بعض النقاد، ويختلف معه فيه آخرون.

ومهما كان الأمر فإن مختارات لسان الدين تعتبر من عيون الشعر العربي وهي دليل واضح على ذوقه الرفيع واطلاعه الواسع.

لسان الدين يجمع الكتاب :

إن لسان الدين شأنه في ذلك شأن كل عالم بفنه، يكتب مقدمة كتابه يوضح فيها منهجه ويذكر المناهل التي منها اقتبس مادة الكتاب وهي هنا عراقية حجازية مصرية يمانية خراسانية إفريقية أندلسية، ويسجل أنه انتقاها بعناية مستأنية وذوق رفيع فيقول في ذلك :

« فإني لما قَيَّضَ اللهُ مني للآداب مجلّي سماتها، وناشرَ رممها بعد مماتها، وَصاقِلَ صفحاتها، وقدْ مَحا محاسِنَها الصَّدَا، على بُعْدِ المدى بعد مماتها، وموضح طريقتها المثلى وقد أضحت طرائق مددا، والغاشي إلى ضوء نارها لعلّي أجد على النار هدى، بذاتُ فيها كلّ مَنّ، ولم أقتصر من فنونها المغربية على فنّ، فجعلت عقائلها تتزاحم عليَّ تزاحم

الحور على ساكن جنان الحبور، فقيدت في شواردها بالكتاب مالم تقلّه ذوات الأقتاب، وأتيتُ بيوتها من الأبواب، فكان ما قيدته من الغُرَر، واقتنيتُهُ من نفائس الدُّرَر التي لو تجسدت للعيان لكانت ياقوتاً، أو اسْتُطْعِمَتْ لكانت للقلوب قوتاً، ولو ورد في الخبر المنقول، الأمر بحفظ القرائح والعقول، لكانت كتاباً موقوتاً. فمن كل عراقية المنتمى مترددة بين الرصافة ومحراب الدمى[1]، ماء الرافدين على أعطافها يسيل، وسر من رأى ما انجلى عنه خدها الأسيل، وشامية تقلبت بين الجابية والبلاط[2] أى متقلب، وبقية مما ترك آل حمدان فى حلب، وحجازية ورى لها فى الفصاحة الزند، أو تضوع فى آفاقها الشيح والرند، ويمانية تعلمت وشى برودها، وخراسانية غار سيحان ببرودها، ومصرية ضربَ على محاسنها الفسطاط، وهاجرت بسببها الانباط، وسكنت مدينة الإسكندرية حيث الرباط، وإفريقية تفرق النفوسُ لتوقع فراقها، وتغار الشموس عند إشراقها، وغربية حطَّتْ لها العُصْم، وطلعت آياتها فى المغرب فَبُهِتَ الخصم، وأندلسية لها المزية والشفوف، وأولياؤها الكماة وشهودها الصفوف. . . . وأودعت منها المهارق[3] كنوزَ نُضَار، لايُحْمى عليها بغير القريحة من نار، وصيرتُ المغرب الأقصى مشرق أنوار، لأُحضرَ فى المحاضرة عقودَها، وأدفعَ عند الاقتضاء نقودَها، وأنشُر فى كتائبِ البيانِ ومواكبِ أرباب اللسانِ بُنُودَها، وعاقنى عن إبدائها وإماطة ردائها مهمٌّ من النظرِ صرفْتُ إليه ركابى، وشاغلٌ إلى غير تلك الطبيعة حرابى».

على أن السبب الأصيل فى ظهور هذا الكتاب إلى الوجود بعد أن أخذ من مؤلفه فترة زمنية طويلة فى الجمع والانتقاء هو أن ولده عبد الله قد نما عوده، وبلغ مبلغ الشباب، وأراد لسان الدين أن يثقفه ويؤدبه، فسارع إلى إخراج الكتاب، لكى يكون وسيلته إلى هذا الغرض، تماماً كما كان « المفضليات » وسيلة تأديب «المهدى» وتهذيبه.

إن لسان الدين يصوغ هذا المعنى فى هذا السياق الأدبى المتميز:

« ولما طلع الآن الولد عبد الله ـ يسّر الله نجابته، وعجّلَ تلبيَتَه لداعى الرشدِ

(١) محراب الدمى باحة فى أحد قصور صنعاء.

(٢) الجابية والبلاط قريتان من اعمال دمشق ونابلس.

(٣) المهارق: الصحائف.

وإجابته — اغتنمت له فرصة العمر عند إمكانها ، واهتبلت غرة الدنيا المتقلبة بمكانها ، وأعددت له العتاد الذى يجده ، واستدعيت له المدد الذى ينجده ، واستخرت له من شيوخ وقته من أغضى عنه حِمَامُهُ ، واتصلت به أيامُه ، وله قصائد فى الوصايا والمبادىء يستقبل مع التوفيق درْسهَا ، ويجنى مع السعادة غَرْسها ، وظهرلى أن أيسر له الآن مجموع هذه الأناشيد ليُحاضَر بها ويتمثل ، ويتأسس البيان بذكرها لديه ويتأثّل ، فى رقاع تزهو بالقلائد ، وتجعل تمائم على نحور الولائد ، على ترتيب معلوم ، ورصف مرسوم ، كالمدح وما يناسبه ، والنسيب وما يناسبه ، والوصف وإن تشعبت مذاهبه ، والملح ومنها محاسن الشيء ومعانيه والحكم والزهد وما اشتمل عليه واجبه ، مما تمامة نُسْك ، وختامه مِسْك ، ليكون أجمعَ للفكر ، وأسهلَ للذكر » .

إن المقدمة — كما رأينا — مكتوبة بأسلوب مشرق ، ونهج موقع ، وقد أوضح لسان الدين أنه تأنق فى اختيار مادة كتابه الشعرية ، وأخذ من كل غرض بسبب فاختار روائع المديح والنسيب والوصف والملح والحكم والزهد .. وهى أبواب أجاد الشعراء معالجتها على مر الزمان مهما اختلف المكان وتباينت الأوطان .

ولا شك فى أن هذه الاختيارات قد أخذت من المؤلف زمناً طويلاً ربما كان الجزء الأكبر من عمره ، كلما قرأ نصاً شعرياً أعجبه سجله واحتفظ به فى بابه حتى إذا تجمع له من النصوص الجيدة ما يصلح لأن يشكل كتاباً سارع إلى النهوض بهذا العبء وكان الدافع الأكبر إلى ذلك هو أن ولده عبد الله قد بلغ مبلغ اليفاع ، وصار فى حاجة إلى التثقيف والتأديب ، فكان أن وضع لسان الدين مختاراته تلك فى صورتها التى بين يدينا ، وجعل منها واحداً من المصادر التى تنهض سبباً لتثقيف عبد الله وتعليمه ، وهو فى هذا السبيل يختلف مع أبى تمام فى « حماسته » ذلك أن أبا تمام جمع مادة « الحماسة » فى زمن قصير حين حبسه الثلج عن السفر واضطر إلى الإقامة فى همذان ضيفاً على صديقه أبى الوفاء بن سلمة حتى يذوب الثلج ، وتتيسر أسباب السفر ، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بلسان الدين الذى جمع مادة كتابه متأنقاً متأنياً خلال عديد من السنين .

منهج الكتاب :

يقع كتاب « السحر والشعر » فى جزءين يضمهما مجلد واحد كبير أو فى جزء أصيل وملحق ، تسبقهما مقدمة أنيقة الأسلوب تتناول مبحث السحر والشعر حسبما أسلفنا القول .

ومجموع المقطوعات التى يضمها الأصل والملحق ألف وسبع وخمسون مقطوعة ، يضم الأصل سبعمائة وخمساً وأربعين منها ويضم الملحق ثلاثمائه واثنتى عشرة .

أما أبواب الكتاب فهى المدح ثم الفخر ثم الرثاء ثم النسيب ثم الوصف ثم الملح ثم الحكم والجد .

وأكثر الأبواب عدد مقطوعات هو النسيب ويضم مائتين وأربعاً وأربعين مقطوعة ، يليه باب الوصف ويضم مائتين وسبعاً وعشرين ، يليه باب الملح ويضم مائة مقطوعة وثلاث . أما بقية الأبواب فيضم كل منها عددا من المقطوعات يقل كثيراً عن المائة .

هذا فيما يتعلق بالأصل أو الجزء الأول ، وأما الجزء التالى أو الملحق فأكبر أبوابه هو أيضاً باب النسيب الذى يضم مائة وأربعين مقطوعة ، وأما بقية الأبواب فعدد المقطوعات فى كل واحد منها دون الخمسين ، وأصغرها حجماً باب الحكم والجد الذى يضم عشرين مقطوعة .

أما المقطوعات نفسها فلا تزيد على أربعة أبيات وفى حالات قليلة تصل إلى خمسة ، ماعدا حالتى استثناء فى مقطوعة خمرية لأبى نواس مطلعها :

ودارِ ندامى عطّلوها وأدْلَجُوا
بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ

فقد بلغت ثمانية أبيات ، ومقطوعة أخرى لابن اللبانة فى مدح المعتمد بن عباد بلغت أبياتها سبعة .

ولقد حرص لسان الدين — عن قصد منه — أن تكون مقطوعات كتابه مقسمة بين شعراء المشرق وشعراء الأندلس قسمة تكاد تكون مناصفة ، فإن كانت ثمة غلبة لفريق فهى للمشارقة ، ولكن بصورة لاتخل كثيراً بالميزان الذى تمثله المؤلف . بل إن المؤلف حرص على تمثيل العصور الزمنية والاصقاع المكانية مع إهمال كامل للعصر الجاهلى الذى لم يختر منه غير نص واحد لزهير ، ثم اختيار عدد قليل من النصوص لشعراء أمويين محدودين هم جرير وقيس

بنى عامر وقيس بن ذريح ويزيد بن الطثرية ، وكلها فى النسيب ، ولعل لسان الدين فطن إلى أنه مما يخل بمنهج كتابه أن يخصص بابين طويلين – بل الحق أنهما أطول الأبواب فى كل جزء – ولا يذكر شيئاً لشعراء النسيب فى أزهى عصور النسيب بل لعله من العجب حقاً أن يخلو بابا النسيب من نصوص استاذى هذا الفن وهما عمر ابن أبى ربيعة وجميل بن معمر .

ولنا أن نتساءل والأمر كذلك : هل ترك لسان الدين – عن قصد – النصوص الجاهلية والإسلامية والأموية لأن مصنفى كتب الاختيارات الشعرية والحماسات الذين سبقوه قد اختاروا من نصوص هذه الحقب ما يفى بحاجات الدارسين ؟ ربما كانت الإجابة بالإيجاب ؛ فقد صنع ذلك كلٌّ من أبى تمام والبحترى فى حماستيهما ؛ وأن ذلك هو الذى وقر فى خاطر لسان الدين ، إذ أنه ليس مما يتفق وذوق عالمنا الكبير أن تكون نظرته لشعراء هذه العصور نظرة من يسئ الظن بهم وفيهم امرؤ القيس ولبيد والنابغة وحسان والحطيئة وكعب بن زهير والأخطل والقطامى والفرزدق وذو الرمة والراعى والسيد الحميرى وابن ميادة وعدىّ بن الرقاع وغيرهم من نجوم الشعر وأعلامه .

فاذا ما تبعنا أسماء الشعراء بعد ذلك وجدنا نصوصا لكل الشعراء المشهورين فى عصر الباكورة العباسية من أمثال بشار وأبى نواس ومسلم وأبى العتاهية وديك الجن وأبى الشِّيص ودعبل والعتابى والعكوك وأبى تمام وعلى بن الجهم وابن المعتز وابن الرومى ، ثم يمضى ابن الخطيب مع بقية شعراء العراق فى القرن الرابع الهجرى فيختار مقطوعات لمشاهيرهم من أمثال الشريف الرضى ومهيار الديلمى والسلامى وابن حجاج وابن سكرة الهاشمى وابن لنكك البصرى وابن نباته السعدى وقلة أخرى من شعراء العراق ، بل لعله يمضى مع الزمن ويختار من شعراء العراق العجمى من أمثال المأمونى والأبيوردى فى آخر القرن الخامس .

وإذا كان لسان الدين قد احتفل ببيئة بغداد ذلك الاحتفال الذى جعله يكثر من الاختيار لهذه الكوكبة من شعرائها الذين سلف ذكرهم ، فإنه قد احتفل بشعراء بيئة أخرى ممرعة خصيبة هى بيئة حلب فى ظل سيف الدولة الحمدانى ، فقدم عددًا كبيرًا

من مقطوعات شعراء الأمير ،مثل أبي فراس والصنوبرى والسرىّ الرفاء وكشاجم ، والخالديين والوأواء الدمشقى والنامى وأبى الفرج الببغاء والخباز البلدى ، وأخيـرًا المتنبى ، وإن كنا لاحظنا أنه لم يورد لشاعر العربية الكبير إلا عددًا قليلا من المقطوعات لايتفق ومكانته الكبيرة التى احتلها عن جدارة فى مملكة سيف الدولة ، وفى سماء الشعر العربى . وما دام لسان الدين بصدد الاختيار من البيئة الحلبية فقد وجد نفسه دون أن يدرى أمام عملاق معرة النعمان ، فاختار له بعض مقطوعات من شعره .

ولما كان لسان الدين كاتباً شاعرًا يتذوق نبرة الشعر الصادر عن الفكر قبل الجوانح فقد أُعجب بفرائد صدرت عن الملكات الخصبة لكتاب العربية الكبار الذين كانت لهم مشاركة فى الشعر فأورد كثيرًا من المقطوعات لبديع الزمان وأبى بكر الخوارزمى والوزير المهلبى والصاحب إسماعيل بن عباد وأبى إسحاق الصابى والأمير قابوس بن وشمكير والبستى وسهل بن المرزبان وأبى العباس الميكالى وهذان الأخيران من أعيان مدينة نيسابور ، بل لعل كتاب يتيمـة الدهر للثعالبى كان أمام لسان الدين وهو يختار لبعض هؤلاء ، ومن الطريف أنه اختار للثعالبى نفسه مقطوعة أو مقطوعتين ، كما اختار مقطوعة للباخرزى صاحب الدمية التى تعتبر امتدادًا ليتيمة الدهر .

ولسان الدين عالم بالإضافة إلى كونه كاتباً شاعرًا فشده حنينه إلى العلماء ، ونظر فى أشعار بعضهم فأعجبته فاختارها وضمنها دفتى كتابه ، فأورد مقطوعات شعرية لكل من الزمخشرى وابن الجوزى وعبد الوهاب البغدادى والقاضى أبى الحسن الجرجانى ومجد الدين الأربيلى والخليل بن أحمد الفراهيدى وابن جبير الرحالة والقاضى عياض ، بل من الطريف أنه أتى بنص جميل لعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق.

ولم ينس لسان الدين شعراء مصر ؛ فأورد مختارات كثيرة لعدد غير قليل منهم مثل الأمير تميم بن المعز - الذى جمع بين الصفتين المغربية والمصرية - والبهـاء زهير وصناجة الدوح شاعر الحاكم بأمر الله وابن الحداد وابن الساعاتى وابن قلاقس وابن سيد الناس وابن النبيه وابن أبى الأصبغ وابن مكنسة وابن وكيع

التنيمى ، كما اختار نصوصاً لعمارة اليمنى الذى جمع بين الحياة فى مصر واليمن .

هذا ما كان من أمر النصوص المشرقية ، فإذا التفتنا إلى النصوص الأندلسية بخاصة والمغربية بعامة التى أوردها المؤلف فى كتابه « السحر والشعر » وجدنا لسان الدين لم يكد يترك شاعرًا أندلسياً نابهاً إلا وقد عطر صفحات كتابه بمقطوعة له أو أكثر من أمثال المعتمد بن عباد وابن دراج القسطلى وابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وابن خفاجة وابن الزقاق والأعمى التطيلى وابن شهيد وابن بقى والرصافى البلنسى وأمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت واليكىّ وابن زهر وابن سهل الإسرائيلى وابن حمداى وابن صارة الشنتريني وابن خاتمة وابن الأبّار وابن هانىء وابن المرحل ،وهؤلاء الثلاثة الأخيرون يجمعون بين الصفة المغربية والصفة الأندلسية وهناك أيضاً ابن زريق وصاعد البغدادى ، وهذان أيضاً يجمعان بين الصفة العراقية والصفة الأندلسية ،لأنهما نازحان من بغداد .

ولم ينس لسان الدين أن يختار نصوصاً شعرية لبعض شيوخه إما إعجاباً بشعرهم أو وفاءً لهم ، وأغلب ظنى أن العاملين معاً كانا سبباً فى هذا الاختيار فأورد نصوصاً لكل من أبى البركات بن الحاج وأبى جعفر ابن صفوان وأبى زكريا بن هذيل وأبى القاسم بن أبى العافية وأبى بكر بن شبرين.

ومن شعراء إفريقية اختار لسان الدين مقطوعات لكل من ابن رشيق القيروانى وابن عبدون القيروانى وابن قاضى ميله وابن هانىء ومالك بن المرحل ،وهذان الشاعران الأخيران قد مر ذكرهما عند الإشارة إلى شعراء الأندلس .

ونظر لسان الدين إلى صقلية وشعرائها فلم ينس أن يذكر نماذج طيبة لكل من ابن حمديس والأمير ثقة الدولة .

وإذا كان ثقة الدولة هذا الذى مر ذكره هو واحد من الأمراء ، فإن ذلك لفت نظرنا إلى أن لسان الدين قد احتفل بالعديد من الخلفاء والملوك والأمراء الشعراء فأورد لعدد منهم مختارات عذبة مثل الرشيد وعبد الله بن المعتز وقابوس ابن وشمكير وسيف الدولة الحمدانى وأبى فراس الحمدانى وأحمد بن كيغلغ وتميم ابن المعز وأسامة بن منقذ والناصر محمد ابن قلاوون فى المشرق ، والحكم المستنصر والمعتمد بن عباد فى الأندلس .

وعلى الرغم من كثرة النساء الشاعرات المجيدات في كل من المشرق والأندلس فقد لاحظنا أن لسان الدين لم يتمثل لواحدة منهن باستثناء شاعرة أندلسية هي — الشاعرة الرقيقة حمدة — أو حمدونة — بنت زياد الوادى آشى إذ أورد لها أكثر من مقطوعة ، ولا يزال تعجبنا من إهمال لسان الدين لشعر النساء قائماً ؛ ففي الأندلس شاعرات أخريات مجيدات مثل ولادة بنت المستكفي وأم الكرام بنت صمادح ومهجة بنت التيان وحفصة الركونية وكذلك تعج كتب الأدب بالكثير من نصوص الشاعرات المشرقيات المجيدات .

ولقد بدا لنا أن لسان كان يفضل بعض الشعراء ، ويقدمهم إذا كانت كثرة النصوص التي يختارها لشاعر بعينه تعتبر مقياساً لهذا التفضيل ، فإذا صح هذا الاستنتاج يكون الشعراء المفضلون لدى لسان الدين مرتبين على النحو التالي : ابن المعتز ثم لسان الدين نفسه ، ثم ابن نباتة السعدى ، ثم البهاء زهير ، ثم مالك بن المرحل ثم الرصافي البلنسي .

ولمناسبة إيراد لسان الدين عدداً كبيراً من مقطوعات شعره تجدر بنا الإشارة إلى أن أصحاب كتب الاختيارات والحماسات لم تجر العادة بأن يوردوا نماذج من أشعارهم في اختياراتهم لأن المكان المناسب لذلك هو دواوينهم وليس المصنفات التي ضمنوها مختاراتهم .

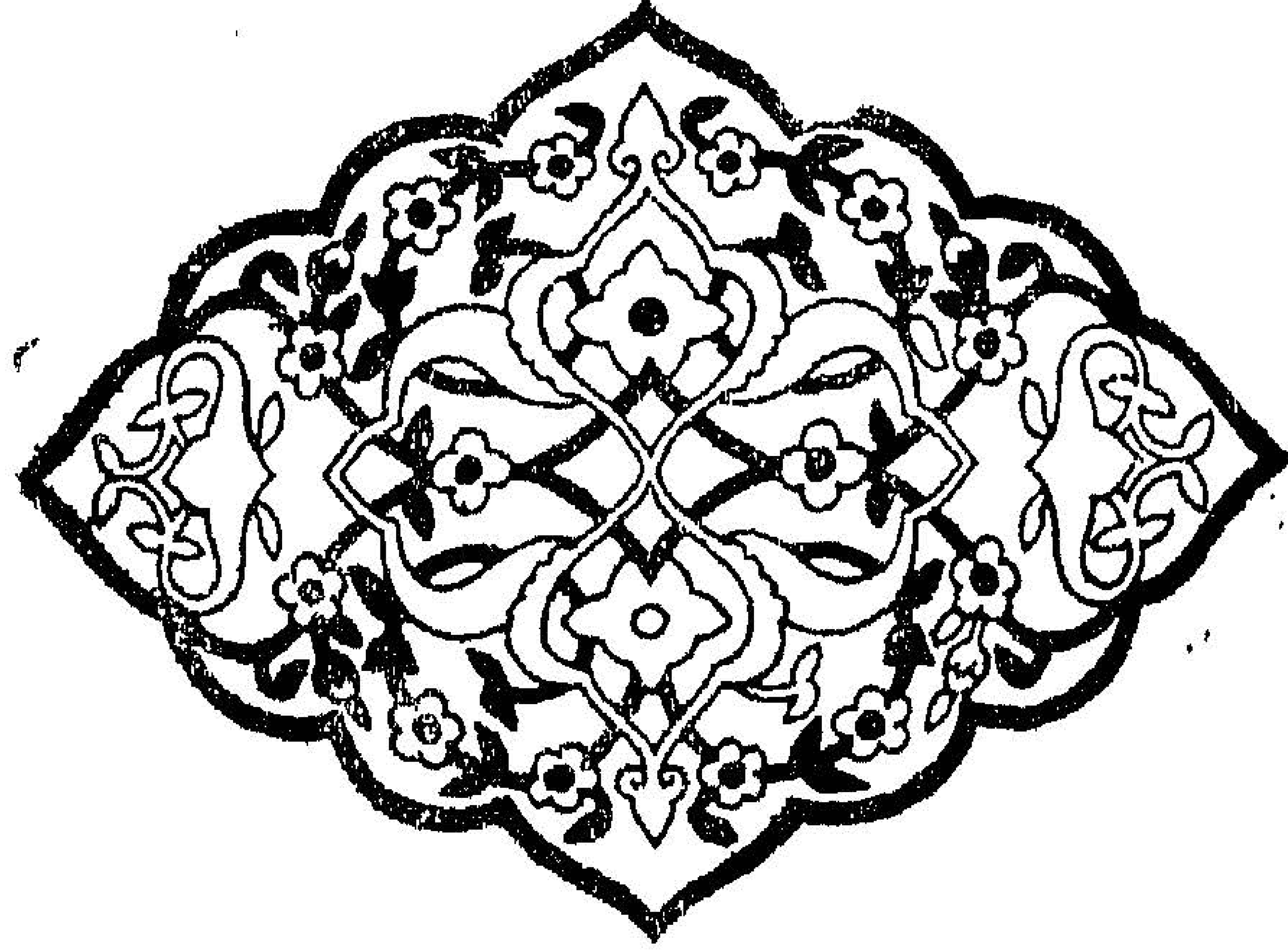
هذا وإن بالكتاب عدداً كبيراً من المقطوعات الشعرية الجميلة يصعب حصرها لكثرتها لم ينسبها المصنف إلى قائليها مما يجعلها غير مكتملة القيمة ، فقيمة الشيء مرتبطة بنسبه ، وليس من شك في أن لسان الدين لو بذل مزيداً من الجهد ونسب هذه المقطوعات إلى قائليها لكان قد زاد من قيمة هذا النصوص وأعلى من قدر قائليها .

بقيت ملاحظة أخيرة لعلها لا تتصل بالمنهج بقدر ما تتصل بالمحتوى والذوق العام ؛ وهي تتعلق بالنصوص الشعرية ذات العبارات النابية والألفاظ البذيئة وذكر العورات ، وهو ما يسمى بالأدب المكشوف ، وقد كان لسان الدين وقوراً رفيع القدر غير متهافت في حياته ولا منحرف وإذا كان لنا من تبرير — إن صح التبرير — فإن تقليده لمن سبقوه من أصحاب الاختيارات ، وبخاصة أبي تمام قد يكون

الدافع لذلك : فإن حماسة أبي تمام مليئة بنماذج من هذا الشعر البذيء المكشوف .

ومهما كان الأمر فإن كتاب « السحر والشعر » للسان الدين ابن الخطيب يمثل حلقة ذهبية فى سلسلة كتب الاختيارات الشعرية ، التى حفلت بنماذج فريدة من الشعر تدل على ذوق أدبي رفيع وإحساس شعرى مرهف ، اتسم بهما الأديب الألمعى العالم السياسى الفيلسوف الطبيب الشاعر الكاتب الوشاح الفقيه المؤرخ الجغرافى لسان الدين بن الخطيب .

مصطفى الشكعة



في القرآن والعربية: (٦)*

الصراع بين القراء والنحاة

للدكتور احمد علم الدين الجندي

رابعاً: أشرنا في المقال السابق إلى مواقف النحاة من القراءات المعزوة إلى قبائل معينة تحت ظاهرة (الكمية: الانتقاص والضعف[1]) وتم الآن الحديث عن تلك الظاهرة:

* * *

١ - عزا البغدادي حذف النون من الذين واللذون واللتان - إلى بني الحارث ابن كعب وبعض بني ربيعة، واستشهد لها بقول الأخطل:

هما اللتا لو ولدت تميمُ
لقيل فخرٌ لهم صميمُ[2]

وما قاله الفرزدق:

أبني كُليبٍ إنّ عمّيَّ اللذا
قتلا الملوكَ وفكّكا الأغلالا[3]

كما حذفت النون من: اللذون - في قول أمية بن الأسكر الكناني:

قومي اللذو بعكاظ طيروا شررا
من روس قومك ضربا بالمصاقيل[4]

وقد حذفت النون من الذين، واستشهد لها أبو العباس ثعلب بقول الحارث ابن وعلة:

فإن ظفر القوم الذى أنت فيهم
فآبوا بفضلٍ من سناء ومن غُنْمِ[5]

واستشهد البغدادي بقول الشاعر:

وإنّ الذى حانت بفَلْجٍ دماؤهم
هُم القوم كلُّ القوم ياأمَّ خالد[6]

(١) ونقصد بها ضعف النطق بالصوت ونقصه
(٢) الخزانة ٢/٥٠٣ التصريح ١/١٣٢
(٣) التصريح ١/١٣٢، حاشية عبادة على الشذور ١/١٥٧، ليس في كلام العرب ٦٤
(٤) خزانة الأدب ٢/٥٠٣
(٥) مجالس ثعلب ٢/٤٣٣
(٦) الخزانة ٢/٥٠٧، كتاب سيبويه ١/٩٦
(*) انظر الجزء السابق من مجلة المجمع

والبصريون كعادتهم قالوا بأن هـذا التقصير والحذف ضرورة ، وهكذا كلما رأى البصريون شيئاً يخالف نظمهم وقواعدهم حكموا عليه بالضرورة ،والضرورة مركب سهل عندهم ، وعللوا هذا الحذف بأنه :تخفيف لاستطالة الموصول بالصلة [١].

أما الكوفيون ، فالحذف عندهم : لغة – طالت الصلة أم لم تطل – حكاه عنهم ابن الشجرى فى أماليه [٢].

والذى أراه أن هذه اللهجة عزيت إلى بنى الحارث بن كعب وبعض ربيعة ، فإذا كان الذى تكلم بها من هذه القبائل ، فهى لهجته ، فالبيت الأول للأخطل – وهو من تغلب وتغلب من ربيعة ،والبيت الثانى الذى عزى للفرزدق – غير صحيح وقائله الأخطل أيضاً [٣] – لأن رواة الأخبار اتفقوا على أن عميه اللذين افتخر بهما هما من تغلب [٤] ، وتغلب قوم الأخطل لا الفرزدق ، فالأخطل مثلا عندما يختصر هذه الصيغ ، فإنما يتكلم على عادة لهجته – لأنه تغلبى من ربيعة ، وربيعة فيها تلك الظاهرة ، أما إذا تكلم بها أمية بن الأسكر فتكون فى شعره ضرورة ، لأن نسبه يؤول إلى مضر ، وليس فيها تلك الظاهرة . وقد حمل على لهجة ربيعة وبلحارث قوله سبحانه « مَثَلُهم كمَثَل الذى اسْتَوْقَد نارًا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » فقد قيل إن المعنى : كمثل الذين استوقدوا نارًا – فلذلك قيل : ذهب الله بنورهم فحمل أول الكلام على لفظ الواحد وآخره على الجمع [٥]. ومن العجيب أن بعض العلماء [٦] يحمل قوله تعالى : « تماماً على الذى أحسن [٧] » فيمن قرأ « أحسنوا » على الجمع بأن الأصل : الذين أحسنوا ، فحذف نون الذين لطول الكلام بالموصول

(١) الخزانة ٢/٤٩٩
(٢) الخزانة ٢/٤٩٩
(٣) المفصل للزمخشرى ص ١٤٣
(٤) خزانة الأدب ٢/٤٩٩
(٥) أمالى الشجرى ٢/٢٠٧
(٦) محب الدين أبو البقاء العكبرى / انظر فى ترجمته . بغية الوعاه ٢٨١
(٧) الأنعام ١٥٤

والصلة ، ثم يعقب العكبرى على تلك القراءة السابقة بقوله « وقد جاء فى الشعر :

أبنى كليب إن عمى اللذا
قتلا الملوك وفككا الأغلالا[1]

وهذا يشير من طرف خفى إلى مهاجمة تلك القراءة من جانب العكبرى ، ومن سار فى ركابه وأضرابه حيث نظر لها بالشعر ، والشعر محط الضرورة . لاسيا قد سجلت كتب الضرورة هذا الشاهد الشعرى السابق فى تضاعيفها[2] ، على أن حذف النون من اللذين واللتين والذين عدها بعضهم ضرورة ، ورآها الآخرون لغة[3] .

* * *

٢ ـ كذلك مالت بعض القبائل البدوية إلى حذف النون إذا وليها ساكن ، وقد عزاها الأزهرى فى تصريحه إلى قبائل : زبيد وخثعم ، واستشهدوا للظاهرة :

(ا) لقد ظفر الزوار أقفية العدا
بما جاوز الآمال (ملأسر) والقتل[4]

(ب) وبقول المغيرة بن حبناء :

إنى امرؤ حنظلى حين تنسبنى
لا « ملعتيك» ولا أخوالى العوق[5]

(جـ) والحارث بن خالد المخزومى :

عاهد الله إن نجا « ملمنايا »
لتعوذن بعدها حرميا[6]

(د) وقول كثير :

إذا وصلتنا خلة كى تزيلها
أبينا وقلنا الحاجبية أول

لها مهل لايستطاع دراكه
وسابقة « ملحب » لاتتحول[7]

(هـ) وفى خصائص ابن جنى :

نحن ركب « ملجن »فى زى ناس
فوق طير لها شخوص الجمال[8]

---

(١) إعراب القراءات الشواذ : ورقة ٧٣ ج ا للعكبرى رقم ١١٩٩ تفسير دار الكتب المصرية .
(٢) أنظر : ما يجوز للشاعر فى الضرورة ٦٤ للقزاز القيروانى . ط تونس .
(٣) الضرائر للألوسى ٦٨ ط السلفية بمصر .
(٤) التصريح ٢ / ٢٩ .
(٥) الشعر والشعراء ص ١٥١ تحقيق السقا .
(٦) الكامل للمبرد ٢/٢١٨ .
(٧) الشعر والشعراء : ٢٠٢ تحقيق السقا .
(٨) الخصائص ١/٣٠٢

(و) وفى همع الهوامع :

كأنهما « مِلآن » لم يتغيَّــرا
وقد مرَّ للداريْن من بعدنا عَصْرُ[1]

وإذا كانت هذه الظاهرة وهى حذف النون قد عزيت إلى خثعم وزبيد – فإنها زحفت حتى اتسعت رقعتها فشملت مناطق من تميم، وهذيل وخزاعة، كما نلحظ الظاهرة فى لهجاتنا المعاصرة، مما يؤكد أن فى النازلين الأولين فى مصر من العرب قوماً من خثعم وزبيد :

ويقرأ ابن محيصن : « يسألونك عَلَّنفال[2] » بحذف النون عندما تلاها ساكن – وهى لهجة خثعم وزبيد كما تقدم .

يقول أبو إسحاق : يجوز حذف النون منْ [مِنْ وعن] عند الألف واللام لالتقاء الساكنين[3]، ولكن ابن عصفور ومن تبعه يَسِمُ هذه اللهجة بالضرورة[4] وذلك على الرغم من أنها وردت فى القراءات القرآنية، ولاضرورة فى القرآن، وغاب ن ابن عصفور وأضرابه أن الظاهرة قديمة سامية، ففى الصفوية : « فهلت سلم مشنا »[5] وأصلها مَن الشانى . أى : المبغض أو العدوّ فحذفت النون من حرف الجر وهو [من] ثم ركبت مع الكلمة بعدها . وكثيرًا ما يرى هذا التقصير والانتقاص

– إذا لقيت النون لام المعرفة حيث تتردد مثل هذه التعبيرات :

بلحرث، بلعنبر، بلهجيم[6]، والأصل بنو، فحذفت النون .

* * *

٣ – ذهب السيرافى فى شرحه لكتاب سيبويه أن (استحيت) فيه لغتان : إحداهما : استحييت، والأخرى استحيت فأما استحييت بياءين فهى لغة أهل الحجاز، وأما اللغة الأخرى وهى استحيت

---

(١) الهمع ٢٠٨/١
(٢) مختصر شواذ القرآن ٤٨ لابن خالويه .
(٣) الدرر اللوامع ٢٣١/٢
(٤) الهمع ٢٠٠/٢
(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٢٦٢/٧ جواد على .
(٦) الكامل للمبرد ٢١٨/٢

بياء واحدة فهي لغة بني تميم[1] واختلف العلماءُ فيما حدث فيها: فالخليل يذهب إلى أنه مبني على حيَّ معلا إعلال هاب وباع فكأنه قيل حَايَ، فكما تقول في باع استبعت، تقول في حايَ استحيت، فاستحى – على هذا في الأصل: استحاى كاستباع، فحذفت حركة الياء فالتقى ساكنان فحذفت أولاهما، ثم قلبت الياءُ الساكنة ألفا لانفتاح ما قبلها، والمازني: يذهب إلى أن استحيت – أصله استحييت فاستثقلوا اجتماع ياءين، فألقوا الأولى منهما تخفيفاً وألقوا حركتها على الحاء، وألزموها الحذف تخفيفاً[2].

وإذا نظرنا إلى الصيغة في ظل القرآن الكريم وجدنا الجمهور يقرأ «إن الله لايَسْتَحْيِي أن يضرب مثلاً ما[3]» بياءين والماضي استحيا، وتلك لغة الحجاز وقرأ ابن كَثير في رواية شبل، وابن محيصن ويعقوب: يستحى – بياء واحدة وهي لغة تميم، وعليها قول الشاعر:

* ألا تستحى منـا ملوك وتتقى *[4]

والماضي: استحى. وعزا صاحب الخزانة قراءة حذف الياء إلى يعقوب وابن محيصن[5] كما نسبها ابن خالويه إلى ابن كثير وابن محيصن[6].

وينكر ابن منظور قراءة حذف اليـاء وانتقاصها، معتمدًا على أن القرآن الكريم لم ينزل إلّا بلهجة الحجاز[7] كما أنكرها صاحب المصباح حيث يرى أن القرآن نزل بلغة الحجاز في تلك الصيغة[8]، وقد رأينا أن ابن كثير المكي، وابن محيصن المكي القرشي قرءا بما أنكره ابن منظور وغيره بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة،

---

(١) شرح السيرافي على سيبويه ٦ / ٣٠٥ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٨ نحو تيمور، وانظر مختصر شواذ القرآن ص ٤ لابن خالوية، وشرح الشافية ٣ / ١١٩ فما بعدها، والبحر المحيط ١ / ١٢٠ فما بعدها، وشرح المفصل لابن يعيش ١٠ / ١١٨

(٢) شرح المفصل ١٠ / ١١٨ والشافية ٣ / ١١٩

(٣) البقرة ٢٦

(٤) الهمع ٢ / ٢١٩، والبحر ١ / ١٢١، والنهر الماد ١ / ١١٨

(٥) الخزانة ٢ – ٢٨٠

(٦) مختصر شواذ القرآن ٤

(٧) اللسان ١٨ / ٢٣٨.

(٨) المصباح ١ / ٢٤٩

وهى لغة تميم وبكر بن وائل [1] ، ولا التفات إلى إنكار المنكرين ، لأن القراءة أساسها التلقى والرواية ، والدليل على ذلك أن كلا من القارئين قد قرأ بما خالف لهجته .

* * *

٤ ـ بعض قبائل العرب كانت تحذف ألف ضمير الغائبة فى الوقف ، وقد أثر عنهم قولهم « والكرامة ذات أكرمكم الله بهْ [2] » وقول عامر بن جوين الطائى :

فلم أر مثلهـا خبـاسة واجدٍ [3]
ونَهْنَهتُ نفسى بعدما كدتُ أفعلَهْ

وتوجيه هذا أنهم فى الوقف حذفوا ضمير المؤنثة الغائبة ، فأصل : بَهْ فى الشاهد الأول (بها) ، فحذفت الألف الأخيرة وسكنت الهاء بعد أن نقلت حركتها إلى الباء قبلها ، كذلك الأصل فى الشاهد الشعرى : أفعلها ـ أى الخصلة ، فحذفت الألف وألقيت فتحة الهاء على ما قبلها وقد عزيت الظاهرة لقبائل طيء [4] وعزيت فى الإنصاف لقبيلة لَخْم [5]

ورأى بعض النحاة أن هذا الحـذف ضرورة ، وحجته أن من حذف الواو من نحو « كأنّهْ صوت حادٍ » ومن نحو « لَهُ أرقان » لم يقل فى نحو « رأيتها » ، و « نظرت إليها » إلا بإثبات الألف ، وذلك لخفة الألف وثقل الواو ، وروى ابن جنى عن قطرب شاهداً لهذا الحذف :

أعلقتُ بالذئب حبـلا ثم قلت له
ألحقْ بأهلكَ واسلمْ أيها الذيبُ
إمّـا تقـود به شاةً فتـأكلهـا
أو أن تبيعَهَ فى بعض الأراكيب

يريد تبيعها ـ فحذف الألف وهـذا شاذ . ونفر من العلماء يرى بأن هذا الحذف والانتقاص ضرورة [6] . والقائلون بالضرورة محجوجون بأن الظاهرة وردت فى النثر كما سبق ، مما لا يمكن أن يكون ضرورة ، كما جاء عنهم « نحن جئتناك

---

(١) القراءات الشاذة ص ٢٥ عبد الفتاح القاضى
(٢) الهمع ٢ / ٢٠٦ .
(٣) الجمهرة ١ / ٢٣٤
(٤) الجمهرة ١ / ٢٣٤ ، الأشمونى ٤ / ٢٠٥ فما بعدها ، والدرر اللوامع ٢ / ٢٣٢
(٥) الأنصاف ٢ / ٣٣١ ط حجازى
(٦) الضرائر ٨٠ للألوسى

بَهْ » أى بها [1] ،ومحجوجون كذلك بقراءة قرآنية قرأ بها علىّ وعُروة فى قوله تعالى : « ونادى نوح ابْنَهُ » قرءا « ابنهَ » أى «ابنها» والمعنى : ابن امرأته [2] . ولاضرورة فى القرآن .

كما أرجح أن ما ورد فى نقش النمارة « تى نفس مر القيس بر عمر وملك العرب كله ذو أسر التّج » أن كلمة « كله » جاءت على الوقف بالحذف السابق ، وربما كانت تنطق « كلها » كما سمعت هذه الظاهرة فى بعض اللهجات العربية — المعاصرة [3] .

وأميل إلى أن الظاهرة هذه لغة وليست ضرورة . لأن قبيلة طيىء كانت تنتقص من أطراف الكلمة ماتريد ، فقد جاء عنهم « كيف الإخوهْ والأخواهْ » « وكيف البنون والبناهْ » [4] .

وعلماء النحو يقولون الأصل : البنات والأخوات ، أبدلت من التاء هاء فى الوقف. وقد جانبهم الصواب أو جانبوه ، ويرى أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس رحمه الله « أن هذه الظاهرة ليست فى الحقيقة قلب صوت إلى آخر ، بل هى حذف الآخر من الكلمة [5] ، والهاء للسكت » فما خيل للنحاة أنه هاء متطرفة مبدلة من التاء كابن يعيش والسيوطى والأشمونى وصاحب التصريح ليس بصحيح ، وإنما الصحيح أن التاء حذفت ، وهذا يتفق ومذهب طيىء فى الحيف على أواخر الصيغ ، ومعروف لدينا من ذلك : قُطْعَة طيىء ، ثم إن قبائل البدو عامة كانت تشيع فيهم تلك الظواهر يقول ابن جنى « إن عامة عقيل تقول فى الفرات : الفراة [6] » وما عقيل إلا قبيلة بدوية كطيىء ، يؤيد هذا قراءة الكسائى والبزى « هيهاهْ هيهاهْ » [7] ، وهى معزوة فى الأشمونى لطيىء [8] .

* * *

(1) وانظر أمثلة أخرى فى الإنصاف لا بن الأنبارى ٢ / ٣٣١ ط حجازى .
(2) البحر ٥ / ٢٢٦ ، المحتسب ١ / ٣٢٢ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
(3) من لهجات الجزيزة وآدابها بالسودان ٣٣٦ دكتور عبد الحميد طلب مخطوطة بجامعة القاهرة .
(4) التصريح ٢ / ٣٤٣ ، شرح المفصل ١٠ / ٤٥
(5) فى اللهجات العربية ١٢٤ ط ٢ د . أنيس (6) المحتسب ١ / ١٤٣ تيمور (خط) .
(7) المؤمنون ٣٦ ، وانظر التصريح ٢ — ٣٤٣ ، مختصر شواذ القرآن ٩٨ لا بن خالويه .
(8) الأشمونى ٤ / ٢١٤

٥ ـ وأعرض الآن عدة قضايا يأخذ بعضها بحجز بعض :

الأولى : أن الفتحة تظهر لخفتها على الياء فى المنقوص ، وقد تحذف فى ضرورة الشعر كقول رؤبة يصف إبلا :

(أ) كأن (أيديْهنّ) بالقاع القَرِقْ
أيدى جوار يتعاطين الورِقْ[(١)]

وكان حقه أن يقول : كأن «أيْدِيَهُنّ » . ولكن لما وجد الياء لينة أرسلها على لينها ولم يفتحها وهو فى ذلك كقول زهير :

ومن يعص أطراف الزجاج فإنّه
مطيع (العوالى) ركبت كل لهذم

وكان حقه أن يفتح الياء من (العوالى) لأنه مفعول به ،ولكنه أرسل الياء للينها.[(٢)]

وفى كتاب عبث الوليد[(٣)] :

(ب) إن (الغوانى) غداة البين نُطْن لنا
ما أمل الدنف المضنى بما خافا

فقد حذف الفتحة من ياء (الغوانى) وذلك جائز بلا اختلاف ، وهو عند سيبويه ضرورة ، وعند الفراء لغة .

(ج) وقول الشاعر يصف إبلا دميت أخفافها :

كأن (أيدِيْهِنّ) بالموماة
أيدى جوارٍ بتْن ناعمات[(٤)]

(د) وقول رؤبة :

سوى (مساحِيْهِنّ) تقطيطَ الحُقَقْ
تَقْليلَ ما قارعن من سُمر الطُّرَقْ[(٥)]

(هـ) وقال بعض السعديين :

* يا دار هنْد عفتْ إلاّ (أثافِيْهَا)[(٦)] *

---

(١) ديوان رؤبة ١٧٩ ، شرح أبيات سيبوية للنحاس ص ١٥ تحقيق خطاب . حلب ١٩٧٤ ، شرح السيرافى على سيبوية ٤ / ٣٦٩ مخطوط بالتيموريه ٥٢٨ نحو ، المحتسب لابن جنى ١ / ١٢٥ ط المجلس الأعلى ، همع الهوامع ١ / ٥٣

(٢) شرح أبيات سيبويه للنحاس ص ١٥-١٦

(٣) ص ١٤٥ ط الترقى ١٩٣٦ .

(٤) المحتسب ١ / ١٣٥ ط لمجلس الأعلى .

(٥) ديوان رؤبة ١٠٦ ، المحتسب / ١ / ٣٥٩ مخطوط بالتيمورية ، شرح أبيات سيبوية للنحاس ٣١٨ والرواية من كُمٍّ ، شرح السيرافى على سيبوية ٤ / ٣٦٩ بالتيمورية .

(٦) شرح أبيات سيبوية للنحاس ٣١٩ ، شرح السيرافى ٢ / ١٨١ ، الكتاب ٢/٥٥ ، المحتسب ١ / ١٢٥ ط المجلس الأعلى ، مايجوز للشاعر فى الضرورة للقزاز ص ١٠٦ تحقيق المنجى الكعبى تونس ، وانظر شواهد أخرى فى الهمع ١ /٥٣ ، الدرر اللوامع ١ /٢٩ ، شرح المفصل لا بن يعيش ١٠ /١٠٣

وكان أبو العباس يذهب إلى أن إسكان هذه الياء فى موضع النصب من أحسن الضرورات ، وذلك لأن الألف ساكنة فى الأحوال كلها ، فكذلك جعلت هذه .ويقول النحاس : وهذا كله مسكّن فى موضع النصب استخفافاً فى الشعر ؛ لأن (الياء والواو) معتلان فيخففان بالسكون [1] .

ويلاحظ أن النحاة قرنوا بعض القراءات القرآنية بتلك الشواهد الشعرية السابقة ، والتى كانت محطا للضرورات ، وضعوا الشعر بموازاة القرآن ، ونشير إلى جوانب من ذلك : قراءة طلحة بن سليمان : (أنْ يُحْيِيْ الموتَى) [2] ساكنة الياء . قال ابن جنى : معنى قول ابن مجاهد أنه قرأه على سكون الياء من : يُحيِيْ على لغة من قال :

* « يادار هنـد عفتْ إلا أثافِيْهَا » *

فأسكن الياء فى موضع النصب [3] .

فانظر معى إلى قول ابن جنى يصف القراءة السابقة بأنها جاءت محمولة على الشاهد الشعرى ، والشاهد محمول على الضرورة عند النحاة ، فكأنه يعارض القراءة من طرف خفىّ .

يؤكد هذا أن أبا العباس يقول : إسكان هذه الياء فى موضع النصب من أحسن الضرورات [4] .

فهذه معارضة صريحة للقراءة من أبى العباس ، وكيف تكون القراءة القرآنية ضرورة ، مع أن الظاهرة وردت فى النثر العربى حين قالوا : لا أكلمك حيرِى دهر. فأسكن الياء من حيرى – وهى فى موضع نصب – وهناك قراءات قرآنية تؤكد ما سبق منها :

* ثانِيْ عطْفه [5] .
* ثانِيْ اثنين [6] .
* من أوسط ما تطعمون أهالِيْكم [7] . باسكان الياء .
* نعْمَتِىْ التى أنعمت عليكم [8] .

---

(١) شرح أبيات سيبويه للنحاس ١٣٩ .

(٢) القيامة ٥٠ .

(٣) المحتسب ٢ / ٤١١ بالتيمورية .

(٤) المحتسب ٢ / ٤١١ بالتيمورية .

(٥) الحج : ٩

(٦) التوبة ٤٠

(٧) الهمع ١ / ٥٣

(٨) البقرة ٤٠

وجميع ماسبق من القراءات تقف سدًّا منيعاً في وجه النحاة ، فالقرآن موضع اختيار لا اضطرار .

الثانية : المضارع الذى آخره واو أوياء نقدر الضمة عليه لثقلها ،ولخفة الفتحة عليها ظهرت ، وخلاف ذلك ضرورة [1]

وفى نظر النحاة تعتبر الشواهد الآتية من الضرورات :

١ ـ قول الأخطل :

إذا شئت أن تلهو ببعض حديثها [2] .

٢ ـ وقول عامر بن الطفيل :

فما سوّدتنى عامر عن وراثة
أبى الله أن أسموْ بأمٍّ ولا أب [3]

٣ ـ وقول حندج ابن حندج المرى :

ما أقدر اللهَ أن (يُدْنِيْ) على شَحَط
مَنْ داره الْحَزْنُ ممن دَارُهُ صُولُ [4] *

وحكم الشنقيطى على هذا الشاهد ، [5] وأضرابه بالضرورة .

٤ ـ وقول جرير :

هو الخليفة فارضوْا ما (رضِيْ) لكم
ماضى العزيمة مافى حكمه جَنَفُ [6]

لكن النحاة حملوا قراءات قرآنية على هذا الشعر السابق ، والذى كان محلًّا للضرورات الشعرية ، وقد حاولتُ أن أجمع قدرًا صالحاً من ذلك :

* « أو يعفوْ الذى بيده [7] » . ساكنة الواو ، وهى قراءة الحسن .

* « أن يأْتىْ يوم [8] » بإسكان الياء ، حكاه أبو زيد عن الكلابيين [9] .

* « وذروا ما بقِيْ من الرّبا [10] » بكسر القاف ، ساكنة الياء ، وهى قراءة أبيّ [11]

---

(١) الهمع ١ / ٥٣

(٢) ديوان الأخطل ٩١ والخصائص ٢ / ٣٤٢ ، والهمع ١ – ٥٣

(٣) الخصائص ٢ / ٣٤٢ والمحتسب ١ / ٢٥ ط المجلس الأعلى والأشمونى ١ / ١٠١

(٤) الأشمونى ١ / ١٠١ صول : اسم مدينة فى بلاد الخزر / الأمالى ط /١ / ١٣١ ط / الهيئة العامة للكتاب

(٥) المحتسب ١ /١٤١ ط المجلس الأعلى

(٦) الدرر اللوامع ٢ / ٢٢٤ .

(٧) مختصر شواذ القرآن ص ١٥ الهمع ١ / ٥٣ والمحتسب ١ / ١٣٧ مطبوع بالمجلس الأعلى .

(٨) البقرة ٢٥٤ .

(٩) مختصر شواذ القرآن لا بن خالدويه ١٦ .

(١٠) البقرة ٢٧٨ .

(١١) مختصر شواذ القرآن ١٧ .

وينسب أبو حيان فى البحر المحيط[1] ، هذه القراءة إلى الحسن ، ومن العجيب أن ابن جنى[2] يقول عن هذه القراءة « ومجازها مجاز بيت نهشل بن حرى :

فلما تبيَّنْ غبّ أمـرى وأمـره
ولَّت بإعجاز الأمـور صدورُ

فهو يحمل القراءة على الضرورة ؛ لأن الشاهد به ضرورة .

* « فاستمسك بالذى أُوحِىْ إليك[3] » بإسكان الياء عن بعض أهل الشام[4]

الثالثة : وقد حذفت حركة البنـاء فى الضمير : هو ، هى ، وعُدّ هذا الحذف ضرورة ،ورد فى ضرائر الألوسى[5] : إن حذف المتحرك من : هُوَ ، هِيَ - محمول على الضرورة عند غير بنى أسد ، وأنشد أبو الهيثم :

وكنّـا إذا ما كان يـومُ كريهةٍ
فقد علموا أنى وَهْوَ فتيانِ[6]

وقد أنكر الزجاج سكون الواو والياء فى : هو ، وهى ، محتجاً بأن كل مضمر حركته إذا انفرد : الفتح نحو : أنا - فكما لايستقيم سكون هذه النون ، كذلك لاتسكن هذه الواو ، وردّ عليه أبو على بسكون النون فى : أنت - لأن التاء حرف خطاب[7] .

والحق أنه يجوز حذف الحركة من الواو والياء للروايات الكثيرة فى :

(ا) الشعر كما سبق ، ومن ذلك قول الشاعر :

وركضك لولا هوْ لقيتَ الذى لقـوْا
فأصبحتَ قد جاورتَ قوماً أعادياً[8]

(ب) النثر مثل قولهم : هِىْ قالتـه ، وهُوْ قاله[9] . وهِىْ فعلتْ بإسكان الياء[10] .

(جـ) كما أن هذه الظاهرة عزيت لغة لقبيلة قيس[11] .

---

(١) ٢ / ٣٣٧ . (٢) الخصائص ١ / ٧٤ . (٣) الزخرف ٤٣ .
(٤) مختصر شواذ القرآن ١٣٧ . (٥) ص ١٧٨ (٦) أنظر اللسان ٢٠ / ٢٦٨
(٧) الدرر اللوامع ١ - ٣٧
(٨) الهمع ١ / ١٦ سطر ٦ ، وانظر الدرر ١ / ٣٧ . (٩) اللسان ٢٠ / ٣٦٨ .
(١٠) الجاسوس ٤٧ ، وانظر : ما يجوز للشاعر فى الضرورة ١١٧ للقزاز . ط تونس.
(١١) الدرر اللوامع ١ / ٣٧

كما حكيت لغة لأسد وقيس[1]. فالظاهرة قد تكون لغة، كما حكيت عن تلك القبائل في الشعر والنثر، وقد تكون ضرورة عند غير هذه القبائل، وأما الإنكار كما ورد عن الزجاج وأضرابه من النحاة، أو القول بالضرورة لاغير كما سبق – فلا معنى له، لاسيما إذا عرفنا أن حذف الحركة فى المبنى ورد فى قراءات قرآنية نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: « وذرُوا ما بَقِيْ من الرّبا[2] » بكسر القاف وسكون الياء، وهى قراءة أبيّ والحسن. فلو حملنا الظاهرة على الضرورة وحدها كما ورد عند كثير من النحاة، كان علينا أن نحمل القراءة القرآنية السابقة على الضرورة، والقرآن محط اختيار لا اضطرار

وقد يكون من المفيد أن ننظر من الجانب التاريخى لهذين الضميرين: هوْ، هىْ، فقد مرّا بأطوار منها: أن الأصل (هوْ) hūá و (هىْ) hiá، إذ أنهما فى العبرية والآرمية القديمة הוא بألف فى الآخر، وهى تشير إلى الهمزة[3].

وقد حذفت الهمزة فى العربية وأبدلت واوًا فى المذكر وياءً فى المؤنث فصارت هُوَ، هِيَ فى العربية الفصحى، و (هُوْ) (هِيْ) فى العبرية والسريانية، فحذف الحركة كما ترى من هذا العرض فى تلك الضمائر كان فى أخوات العربية والسامية الأُخرى، ولهذا لم أسرْ سيْر النحاة العرب حينما رأوا تحويل فتحة الواو والياء إلى سكون، ضرورة؛ لأن هذه العملية لها جذور فى الساميات: العبرية والسريانية وغيرهما، وبقيت منها أمثلة يسيرة فى العربية: رميتْ بالضرورة من جانب – النحاة العرب، ولكن القراءات القرآنية –وإن كانت شاذة– فقد حذفت الحركة وحل محلها السكون، وبذلك تكون قد احتفظت بالجذور القديمة فى الساميات؛ وقد جمعت قدرًا يؤكد ما أذهب إليه.

* « حتى يلج الجمْل » بسكون الميم، وقد أنكر ذلك النحاة: منهم سيبويه والسيرافى وابن جنى وغيرهم.

(١) الجاسوس ٤٧.

(٢) مختصر شواذ القرآن ١١٧.

(٣) التطور النحوى ٥٢ برجشتراسر، وانظر مجلة كلية الآدب. جامعة القاهرة مجلد ١٠ جزء ١ ص ٣٨.

* « ويدعوننا رغْبا ورهْبا » بالإسكان .

* « ومن يقتل مؤمناً متْعمدًا » ساكنة التاء . وقد حكم النحاة على تلك القراءة بأنها غاية فى الشذوذ والوهن [1] .

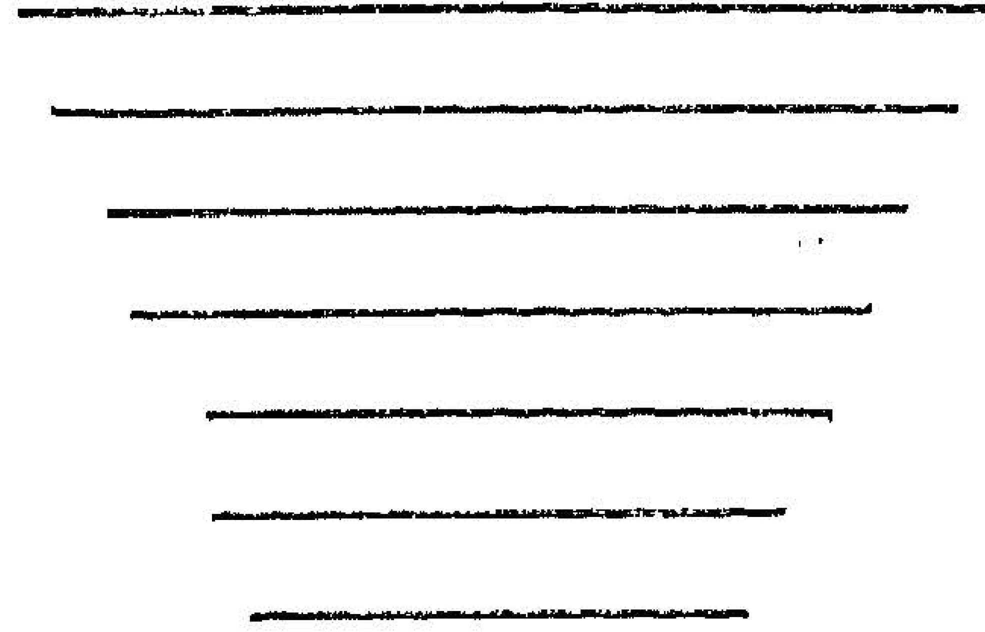
* « وذروا ما بقىْ من الربا » بكسر القاف وسكون الياء وهى قراءة أُبَىّ .

والحق أن أبا على قد فطن لشىء من هذا فى جملة ساقها الشنقيطى ، يقول أبو على « والوجهان (ويقصد جواز الفتح والسكون فى الضميرين : هو ، هى) – متكافئان فى العمل إلا أن الفتح هو المشهور نقلا [2] » .

فهذا اعتراف من واحد من النحاة ، ثم إننا نرى الفتح والسكون يتقاودان ويجريان مجرى واحدًا كما رأينا [3] ، بل كان ذلك فى العربية شرعة ومنهاجاً .

(للبحث بقية)

أحمد علم الدين الجندى



(١) أنظر مقالنا : دراسة فى حركية عين الكلمة الثلاثية فى العربية ؛ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة مجلد ٢٩

(٢) الدرر اللوامع ١ / ٣٧ .

(٣) أنظر أمثلة فى : المحتسب لا بن جنى ١ / ٥٤ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلا مية بتحقيق الأستاذ على النجدى والدكتور . عبد الفتاح شلبى – القاهرة .

مادة فى القاموس سقطت من شرحها تاج العروس

للأستاذ مصطفى حجازى



ما يعرض للمحقق أثناء عمله فى كتابٍ ما، أن يجد سقطاً فى سياق الكلام، فيلجأ إلى النسخ المختلفة باحثاً عن هذا السقط ليعيده إلى موضعه، حتى يصح السياق، ويستقيم التعبير. فإذا لم تكن ثمة نسخ غير تلك التى اعتمدها أصلا فى عمله – والتى بها ذلك السقط – ذهب يبحث عن مصادر المؤلف التى أخذ عنها فى هذا الموضع، ويهون عليه الخطب إذا كان المؤلف قد أشار إلى مصدره الذى نقل عنه، أما إذا لم يشر إليه فقد أحوج المحقق إلى الاجتهاد فى البحث عنه فى مظانه المختلفة، حتى يجد النص كاملا فى واحد منها، وربما احتاج الأمر أيضا إلى مراجعة كتب من ألفوا فى هذا الفن من بعده، فقد يكون من بينهم من نقل عن المؤلف فى ذلك الموضع.

فإذا لم تغن هذه المحاولات شيئا، فحسبه أن ينبه إلى هذا السقط، لعل من بين القراء من يهتدى إليه فيهدى إلى إصلاحه، ليتدارك فى طبعه لاحقة، وهذا شىء مألوف للعاملين فى ميدان تحقيق التراث، وكثيراً ما ينبه مصححو الكتب القديمة فى حواشى طبعاتها على مثل هذا بعبارات مألوفة، كقولهم: «كذا بالاصل وحرّر» أو «كذا فى النسخة التى بأيدينا، ولعل هنا سقطا، وحرر».

وقد صادفنى من ذلك شىء غير قليل أثناء عملى فى تحقيق أجزاء من شرح

القاموس المحيط المسمى (تاج العروس)[1] للزبيدى ، ولم يكن هذا السقط فى غالب الأمر يزيد على الجملة أو الجملتين ، وقليلا ما بلغ السطر والسطرين ، وقد هدى الله إلى إصلاح ما صادفنى من ذلك فيما حققته من أجزائه ، وفيما راجعته من تحقيق غيرى ، ولعل مرد ذلك إلى أننى صحبت هذا الكتاب صحبة طويلة أكسبتنى معرفة بمصادره المختلفة التى نقل عنها ، وصرت أرد نقوله إلى مواضعها من هذه المصادر — حتى ولو لم يشر إليها —

وكنت — فى مطلع هذا العام — أعمل فى تحقيق الجزء الخامس والعشرين منه (بتجزئة الطبعة الجديدة المحققة) ويشتمل هذا الجزء على المواد من أول (برق) إلى أول (صدق) — فصادفت من هذا السقط ما هو خارج عن المألوف الذى يمكن إصلاحه بالتماسه فى مظانّه ، أو سد خلله بالقليل من العبارات أو الأسطر التى تسقط أحياناً من ثنايا ما ينقله المصنف ، فنلتمسها فى بعض مصادره ، ونعيدها إلى مكانها من الكلام ، فيستقيم النص ، ويطرد السياق .

أقول : لم يكن ما صادفته فى هذه المرة من ذلك النوع المألوف ، بل كان مقداراً كبيراً يشمل شرح مادة كثيرة المعانى ، واسعة التصرف ، وجد رأسها ، وضاع سائرها ، وعلينا أن نبحث عن هذا الضائع لنعيده إلى مكانه من الرأس حتى تكتمل المادة ، وتستوى فى صورتها الصحيحة ، فتصبح مثل غيرها

---

(١) تاج العرس من جواهر القاموس ، صنفه محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الحسينى الواسطى الزبيدى ، نزيل مصر (المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ) وقد قضى فى تأليفه أربع عشرة سنة ، وفرغ منه فى ثانى شهر رجب سنة ١١٨٨ هـ وجمع فى ثناياه كثيراً من أمهات كتب اللغة والبلدان والتراجم ، فأغنى به عن الرجوع إليها . وجاء كما قالوا : « كل الصيد فى جوف الفرا » وقد طبع لأول مرة فى المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ — ١٣٠٧ هـ فى عشرة مجلدات كبار .

ومنذ أكثر من عشر سنوات كانت تلك الطبعة تعد نافدة حتى أصبح العثور على نسخة منها تكليفاً بما لا يكاد يطاق ، وعند ذلك نشطت إحدى دور النشر فى بيروت . — بحاسة التاجر الذى يعرف كيف يشيم بروق الربح — فأعادت نشر هذه الطبعة بطريقة التصوير (الأوفست) فكان صنيعها ذاك — كصنيعها فى غيره من الطبعات القديمة لكتب كثيرة — ميسرا للحصول على نسخ تلك الطبعة النافدة ، ومحققا لأرباح مؤكدة دون أية فائدة علمية .

وفى سنة ١٩٦٢ م . أقترح الأستاذ المحقق عبد الستار أحمد فراج — المراقب العام لمجمع اللغة العربية حينذاك — على وزارة الإعلام فى دولة الكويت أن تعنى بتحقيق هذا الكتاب القيم ونشره ، فاستجابت لذلك ، وعهدت اليه أن يختار المحققين ، وأن يرسم المنهج لتحقيقه ، فنهض بذلك مشاركا بتحقيق بعض الأجزاء ، ثم تفرغ للإشراف عليه تحقيقا ومراجعة ، حتى أتمه بعون الله ، ولا يزال يتابع ما تخرجه المطبعة من أجزائه التى صدر منها حتى الآن سبعة عشر جزءاً ، ويظهر سائرها تباعا — إن شاء الله —

من مواد الكتاب ، وهذه المادة هى مادة (رفق) فقد قدر لنا أن يختفى شرحها من الطبعة الأولى لتاج العروس ، واذا رجعت إلى هذه المادة فى تلك الطبعة وجدت الزبيدى – رحمه الله – يبدأ فى شرح المادة مميزاً عبارة القاموس بين قوسيها ، ومنضِّداً شرحه خارج تلك الأقواس – جرياً على عادته – ولكن سياقه ينقطع بعد سطر واحد من بداية الشرح ليورد من المادة ما اعتاد إيراده فى المستدرك مما فات صاحب القاموس .

وقد لفت ذلك نظر الذين أشرفوا على تصحيح تلك الطبعة ، فنبهوا إليه فى هامشه بقولهم : (لم يوجد فى نسخة الشارح التى بأيدينا هنا زيادة عما شرحه ، وأضفنا بقية المتن « يعنى نص القاموس المحيط » بعد كلام الشارح ، أولعل شرح باقى المادة سقط من الناسخ وليحرر)أهـ

والمطالب بالتحرير هنا قبل غيره هو من يتصدّى لإخراج طبعة جديدة محققة لهذا الكتاب ، تسلم من عيوب الطبعة القديمة ، وتخلو من أخطائها الكثيرة ، فكان علينا أن نستجيب لهذا الأمر ، ونحرر الكلام فى هذا الموضع .

ورجعت إلى عمدة الزبيدى فى شرحه وهو لسان العرب – لابن منظور – والى أصوله المعروفة (الصحاح للجوهرى ، وتهذيب اللغة للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والنهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، وحواشى ابن برى) وإلى مصادر الزبيدى الأخرى ، وأخصها التكملة ، والذيل ، والصلة ، والعباب الزاخر – وهما للصاغانى – والأساس للزمخشرى ، وجمهرة اللغة لابن دريد ، فوجدت المادة مشروحة فى هذه الاصول شرحا وافيا ، ورأيت أيضا أن أرجع – فى بعض مفردات هذه المادة كما جاءت فى القاموس – إلى ما اعتاد الزبيدى أن يرجع إليه فى أمثالها من الكتب الأخرى ، مثل : معجم البلدان لياقوت ، ومفردات القرآن للراغب الأصفهانى ، وبصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ، وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر ، وغيره من كتب الرجال ، فوجدت هذه المفردات – وغيرها من فروع المادة – واردة فى مواضعها من هذه الكتب ، فرجحت أن يكون هذا القدر الناقص من شرحها قد سقط من الناسخ ، أو لعله فُقِد

من النسخة الأصل، وأن شرح المادة لن يستقيم إلا بالرجوع إلى نسخة أخرى نلتمس فيها هذا السقط، والأمانة العلمية تقتضينا أن نبحث عن تلك النسخة الأخرى، وأن نرجع إليها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

البحث عن مخطوطة لتاج العروس :

استوقفتني غير مرة – وأنا أعمل فى تحقيق أجزاء من تاج العروس – عبارات نقلها الزبيدى عن بعض مصادره التي لم تتح لنا حتى الآن، وكنت كلما عرض لى شيء من ذلك أتمنى أن أجد نسخة مخطوطة من تاج العروس أرجع اليها فى تحرير هذه العبارات، ولذلك كنت شديد العناية بالبحث عن المخطوطات اللغوية فى فهارس المكتبات المختلفة، ولا أذكر أننى صادفت فيما اطلعت عليه من هذه الفهارس – وهو غير قليل – نسخا لتاج العروس، وكدت أذهب إلى القول بأن هذا الكتاب لا توجد له نسخة خطية غير تلك التي اعتُمِدَ عليها فى طبعته الأولى، واجتمعت لدى قرائن يقوى بها مثل هذا الظن، منها :

١ – أن المطبعة العربية ظهرت فى مصر بعد وفاة الزبيدى بزمن قصير [1] فلم يحوج تراخى الزمن بين ظهور المطبعة وتصنيف الكتاب إلى تداوله مخطوطا حتى تكثر نسخه – كغيره من كتب قدامى المؤلفين – وحين ظهرت المطبعة قوى الأمل لدى المعنيين بهذا الكتاب فى قرب طبعه، فانصرفت الهمم عن استنساخه، هو وأمثاله من الكتب ذات الأجزاء الكثيرة.

٢ – أن فهارس المخطوطات فى مكتبات القاهرة لم تشر إلى وجود نسخ من التاج، وإذا لم توجد نسخة أخرى فى القاهرة – حيث عاش مؤلفه حياته العلمية، وصنّف كتابه

(١) كانت وفاة الزبيدى سنة ١٢٠٥ هـ، وتاريخ طباعة أول كتاب صدر عن المطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٢٣٨ هـ وكانت معظم المطابع حتى سنة ١٢٥٥ هـ حجرية، وقد جرى الاتفاق سنة ١٢٦٢ هـ على طبع القاموس المحيط بتصحيح الشيخ التونسى (محمد بن عمر : ت ١٢٧٤ هـ) انظر تاريخ الطباعة للدكتور خليل صابات ص ١٤٦ وما بعدها، ١٧٨ (ط دار المعارف ١٩٦٦ م).

وفى تقديرنا أن المطبعة كانت عنايتها فى بداية عهدها موجهة إلى الكتب العلمية المترجمة، والمصطلحات المعربة، ونحو ذلك مما تحتاج إليه النهضة الناشئة حينذاك، ولم يحظ التراث الادبى واللغوى بالاهتمام إلا فى مرحلة متأخرة شيئا ما.

فيها – فإن الظن يستبعد وجود مثل هذه النسخة فى بلد آخر غير القاهرة .

٣ – أن الذين أشرفوا على طبعة التاج الأولى (سنة ١٢٨٣هـ وما بعدها) كانوا يعدون العثور على نسخة منه يومذاك من قبيل المستحيل ، فهذا محمد باشا عارف يقول – وهو يتحدث عن القاموس المحيط – « . . . ومع تعدد شروحه وحواشيه بالخط لم يطبع منها شىء إلى الآن [سنة ١٢٨٣ هـ] فنحمد الله إذ بتوفيقه جمعية المعارف سهل هذا المقصود ، وظهر هذا الشرح [يعنى تاج العروس] إلى الوجود ، فإن الحصول عليه كان من قبيل المستحيل ؛ لأن استكتابه – مع كثرة ما يقع فيه من غلطات النساخ – يحتاج إلى مبلغ وافر وزمن طويل . . . »

وقد بدا لى – بعد قراءة هذه العبارة – أن محاولة البحث اليوم عن مخطوطة لتاج العروس تعد عبثا ، فهؤلاء الذين أشرفوا على طبعته الأولى منذ أكثر من مائة سنة كانوا يعدون العثور على مثل تلك النسخة – حينذاك – من قبيل المستحيل ، فما بالنا نبحث عنها اليوم ؟

ولكن هل تكفى كل هذه القرائن ليقطع المرء بأنه لا توجد نسخة أخرى من تاج العروس غير تلك التى كانت أصلا لطبعته الأولى ؟

إن الدقة العلمية تأبى علينا مثل ذلك على الرغم من كل هذه القرائن ، ونظل مطالبين بمواصلة البحث فى تتبع واستقصاء ، واتقاء أهمنى ذلك ، فرحت أطلب المزيد من فهارس المخطوطات باحثا فيها ومنقبا .

العثور على نسخة من « تاج العروس »

حين ندبت للعمل فى مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى – بجامعة

---

(١) فى عجائب الآثار (٢/١٩٦ – ٢١٠) يذكر الجبرتى أن الزبيدى : « حين أتم شرحه على قاموس المحيط أولم وليمة حافلة بمنزلة فى عطفة الغسال جمع فيها طلاب العلم ، وأشياخ الوقت وذلك فى سنة ١١٨٨ هـ وأطلعهم عليه ، فأغتبطوا به ، وشهدوا بفضله ، وسعة اطلاعه ، ورسوخه فى علم اللغة ، وكتبوا عليه تقاريظهم نظما ونثرا » وأنظر أيضا : الخطط التوفيقية ٣/ ٩٣ و ٩٤ .

(٢) محمد باشا عارف كان وكيلا لجمعية المعارف ، وهى التى عنيت بطبع تاج العروس طبعته الأولى . فى المطبعة الوهبية ١٢٨٥ – ١٢٨٧ هـ

(٣) أنظر تاج العروس (الجزء الاول ، القسم الثالث ص ١٨٣ ط الوهبية) حاشية فى نهاية باب الثاء ، وهو آخر هذا القسم .

الملك عبد العزيز فى مكة المكرمة ـ كان من جملة عملى أن أختار من المخطوطات المحفوظة فى المكتبات المختلفة ، فى البلاد العربية وغيرها ، طائفة من الكتب القيمة التى ينبغى أن يقتنيها المركز لتكون بين المراجع التى يحتاج إليها الباحثون ، وطلاب الدراسات العليا ، ولينشر المركز من بين هذا المقتنى مايراه جديرا بالتحقيق والنشر من تراثنا المجيد ، فأتاح ذلك لى فرصة المعاودة البحث عن نسخة من « تاج العروس » فقد زادت صلتى بفهارس المخطوطات . واجتمع لدى منها مالم أطلع عليه من قبل ، وأصبح البحث فيها استقراءً وتتبّعا فاحصا ، وبقى العثور على تلك النسخة أمنيه تترجح بى بين اليأس والرجاء طيلة عملى فى اختيار المخطوطات :

ولاحت لى بارقة أمل حين وجدت قطعة من تاج العروس أشار إليها الاستاذ عبد الحفيظ منصور بين مخطوطات المكتبة الأحمدية بتونس[1] ، غير أنه وصفها وصفا موجزا ، فذكر أنها بخط مشرق ، وعدد أوراقها ٤٩٢ ورقة من القطع الكبير (٣٠ × ٢١ سم) ومسطرتها ٣٩ سطرا ، ورقمها فى المكتبة الأحمدية هو (٣٩٣٥ لغة) ولم يشر إلى ما اشتملت عليه هذه القطعة من المواد ؛لنعرف أى الاجزاء هى،ولم يذكر تاريخ نسخها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالرجوع إليها، والاطلاع عليها .

ثم كانت فرحتى الكبرى حين وجدت نسخة من «تاج العروس» أشار إليها الاستاذ عمر رضا كحالة[2] بين مخطوطات « مكتبه عارف حكمت » بالمدينة المنورة ، ووصفها بعبارة موجزة جاء فيها « أنها فى تسع مجلدات لأبى الفيض محمد بن محمد بن محمد الحسينى الزبيدى الملقب بمرتضى ١١٤٥ — ١٢٠٥هـ وتاريخ نسخها ١٢٦٧ ـ ١٢٧٣[3] وأنها محفوظه تحت رقم (٦٧ ـ ٧٥ لغة) ومثل هذا الوصف لايجدى شيئا أكثر من الدلالة على وجود نسخة من الكتاب ،ولابد لنا من الاطلاع عليها ، ومقابلة مادة (رف ق) فيها بما جاء فى مطبوع التاج

---

(١) فهرس مخطوطات المكتبة الاحمدية بتونس — قسم اللغة — (ط دار الفتح ببيروت سنة ١٩٦٩)

(٢) المنتخب من مخطوطات المدينة المنورة ص ٥٠ (ط مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٣)

(٣) فى المنتخب من مخطوطات المدينة « ١٢٧٢ هـ » والتصحيح من نهاية المجلد التاسع فى مخطوط التاج

لمعرفة مقدار السقط ، وإثباته فى موضعه من المادة .

وصف نسخة التاج المحفوظة بمكتبة عارف حكمت

زرت مكتبة الشيخ عارف حكمت بالمدينة المنورة ، واطلعت على النسخة فوجدتها فى تسعة مجلدات ضخمة ، وهى مكتوبة بخط فارسى جيد، اختلفت عليه أقلام النساخ ، وتتراوح مسطرتها بين ٢٧ ، ٢٥ سطرا ، ومتوسط الكلمات فى كل سطر ١٣ كلمة ، وورقها من من القطع الكبير (٢٣×٢٢ سم) وصفحاتها غير مرقمة ، وقد أعتمد ناسخها فى ضبط تتابع أوراقها على التعقيبة وترتيب المواد ، وميزت فيها رؤوس المواد فكتبت بالحمرة ، وكذلك عبارة القاموس – فى بعض الاجزاء ، وفى بعضها الآخر اكتفى الناسخ بوضع خط بالمداد الأحمر فوقها – والضبط بالشكل فيها نادر جدا ، وتجد فى كثير من صفحاتها خاتما نقشه (وقف حكمة الله بن عصمة الله الحسينى) وفى نهايات الأجزاء خاتم كبير نقشه : (مما وقفه الفقير إلى ربه الغنى أحمد عارف حكمة الله بن عصمة الله الحسينى فى مكتبة الرسول الكريم ، عليه وعلى آله الصلاة والتسليم بشرط ألاّ يخرج من خزانتة ، والمؤمن محمول على أمانته سنة ١٢٦٦) والنسخة ناقصة من آخرها فقد انتهى المجلد التاسع بنهاية باب اللام ، وآخره مادة (يليل) ويبدو أن الناسخ قد وقف عند هذا الحد ، وتاريخ نسخه سنة ١١٧٣هـ – وربما كان الذى حال دون تكملته مرض الشيخ عارف حكمت ، ثم وفاته بعد ذلك فى سنة ١٢٧٥ هـ . ونجمل فيما يلى بيان أجزائها التسعة :

الجزء الأول : وعدد صفحاته ١٥٣٠ ويشمل أبواب : الهمزة والباء والتاء والثاء وينتهى بمادة (يافث)

الجزء الثانى : ويقع فى ١٤١٤ صفحة ، واشتمل على أبواب : الجيم ، والحاء ، والخاء ، والدال ، والذال .

الجزء الثالث : وقد خلص لباب الراء وحده ، وجاء فى ١٤٨٠ صفحة ، وفيه أختلف القلم ، وميزت عبارة القاموس فكتبت بالمداد الأحمر

الجزء الرابع : وأشتمل على أبواب : الزاى ، والسين ، والشين ، وعدد صفحاته ١٠١٠ صفحة .

الجزء الخامس : وعدد صفحاته ١٠٥٢ صفحة ، وشمل أبواب : الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء وآخره مادة (يقظ) وتاريخ نسخه جمادى الاولى سنة ١٢٦٨ هـ وناسخه « ذو الفقار فرغانى »

الجزء السادس : واشتمل على بابى : العين والغين ، وآخره مادة « يرغ » .

الجزء السابع : وفيه مواد بابى الفاء والقاف ، وينتهى بمادة « ينق » وعدد صفحاته ١٢٢٨ صفحة ، وتاريخ نسخه شهر رجب من سنة ١٢٦٩ هـ ، وناسخه الحاج محمد بارسا خواجه الحسينى الحنفى النقشبندى البخارى .

الجزء الثامن : واشتمل على باب الكاف وقسم من باب اللام من أوله إلى آخر فصل الضاد ، وعدد صفحاته ٦٦٠ صفحة .

الجزء التاسع : وشمل بقية اللام ، من أول فصل الطاء إلى آخر الباب ، وعدد صفحاته ٥١٦ صفحة .

وفى نهايته كتب ناسخه بالفارسية : « اتمام شد اين كتاب بفرمايش حضرت ولينعمتى أم – سلمه الله تعالى فى الدارين دردهم جمادى الاولى سنة هزار وصد هفت غوسه » بيد أحقر العباد ، ملا اسماعيل ، غفر الله ذنوبه وستر عيوبه »

وترجمته : تم هذا الكتاب بأمر حضرة ولى نعمتى (يعنى الشيخ عارف حكمت) سلمه الله تعالى فى الدارين فى ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٧٣ هـ .

توثيق مادة (رفق) :

وطابقت مادة « رف ق » فى ترتيبها من الجزء السابع فى مخطوط التاج ، ورحت أقابلها بما فى المطبوع ، فوجدتها فى نسقها من فصل الراء فى باب القاف ، وقد بدأ المصنف شرحها من السطر الثانى عشر فى الصفحة التى بها رأس المادة – وقد ميزه الناسخ

(١) تاج العروس ج ٦ ص ٣٥٨ (ط الخيرية ١٣٠٦ – ١٣٠٧ هـ)

فكتبه بالحمرة – ثم يتلو ذلك ثلاث صفحات كاملة ، فى كل صفحة خمسة وعشرون سطرا ، وتنتهى المادة فى منتصف الصفحة الرابعة ، فكانت عدة سطورها (١٠٢) اثنين ومائة سطر ، ليس فى مطبوع التاج منها غير خمسة أسطر .

ورحت أعرض المادة – كما وجدتها فى مخطوطة التاج – على مراجع الزبيدى التى اعتمدت الرجوع إليها فى توثيق نقوله فى الأجزاء الأخرى ، فبدا لى اسلوبه واضحا فى هذه المادة كما عهدته فى غيرها ، وتأكد لى أن شرح هذه المادة قد سقط من الطبعة الأولى ، ورجحت أن يكون هذا السقط مقدار ورقة كاملة فقدت من النسخة التى اتخذت أصلا لتلك الطبعة ، ولم يجد الذين أشرفوا عليها بدًّا من تكملة المادة بعبارة القاموس وحدها ، منبهين فى الحاشية إلى هذا السقط ، مطالبين بتحريره ، وقدّر لنا أن نقف عليه ، وأن نعيده إلى موضعه من المادة .

ونورد فيما يلى المادة بحالتيها – كما جاءت فى مطبوع التاج ؛ وكما وجدناها فى مخطوطة مكتبة عارف حكمت – :

أولا : مادة (ر ف ق) فى مطبوع التاج (١) :

(الرِّفْقُ ، بالكسر : مااستُعِينَ به)

وقال العَضُد : الرِّفْقُ : حُسْنُ الانْقِياد لما يُؤَدِّى إلى الجَمِيل .

والرِّفاقُ ، ككِتابٍ : مصدرُ رافَقَه فى السَّفَرِ ، وأيضًا بمعنَى النِّقاق ، وبه فُسِّر حديثُ طَهْفَةَ : « ما لم تُضْمِروا الرِّفاقَ »

ومَرْفَقٌ ، كمَقْعَدٍ : اسمُ رَجُل من بنى بَكْر بنِ وائِلٍ ، قَتَلَتْهُ بنو فَقْعَس ، قال المَرّارُ الفَقْعَسِىّ :

وغادَرَ مَرْفَقًا والخَيْلُ تَرْدِى
بَسْيِل العِرْضِ مُسْتَلَبًا صَرِيعَا

واسْتَرْفَقَه : اسْتَنْفَعه .

وارْتَفَقَ به : انْتَفَع .

والرّافِقَةُ : قريةٌ بمصرمن أعْمال الشَّرْقِيّة (٢)

---

(١) تاج العروس ج ٦ ص ٣٥٨ (ط الخيرية ١٣٠٦ – ١٣٠٧ هـ)

(٢) فى هامش المطبوع : «لم يوجد فى نسخة الشارح التى بأيدينا هنا زيادة عما شرحه ، فأضفنا بقية المتن المطبوع بعد كلام، الشارح أو لعل شرح باقى المادة سقط من الناسخ ، وليحرر) اهـ .

(واللُّطفُ[1] ، رَفق به وعَلَيْه ، مُثلَّثَةً ، رِفقًا ومرفقاً ، كَمْجلس ، ومقْعَد ، ومِنْبَر ، والمرفَقُ كمِنْبَر ومَجْلس : مَوْصلُ الذّراع فِي العَضُد . ومَرافِقُ الدّارِ : مَصابُّ الماءِ ونحوها . وكمِكْنَسَة : المِخَدّة . والرِّفْقَةُ مُثَلَّثَة ، وكثُمامَة ، جماعةٌ تُرافِقُهُم ، ج : ككتابٍ ، وأَصْحابٍ ، وصُرَد . والرّفِيقُ : المرافِق ، ج : رُفَقَاء ، فاذا تَفَرَّقُوا ذَهَب اسمُ الرُّفْقَة لا اسمُ الرّفيق ، للواحدِ والجميع . والمَصْدرُ الرَّفاقَةُ ، كالسَّماحة .

والرُّفقَة : اسمٌ للجَمْع ، ج : كعِنَب ، وصُرَد ، وجِبال ، والرَّفيقُ ضِدُّ الأَخْرَقِ . ورَفَقَ فلانا : نفعه كأَرفقه ، وضَرَبَ مِرْفقَه . والنّاقَةَ : شَدَّ عَضُدَها إذا خِيفَ أَنْ تَنْزِعَ إلى وطَنِها ، وذلِكَ الحبْلُ رِفاقٌ ، ككِتابٍ ، وبَعِيرٌ مَرْفُوقٌ : يَشْتَكِي مِرْفَقَه ، وأَرْفَقُ بيِّنُ الرَّفَقِ ، مُحَرَّكَةً : مُنْفتِلُ المِرْفَقِ عن جَنْبِه ، وناقة رَفْقاءُ ورَفِقَةٌ كفرِحَة : مُنْسَدٌّ إحليلُ خِلْفِها ، وبها رَفَقٌ مُحَرَّكَةً ، أو الرَّفَق : فسادٌ في الإِحْلِيل من سُوءِ حَلْبِ الحالِبِ ، أَو تَرْكِ نَفْضِه إِيّاه ، فَيَرْتَدُّ اللَّبنُ في الضَّرَّةِ ، فيَعود دَمًا أَوخرطًا ، والمِرْفاقُ من الجمال : مايُصِيبُ مِرفَقُه جَنْبَهُ . ومن النُّوق : ماإذا صُرَّت أَوْجَعَها الصِّرارُ ، وإذا حُلبت خَرَج منها دَمٌ . وماءٌ رَفَقٌ مُحَرَّكَةً : سَهْلٌ ، أو قَصِيرُ الرِّشاءِ ، وحاجَةٌ رفقُ البِغْيَةِ : سَهْلَةٌ . ورُفَيقٌ كزُبَيرٍ : ابنُ عُبَيْد ، وأَبُو رُفَيْق : مُحَدِّثان ، والرّافِقَةُ : د ، على الفُراتِ ، وتُعْرَفُ اليومَ بالرَّقَّة ، بناها المَنْصُور ، و : ة بالبَحْرَيْنِ ، والرِّفق : واللُّطفُ وحسنُ الصَّنِيع ، وأَرْفَقَه : رَفق به ، ونَفَعه ، وشاةٌ مُرَفَّقَةٌ ، — كمعظمة — : يَداها بَيْضاوان إلى مِرفَقَيْها ، وارْتَفَق : اتَّكَأَ على مِرْفَق يَده ، أَو على المِخَدَّة ، وأَمْتَلأَ . والمُرْتَفِقُ : الواقِفُ الثابِتُ الدّائم . وتَرفَّقَ به : رفق . ورافَقَه : صارَ رفِيقَه . وتَرافَقا[2]) .

(١) ابتداء من قوله : « واللطف . . إلى آخر المادة هو نص القاموس المحيط

(٢) آخر عبارة القاموس فى مادة رفق كما جاءت فى مطبوع التاج .

ثانيـا : مادة (ر ف ق) في مخـطوطة مكتبة عارف حكمت

(الرِّفْقُ ، بالكسرِ : ماانْتُفِعَ به)

وقال العَضُد : الرِّفْقُ : حُسن الانْقِيادِ لما يُؤَدِّى إلى الجَمِيل .

(و)[1] الرِّفْقُ : (الُّلطْفُ) وهوضِدُّ العُنْفِ ، ومنهُ الحَدِيثُ : « ما كانَ الرِّفْقُ فى شَيْءٍ إلّا زانَه »[2] وقد (رَفَقَ به ، وعليه) كلاهُما عن أَبى زَيْد ، زادَ غيرُه ورفق له (مُثَلَّثَةً) اقتصر الجوهرِىّ على رَفَق ، كنَصَر ، وكعَلِم ، وكَرُم نَقَلَهُما الصاغانِىُّ ، وقال : هما لُغتان ، وفى الحَدِيث « من رفق[3] بابْنِى رَفَقَ اللهُ به »

وقال اللَّيْثُ : الرِّفْق : لِينُ الجانِبِ ، ولَطافَةُ الفعل ، وصاحِبُه رَفِيقٌ ، وقد رَفَقَ يَرْفُق (رِفقًا) بالكسرِ (ومَرْفِقا ، كمَجْلِس ، و) مَرْفَقا ، مثل (مَقْعَد ، و) مِرْفَقًا ، مثل : (مِنْبَرٍ) الأَول والثانى والرابع عن أَبى زيدٍ ، والثالثُ عن غيرِه ، وقُرِئَ قولُه تعالى : ﴿ ويُهَيِّئْ لكمُ من أَمْرِكُمْ مِرْفَقا ﴾[4] بالوَجْهَين ، أى : ما تَرْتَفِقُون به ، قرأَ بفتح الميم وكسر الفاءِ أَبوجَعْفرٍ ونافعٌ ، وابنُ عامر ، والأَعمَشُ[5] ، والبُرْجُمِىُّ عن أَبى بَكْرٍ عن عاصم ، والباقونَ بكسرِ الميم وفتح الفاء ، ولم يقرأ بفتح الميم والفاءِ أَحدٌ ، وفى التهذيب : كسرَ الحَسَنُ والأَعمشُ الميمَ من مِرْفَق ، ونَصَبَها أَهلُ المدينة ، وعاصمٌ ، فكأَنّ الذين فَتَحوا الميم وكسروا الفاءَ ، أَرادوا أن يُفرِّقُوا بين مَرْفِق من الأَمر ، وبين المِرْفَق من الإنسان .

---

(١) بداية ما سقط من مطبوع التاج

(٢) النهاية لابن الاثير

(٣) انظر (مسند أحمد بن حنبل ٦/٦٢ ، ٩٣) وفيه أيضا (٦/٣٣٩) « ارفق بابنى » ، وفى سنن ابن ماجه ١٥٥٩/ (جنائز ١ ٤٩٧) « أرفقوا به رفق الله به ، انه كان يحب الله ورسوله » وكلها شواهد .

(٤) سورة الكهف الآية ١٦

(٥) فى المخطوطة الاعشى والمثبت من اللسان والتهذيب ، والملقب بالأعشى من القراء الكبار أبويوسف الأعشى ، وهو : يعقوب بن محمد بن خليفة الكوفى ، عده الذهبى فى الطبقة الخامسة ، قرأ عليه الصيرفى والشمونى (معرفة القراء الكبار للذهبى ١/١٣١ (ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة) .

أما الأعمش فهوسليمان بن مهران ابو محمد الأسدى من كبار القراء من الطبقة الثالثة قرأ على يحيى بن وثاب ، وزيد بن وهب ، وزر ابن حبيش ، وعرض القرآن على أبى العالية الرياحى ومجاهد وعاصم بن بهدلة (معرفة القراء الكبار للذهبى ١/٧٨)

(والمِرْفَقُ كمِنْبَرٍ ، ومَجْلِس) : مَوْصِلُ الذِّراع فى العَضُد . كما فى الصحاح . وقال ابنُ سِيده : . المِرْفَقُ ، من الإنسان والدّابّةِ : أعلَى الذِّراعِ ، وأسفل العَضُد والجمعُ المَرافق ، قال الله تعالى : ﴿وأَيْدِيَكُم إلى المَرافِقِ﴾ [1]

قال الأزهريُّ :وأكثرُ العَرَبِ على كسرِ الميم للمِرْفَقِ من الأَمرِ ، ومن مِرْفَقِ الإنسانِ ، قال : والعربُ أيضا تفتحُ الميم من مِرْفَق الإنسان ، لُغتان فى هذا وفى هذا ،

وقال يونُس : الذى أختارُه المَرْفِقُ فى الأَمرِ ، والمِرْفَقُ فى اليَدِ .

(ومَرافِقُ الدّارِ : مصابُّ الماءِ ، ونحوُها) وكان ابنُ سِيرين إذا دَخَل المِرفق كف كُمَّه عَلَى فَكِّه ، وفى التّهذيب : المِرْفَقُ من مَرافِقِ الدّارِ من المُغْتَسَلِ والكَنِيف ونحوه ، وفى حديثِ أَبى أَيُّوبَ رضِى الله عنه : « وَجدْنا مرافِقَهُم قد استُقْبِلَ بها القِبْلة [2] » يُريدُ الكُنُفَ والحُشُوشَ ، ويروى « مَراحِيضَهُم » :

(والمِرْفَقَة ، كمِكْنَسَةٍ : (المِخَدّة) والمُتَّكَأ .

(والرِّفْقَة ، مُثَلَّثةً) (و) الرُّفاقة (كثُمامة : جماعةُ تُرافِقُهم) فى سفرك (ج) رِفاقٌ ، وأَرْفاقٌ ، ورُفَقٌ (ككِتابٍ ، وأَصْحابٍ ، وصُردٍ) قالَ الأَعْشَى – يصفُ الجِمال – :

قاطِعات بطنَ العَتيك كما تَمْ
ضِى رِفاقٌ أَما مَهُنَّ رفاقُ[3]

وقال تأَبَّطَ شَرًّا :

سَبّاق غاياتِ مَجْد فى عشيرَتِه
مُرَجِّعُ الصَّوْت هدًّا بينَ أَرْفاقِ[4]

وقال رُؤْبةُ :

*حينَ احتَذاها رُفْقَةٌ من الرُّفَقْ *

(١) سورة المائدة الآية ٦

(٢) النهاية لابن الاثير.

(٣) ديوانه/١٢٥ (ط بيروت) وفيه ، « . . رقاقٌ أمامهن رقاق » بالقاف مكان الفاء وفسر الرقاق بالنياق الضعيفة، وفى معجم البلدان (العتيك) روايته

جازعات بطن العتيك كما تم ضى رفاق تحثهن رفاق

(٤) البيت من قصيدة له فى الفضليات ٢٩/١ وهى المفضلية الاولى ، وروايتها « هدا » بالدال المهملة وفسره بقوله : « أى رافعا صوته ، وهو مصدر وقع حالا .»

(والرَّفِيقُ : المُرافِقُ) وقيل : هو الصاحِبُ فى السَّفَر خاصّةً (ج : رُفَقاءُ) ككَرِيمٍ وكُرَماءَ، وقِيلَ : إذا عَدا الرَّجُلان بلا عَمَل فهما رَفِيقان ، فإن عَمِلا على بَعِيرَيْهما فهما زَمِيلانِ (فإذا تَفرقُوا ذَهَب اسمُ الرُّفْقَة) و (لا) يذهبُ (اسم الرَّفيق) وهو أيضاً (للواحِد والجَمِيع) مثل الصَّدِيق ، والخَلِيط ، ومنه قولُه تعالى : ﴿وحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً[1]﴾ وفى الحَدِيث: « بل الرَّفِيق الأَعْلَى من الجَنّة » [2] أى : جَماعة الأَنبياء .

والمصدَرُ الرَّفاقَةُ ، كالسَّماحة) وقال الفَرّاءُ : سمعتُ رجلاً بعَرَفات يقول : « جَعَلَكمُ اللهُ فى رِفاقِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم »

(أو) الرِّفْقةُ بالكسر : جمعُ رَفيقٍ ، و (الرُّفْقَةُ) بالضمِّ : (اسمٌ للجَمْع) رِفَقٌ ، ورُفَقٌ ، ورِفاقٌ (كعِنَبٍ ، وصُرَدٍ ، وجِبال) قالَهُ ابنُ سِيده ؛ وقال ابنُ بَرِّى: الرِّفاقُ : جمع رُفْقَة ، كعُلْبَةٍ وعِلابٍ ، قال ذُو الرُّمَّةِ :

قِياماً يَنْظُرُون إلى بِلالٍ
رِفاقَ الحَجِّ أَبْصَرتِ الهِلالا[3]

قالُوا فى تفسير الرِّفاق : جمع رُفْقَة ، ويُجْمَعُ رُفَقُ أيضاً ، ومن قالَ : رِفْقَةٌ قالَ : رِفَقٌ ورِفاقٌ ، وقَيْسٌ تقولُ : رِفْقَةٌ ، وتميمٌ تقولُ : رُفْقَةٌ .

ورِفاقٌ أيضاً :جمعُ رفِيقٍ، ككَرِيمٍ وكِرام.

والرِّفاقُ : مصدر رافَقْتُه ، وقالَ الليثُ: الرُّفْقَةُ يُسمَّوْن رفقةً ما داموا مُنْضَمِّين – فى مَجْلِس واحدٍ . ومسِير واحِدٍ – فإذا تَفرَّقُوا ذهب عنهم اسمُ الرُّفْقةِ .

والرُّفْقَةُ : القومُ يَنْهَضُونَ فى سفرٍ ، ويسِيرون معًا ، وينزِلُونَ معًا ، ولا يفْتَرقون ، وأَكثرُ ما يُسَمَّوْنَ رُفْقَةً إذانَهضُوا سُيّارًا .

(والرَّفِيقُ) أيضًا : (ضِدُّ الأَخْرق) وقد رفُقَ ، ككَرُمَ .

(ورفَق) فلانٌ (فُلانًا) : إذا (نَفَعَه) وكذلك : رَفَق به (كأَرْفَقَه) ومنه الحديث « فى إرْفاقِ ضَعِيفِهم ، وسَدِّ خَلَّتِهم » أَى : إيصال الرِّفْقِ إليهم .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٩
(٢) النهاية وهو فى صحيح البخارى (٦/١٢–١٦ ط الشعب) عن عائشة من طرق مختلفة ، وفى جميعها لفظ (الرفيق)
(٣) ديوان شعر ذى الرمة ٤٤٣ واللسان

(و) رَفَقَهُ رَفْقًا: (ضَربَ مِرْفَقَه) كعَضَدَه، ورَأَسَه، وصَدَرَه.

(و) رَفَقَ (الناقَةَ) يَرْفُقُها رَفْقًا: (شَدَّ عضُدها) بالحَبْلِ، قال الأَصمعِيُّ: وذلك (إذا خِيفَ أن تَنْزِعَ) أي تَشْتاقَ (إلى وطَنِها، وذلك الحَبْلُ رِفاقٌ، ككِتاب) والجمعُ رُفُقٌ بضمَّتينِ، وهو حبلٌ يُشَدُّ من الوظِيفِ إلى العَضُد، وقيل: يُشَدُّ في عُنُقِ البعيرِ إلى رُسْغِه، قال بِشْرُ بنُ أَبي خازِم:

فــإنِّي والشَّــكاةَ لآلِ لأْمٍ
كذاتِ الضِّغْنِ تَمْشِي في الرِّفاقِ[1]

يقول: أَنا مُمْسِكٌ عن هِجائِهم، كهذه الناقةِ التي حنَّت إلى وَطَنِها، وشُدَّت وحُبست، فإن صارُوا إلى ما أُحِبُّ، وإلّا أَطْلَقْتُ لسانِي بهِجائِهم.

(و) قال ابنُ دُرَيْد (بَعِيرٌ مرفوقٌ): إذا كان يشتكى مِرْفقه.

(و) قال الليث: جَمَلٌ (أَرْفَقُ بَيِّنُ الرَّفَقِ، محرَّكَةً): أي (مُنْفَتِلُ المِرْفَقِ عن جَنْبِه) وقد رَفِقَ كفَرِح، وهي رَفْقاءُ.

وقال الأَزهرِيُّ: الذى حفِظْتُه من العرب: جَمَلٌ أَدْفَقُ، وناقَةٌ دَفْقاءُ: إذا انْفَتَقَ[2] مِرْفقُه عن جَنْبه، بالدّال، وقد تقدّم ذِكْرُه.

(وناقةٌ رفْقاءُ) عن الأَصْمعِيِّ (وَرفِقَةٌ كفَرِحة) عن زيدِ بنِ كُثْوةَ، أي: (مُنْسَدٌّ إحْليلُ خِلْفِها) فتَحْلبُ دَمًا (وبها رَفَقٌ محركة) قال الأَخير: وهو حرفٌ غريب. وقِيل: ناقةٌ رَفِقَةٌ: إذا ورِمَ ضَرْعُها، وقِيل: هى التى توضعُ التَّوْدِيَةُ على إحْليلها فيَقْرَحُ (أو الرَّفَق: فسادٌ في الإحليلِ من سُوءِ حَلْبِ الحالِب، أو تركِ نَفْضِه إيّاه فَيَرْتَدُّ اللبنُ في الضَّرَّة، فيعودُ دمًا وخَرَطًا).

(والمِرْفاقُ، من الجِمالِ) كمِحْرابٍ: (ما يُصِيبُ مِرْفَقُه جَنْبَه).

(و) المِرْفاقُ (من النُّوقِ) وفي العين: من الإِبِلِ: (ما إذا صُرَّتْ أَوْجَعَها الصِّرارُ، وإذا حُلِبتْ خَرَج منها دمٌ). وهي الرَّفِقةُ أَيضا، كما تقدَّم، قاله اللَّيْثُ.

(١) ديوانه ١٦٣ واللسان، ومادة (ضغن) وفيه «فأنك والشكاة من ال لأم» والصحاح والتهذيب (٩/١١٣) وعجزه في المقاييس (٢/٤١٨).

(٢) الذى في التكملة والتهذيب (٩/١١٣) «انفتل مرفقة عن جنبه»

(وماءٌ رَفَقٌ مُحَرَّكَةً) وكذا : مَرْتَعٌ رَفَقٌ ، أى : (سَهْلٌ) المطْلبِ (أَو) ماءٌ رَفَقٌ ، أَى : (قَصِيرُ الرِّشاءِ) ومرْتعٌ رَفَقٌ : ليس بكثير .

(و) يُقالُ : طَلَبْتُ (حاجةً) فوجَدْتُها (رَفَقَ البِغْيَةِ) بالتَحْرِيك : إذا كانت (سَهْلَة) .

(وُرفَيْقٌ ، كزُبَيْرٍ : ابن عُبَيد) عن وهْب بن مُنبِّه ، وعنه مِرْداسُ ابن سانته (وأَبو رافقة :[1] مُحدثان)

(والرّافِقةُ : د)) متصل البناءِ بالرَّقَّة ، وهى (على) ضفةِ (الفُراتِ) قال ابنُ الأَثير : تعرفُ اليوم بالرَقَّة ، كان محمّدُ بن خالِد بن جَبلَة ينزلُها ، يقال : إنَّ البخارىَّ حدَّثَ عنه فى الصَّحيح ، وقال اليَعْقوبىُّ : الرّافِقةُ : مدينةٌ جانبَ الرَّقَّة (بناها المَنْصُور) العباسِىُّ أَبو جعفَر ، وأَتمّها المهدِىُّ ، ونزَلَها الرشيدُ ، منها : مُعافَى بنُ مُدْرِكٍ ، عن أَيُّوب بنِ سوار .

وقولُ شيخِنا : فالرافِقَةُ والرَّقَّةُ بلدٌ واحِدٌ لا بَلَدان ، كما يُتَوَهَّمُ منْ تعداد الاسمِ واخْتِلافِه ، فيه نَظَرٌ ظاهر ،

(و) الرّافِقةُ أَيضًا : (ة ، بالبَحْرينِ)

(و) قَالَ ابنُ دريدٍ : يقال : : أَوْلَى فلانٌ فلانًا رافِقَةً ، وهو (الرِّفْقُ واللُّطْفُ وحُسْنُ الصَّنِيع) .

وحكَى أَبو زَيْدٍ :(أَرْفَقَه) أَى إ: (رفَقَ به) ويقال أَيضًا :أَرْفَقَه ، أَى : (نفَعَه) وهوَ مجاز .

ويُقال : (شاةٌ مُرفَّقَةٌ ، كمُعَظَّمة) أَى : (يداها بَيْضاوان إلى مِرْفَقَيهْا) نقله الصاغانىُّ .

(وارْتَفَق الرَّجلُ : اتَّكَأَ على مِرْفَقِ يدِه) ومنه الحَدِيثُ « هو الأَبْيضُ المُرْتَفِق[2] » وباتَ فلانٌ مرتَفِقاً ، أَى : مُتَّكِئًا على مِرْفَقِ يَده ، وأَنشدَ ابن برِّى لأَعْشَى باهِلَة :

فبتُّ مُرْتَفِقًا والعينُ ساهِرةٌ
كأَنَّ نومِى علَىَّ اللَّيلَ محْجورُ[3]

---

(١) فى القاموس : « وأبو رفيق » والمثبت من المخطوطة

(٢) النهاية ، وتمامة : « أيكم ابن عبد المطلب ؟ قالوا : هو الأبيض المرتفق » .

(٣) اللسان

(أَو) ارْتَفَق : إِذا اتَّكأَ (على المِخَدَّةِ) ، ومنه حَدِيثُ ابنِ ذِى يزَنَ :

* فاشْربْ هَنِيئًا عليكَ التّاج مُرْتَفِقًا[١] *

(و) ارْتَفَق : إِذا (أَمْتَلأَ)

(و) منه (المُرْتَفِقُ) من القِيعان ، وهو (الواقِفُ الثابتُ الدّائِم) كَرب أَن يَمْتَلِئَ ، أَو امْتَلأَ ، قاله شَمِرٌ عن ابنِ الأَعرابيّ ، وبه فُسِّرَ بيتُ عَبيدِ ابن الأَبْرَص :

فأَصْبَحَ الروضُ والقِيعانُ مُتْرَعَةً
مِن بينِ مُرْتَفِقٍ مِنها ومُنْصاحِ[٢]

وفُسِّر المُنْصاح بالفائضِ الجارِى على الأَرض ، ورواه أَبو عُبيْدٍ : « من بينِ مُرْتَتِقٍ . . . وقد تقدم فى « رت ق»

(وتَرفَّق به) بمعنى(رفَق) وارفقَ (ورافَقَهُ) مُرافَقَةً ، ورِفاقاً : (صار رَفِيقَه) فى السَّفَرِ والمسِيرةِ .

(وترافَقا) فى السَّفر : صارارُفَقاءَ .

ومما يُسْتَدركُ عليه : (،)

يُقال : هذا الأَمرُ رَفِيقٌ بك ، ورافِقٌ بك ، ورافِقٌ عليك ، أَى :نافِعٌ ، نَقَلة اللَّيْثُ ، وأَنشَد :

فبعضَ هذا الوَجْإِ ياعَجرِدٌ[٣]
ماذا على قَومِك بالرّافِقِ

وهو مجازٌ ، وكذا قولهم : هذا أَرفَقُ بك ، أَى : أَنفَع .

---

(١) اللسان ، والنهاية (رفق) وفى معجم البلدان (غمدان) ونسبه إلى أبى الصلت يمدح ذا يزن ، وعجزه .

* فى رأس غمدان دارا منك محلالا *

وقبله :

أرسلت أسداً على بقع الكلاب فقد أضحى شريدهم فى الأرض فلالا

وبعده :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

(٢) ديوانه ٧٧ وفيه« والقيعان مترعة . . . ومنطاح ، وهوفى التكملة وعجزه فى اللسان (رفق) والتهذيب (٩/ ١١٣) وينسب أيضا إلى أوس بن حجر وانظر ديوانه / ١٧ (ط بيروت) .

(٣) وبهذه الرواية أنشده ابن مطور فى اللسان (صوح) .

(٤) فى الجمهرة (٢/ ٢٩٤) عزاه لرجل من بنى قيس بن ثعلبة ، فى خبرأورده ، وقبله :

ياقوم من يعذر من عجرد القاتل المرء على الدانق
لما رأى ميزانه شائلا وجاه بين الجيد والعاتق
فخر من وجأته ميتا كأنما دهده من حالق

وجاه : مخفف وجأه ، أى : ضربه .

وَرَفَق ، كنصر : انْتَظَر ، عن ابن ابن الأعرابى ، ويقالُ للمُتَطبِّبِ : مُتَرَفِّقٌ، ورفيقٌ .

وأرتَفق به : تَرَفَّق .

والمُرْتَفَقُ : المتّكأُ ، ومنه قولُه تعالَى : ﴿وحَسُنَتْ مُرْتَفقا﴾ [١] . قالهُ ابنُ السكِّيت ، وقال الفرّاء : أَنَّثَ الفعل على معنى الجَنة .

والمِرْفَقُ كِمنْبَر : المُتَّكأُ ، قاله الّليْث.

وتَمَرْفَقَ : أَخَذَ مِرْفَقاً .

وناقَةٌ رَفِقَةٌ ، كَفرِحةٍ : مُذْعِنَةٌ .

وارْتَفَقوا : ترافَقُوا .

وقال أبو عدْنان : قولُه فى الدّعاء : « الّلهُمّ أَلْحِقْنِى بالرَّفيق الأَعْلَى » [٢] سَمِعْتُ أبا القَهْدِ الباهِلِيَّ يقولُ : إنه تبارك وتعالَى رَفِيقٌ وفِيقٌ ،فكأَنَّ معناهُ : أَلْحِقْنِى بالرَّفِيقِ ، أى : بالله ، يقُال : الله رَفِيقٌ بعِبادهِ ، من الرِّفْقِ والرَّأْفَة ، فهو فَعِيلٌ بمعنى فاعِل ؛ قالَ الأَزهرىٌّ: والعلماءُ على أن مَعْنَاه أَلْحِقْنِى بجماعةِ الأَنبياءِ ، وهو اسمٌ جاء على فَعِيل ، ومعناهُ الجماعة ، قالَ : ولا أعْرِفُ الرَّفِيقَ فى صِفاتِ اللهِ .

ورفيقَةُ الرَّجُلِ : امْرأَتُه ، هذه عن عن اللِّحيانِىِّ ، قال : وقال أبو زِيادٍ ، فى حديثه : سأَلَنِى رَفِيقِى ، أراد زَوْجَتِى ، قال: ورَفِيق المرأَةِ: زوجُها .

وقالَ : فى مالِه رَفَقٌ ، محركةً ، أى : قِلَّةٌ ، ورواه أبو عُبَيْدٍ بقافين.

والرِّفاقُ ، ككتاب: مصدرُ رافَقَه فى السَّفَر ، وأيضاً بمعنى النِّفاقِ ، وبه فُسِّر حديثُ طَهْفَةَ : « مالم تُضْمِرُوا الرِّفاقَ » [٣]

ومَرْفَقٌ ، كمقْعَدٍ : اسمُ رَجُل من بنى بَكْرِ بن وائِل قَتَلَتْه بنو فَقْعَس ، قال المرّارُ الفَقْعَسِى :

وغادَرَمَرْفَقاًوالخَيْلُتَرْدِى
بسَيْلِالعِرْضِمُسْتَلَباًصَرِيعَا [٤]

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٣١

(٢) النهاية وفى صحيح البخارى (١٣/٦ط الشعب) عن عائشة رضى الله عنها من رواية عباد بن عبد الله بن الزبير ، ولفظه : « اللهم اغفرلى وارحمنى وألحقنى بالرفيق » .

(٣) النهاية .

(٤) اللسان ،والحكم (٢٣٤/٦)

واسترْفَقَه : استَنفَعه .

وارتَفَق به : انْتَفَع

والرّافِقَةُ : قريةٌ بمصر من أعمال الشرقية . »

* * *

وبعد فهذه مادة (رفق) كما وجدتها فى مخطوطة « تاج العروس » للزبيدى ، المحفوظة فى مكتبة عارف حكمت ، وهكذا كانت عجلة المطبعة الأميرية تدور فى القاهرة لتطبع القاموس المحيط – لأول مرة – بتصحيح الشيخ التونسى (سنة ١٢٦٢هـ–١٨٤٥م) وفى الوقت الذى ظن بعض الناس « أن استكتاب نسخة من تاج العروس تكليف بما لايطاق ؛ إذ هو يحتاج إلى مبلغ وافر ، وزمن طويل » كان هنالك فى المدينة المنورة عالم جليل ، لم يبخل بالمال الوافر ، ولم يستكثر الزمن فى استنساخ شرح القاموس المحيط المسمى « تاج العروس » ذلكم هو شيخ الإسلام أحمد عارف حكمة الله الحسينى (المتوفى ١٢٧٥هـ) الذى لم يطق صبرا على أن تخلو خزانة كتبه من هذا الكتاب القيم ، إذ أن ذلك لا يليق بأمثاله ، ولذلك أمر بكتابة نسخة منه فى الفترة من ١٢٦٧ – ١٢٧٣ هـ بقى لنا منها تسعة مجلدات ، جعلها وقفا على مكتبة الرسول الكريم ، وكان من توفيق الله أن هدانا إليها ، فأصبنا فيها هذا السقط ، وأعدها إلى موضعه من شرح القاموس ، فاستقام السياق ، واستوت المادة فى صورتها الصحيحة ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

مصطفى حجازى

المراقب العام للمعجمات وإحياء التراث بالمجمع

نهاية مادة (رفق) كما جاءت فى مخطوطة مكتبة عارف حكمت المجلد السابع .

(٣) هو محمد بن عمر التونسى (ت ١٢٧٥ هـ) من علماء اللغة فى القرن الثالث عشر .

(٤) المعنى هنا هو محمد باشا عارف وكيل جمعية المعارف التى عنيت بطبع التاج للمرة الاولى فى المطبعة الخيرية سنة ١٢٨٥ هـ انظر التاج الجزء الاول القسم الثالث صفحة ١٨٣) .

(٥) أشرنا إلى مراجع البحث والتحقيق فى حواشى الصفحات السابقة ، فأغنى ذلك عن اعادتها مجتمعة فى آخره

موقف الشعر من الأعلام

للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف

للشعر موقف خاص من الأعلام لم يلتفت إليه النحاة بوصفه ظاهرة معينة ، ولكنهم تناولوا هذا الموقف فى مواضع مختلفة وبمصطلحات متعددة تسوغ لنا أن نعد معظمها من التغييرات الصرفية بوصفها تغييراً فى بنية الكلمة فى الشعر لإقامة وزنه وتسوية قوافيه : وقبل أن نتناول موقف الشعر من الأعلام نود أن نضع فى حسباننا هذه الملاحظات الآتية :

أولا : إن الأعلام ، دون سائر المعارف تتعرف بنفسها من غير حاجة إلى وسيلة من وسائل التعريف التى تحتاج إليها ألوان المعارف الأخرى ، فقد « خرجت الأعلام عن شياع الأجناس إلى خصوصها بأنفسها لا بحرف يفيد التعريف فيها[1] » ولذلك عرفوا العلم — والذى يعنينا فى هذا المجال هو العلم الشخصى — بأنه « اسم يعين مسماه تعييناً مطلقاً[2] » . فالتعريف فى العلم آت من ارتباط الاسم بمسماه ارتباطا وثيقا فى الذهن ، بحيث يستحضر الذهن أحدهما عند وجود الآخر ، فهو — إذن — « الاسم الخاص الذى لا أخص منه[3] » ومناط التعريف فى العلم بقاؤه على هذا الارتباط الوثيق بمسماه وعدم شياعه فيه وفى غيره ؛ ولذلك لا يعامل معاملة بقية الأسماء من حيث الإضافة ودخول أداة التعريف ، إلا إذا « شورك فى اسمه ، أو اعتقد ذلك ، فيخرج عن أن يكون معرفة ، ويصير من أمة كل واحد له مثل اسمه ، ويجرى حينئذ مجرى الأسماء الشائعة نحو : رجل وفرس ، فحينئذ يجترأ على إضافته وإدخال الألف واللام عليه كما يفعل ذلك فى الأسماء الشائعة[4] »

ثانياً : أجاز النحاة ترخيم المنادى وشرطوا لذلك أن يكون مبنياً على الضم والمنادى المبنى على الضم هو العلم المفرد والنكرة المقصودة وهى كالعلم فى التعيين والإقبال[5] وشرط المبرد فى ترخيم المؤنث

---

(١) الخصائص لابن جنى ٣ – ٨١ .

(٢) أوضح المسالك لابن هشام ١ – ٦٦ .

(٣) شرح المفصل لابن يعيش : ١ – ٢٧ .

(٤) السابق ١ – ٤٤ .

(٥) انظر الأشمونى ٣ – ١٣٨ .

بالهاء : العامية [١]» وعللوا ذلك بأن « العلم لكثرة ندائه يناسبه التخفيف بالترخيم[٢] » ويقول سيبويه : « وليس الحذف لشيء من هذه الأسماء ألزم منه لحارث ومالك وعامر وذلك لأنهم استعملوها كثيراً في الشعر وأكثروا التسمية بها للرجال ... وهو في الشعر أكثر من أن أحصيه[٣] .

وعلى ذلك فإن الأعلام : زينب وسعاد وجعفر وسعيد وأسماء ومروان ومنصور وشملال وقنديل تصير إلى : يازين ، وياسعا وياجعف ، وياسعي ، وياأسم ، ويامرو ، ويامنص ، وياشمل ، وياقند : ولغة « من لاينتظر » تعامل الاسم حينئذ على أنه اسم مستقل ، والذي جوز الحذف في هذه الأعلام أنها متعينة لأصحابها ، وكونها مناداة يطلب إليها الإقبال لايجعلها تلتبس بغيرها ويكفي مع هذا أن يذكر بعض الاسم فيدرك صاحبه ومن حوله أنه هو المقصود لذلك فيخف وحده لما نودي من أجله ؛ ويلاحظ — هنا — أن كل ما استشهد به النحاة في باب الترخيم لم يكن إلا من الشعر ، غير قراءة علي بن أبي طالب وابن مسعود — رضي الله عنهما — ويحيى والأعمش[٤] (ونادوا يامال[٥]) التي يقول عنها ابن فارس « والله أعلم بصحة ذلك »[٦] ولكن ابن جني يرى في هذه القراءة سراً جديداً — على حد تعبيره — ، يقول : « وذلك أنهم ، لعظم ماهم عليه ، ضعفت قواهم ، وذلت أنفسهم ، وصغر كلامهم فكان هذا من مواضع الاختصار ضرورة عليه ، ووقوفاً دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله ، القادر على التصرف في منطقه[٧]

وهناك عبارة نثرية يستشهدون بها في هذا الباب ، وهي « ياشا ادجني »[٨] وهي عبارة غريبة ؛ لأن الحيوانات لاتخاطب إلا بالزجر أو طلب الإقبال ويكون ذلك بأصوات مخصوصة ، أما أن يطلب إلى الشاة ان تدجن — اى تقيم في المكان — فذلك مما تسمح به لغة الشعر ، لما فيها من كثرة المجاز والتصوير ، ولعل هذه العبارة مقتطعة من رجز لم يشأ النحاة أن يذكروه ؛ ولذلك جاء فيها الترخيم . وقد قصر النحاة ، كذلك — ماعدا الفراء وابن مالك — تصغير الترخيم على الأعلام وحدها[٩].

---

(١) السابق ٣ — ١٧٣ .
(٢) حاشية الصبان على الأشموني ٣ — ١٧٥ .
(٣) الكتاب لسيبويه (بولاق) ١ — ٣٣٥ .
(٤) انظر المحتسب لابن جني ٢ — ٢٥٧ والإنصاف لابن الأنباري : ٢٢١ .
(٥) سورة الزخرف الآية ٧٧ .
(٦) الصاحبي لابن فارس : ١٩٥ .
(٧) المحتسب لابن جني : ٢ — ٢٥٧ ..
(٨) الأشموني ٣ — ١٧٣ .
(٩) انظر تسهيل الفوائد لابن مالك : ٢٨٩ .

ثالثا : تنفرد الأعلام فى الاستعمال العام بمجيئها على غير المألوف من قياس النحاة « ومن ذلك قولهم فى العلم : حيوة ، وهذه صورة لولا العلمية لم يجز مثلها لاجتماع الواو والياء وسبق الأولى منهما بالسكون ، وعلة مجىء هذه الأعلام مخالفة للأجناس هو ما هى عليه من كثرة استعمالها ، وهم لما كثر استعماله أشد تغييراً »[١] لأن كثرة الاستعمال تزيد من ارتباط الاسم بالمسمى حتى إنه ليكفى مع هذا الارتباط الوثيق ذكر بعض أصوات الاسم ، يقول ابن جنى « الأسماء الأعلام قد تغير كثيرا عما عليه غيرها مما ليس علما نحو قولهم : رجاء بن حيوة وثهلل ومزيد ومكوزة ومعد يكرب وموهب وموظب ومورق »[٢] ويبين السبب فى هذا فيقول « فإن قلت : ولم جاز فى الأعلام هذا التغيير كله ؟ قيل : لأنها كثيرة الاستعمال معروفة المواضع ، والشىء إذا كثر استعماله وعرف موضعه ؛ جاز فيه من التغيير مالا يجوز فى غيره »[٣] وليس التغيير فى الاسم العلم مقصوراً على التغيير فى بنيته الصرفية فحسب ، بل إن ذلك ليتخطاها إلى الإعراب « ولما غيرت الأعلام فى ذواتها ؛ جاز أن تغير فى إعرابها ، فمن هنا جاز فى الحكاية « من زيدا » و « من زيدٍ » ولم يجز ذلك فى الرجل والغلام ونحوهما مما ليس بعلم هكذا قال أبو على وهو الصواب »[٤]

رابعاً : ما نزال – إلى الآن – نحرف الاسم العلم عن صورته الأصلية ويكون ذلك فى مواقف مختلفة كالتخفف من ذكر الاسم كاملا أو التدليل أو التمليح أو غير ذلك من دواع ، ولا يتم ذلك إلا إذا كان العلم مرتبطا بصاحبه أوثق الارتباط وأقواه بحيث لا يؤدى ذلك إلى لبس أو غموض ، فضلا عن أن بعض اللهجات فى أقاليم مصر المختلفة تقتطع الحرف الأخير من الاسم ، أو تكنى الشخص باسم أبيه ، كأن يكون اسم الشخص « محمد إبراهيم » فيتحدث عنه من يعرفونه باسم « محمد أبو إبراهيم » . وكل ذلك يتم بين أبناء البيئة اللغوية فى وضوح تام دون نكير من أحد لأنه عرف سائغ .

ويمكن أن نجمل هذه الملاحظات التى التى قررها النحاة فى عبارة موجزة هى أنه يجوز أن تغير بنية العلم فى الاستعمال لعدم اللبس وإذا وضعنا هذا فى الحسبان ؛ أمكن على ضوئه تحديد موقف الشعر من العلم ؟

إن الاسم العلم حينما يرد فى الشعر لابد أن يكون معروفاً متعيناً لدى البيئة التى قيل

---

(١) الخصائص : ٣ – ٣٤ .
(٢) المنصف لابن جنى : ١ – ١٤٢ .
(٣) السابق : ١ – ١٤٣ .
(٤) السابق : ١ – ١٤٣ .

فيها هذا الشعر ، بحيث تكفى الإشارة إلى بعض حروفه أحياناً ، أو الصورة المغير إليها الاسم أحياناً أخرى ولاسيما إن كان الشعر الشعر « كثيراً ما تحرف فيه الكلم عن أبنيته ، وتحال فيه المثل عن أوضاع صيغها لأجله »[١] كما يقول أبو الفتح . ويقول التميمى القزاز « ومما يجوز له فى الاضطرار الإتيان باسم وهو يريد غيره ، ولكن فيما أتى بعض الدليل على ما يريد »[٢] ويقول أيضا « ومما يجوز له له تغيير الأسماء كما قال الأول :

* ونسج سليم كل قضاء ذائل *

يريد بقوله سليم : سليمان »[٣] وهكذا يكون موقف الشعر من الأعلام . وتكون عبارة القزاز دقيقة لو فهمنا الاضطرار على أنه الاستعمال الشعرى الخاص لا الإلجاء والاحتياج ، ولا تهم — هنا — قواعد النحاة ، فما دام المعنى واضحاً مستقيما ؛ فإن العيب ليس عيب الشعراء ؛ فإنهم هم أنفسهم الذين يحتج بشعرهم ، ولكن العيب عيب تلك القواعد التى قصرت عن شمول كل الظواهر لضيقها ضيقا يكفل لها الاطراد :

لقد جاء الاستعمال الشعرى على هذا النهج ، وهو الاعتماد على معرفة العلم فى بيئته معرفة واضحة ، ولذلك كان الشعر يكتفى من العلم ببعض حروفه ، والتحريف فيه ، فجميل بن معمر يسمى « بثينه » (بثنة) فى قوله :

لا ، لا أبوح بحب بثنة إنها
أخذت على مواثقا وعهوداً[٤]

وذو الرمة يسمى حبيبته مية (مى) فى قوله :

ديار مية إذ مى تساعفنا
ولا ترى مثلها عرب ولا عجم[٥]

وفاطمة تصير إلى (فاطا) فى قول الشاعر :

فيا ليتنى من بعد (فاطا) وأهلها
هلكت ولم أسمع بها صوت إيسان[٦]

ودريد بن الصمة يسمى أخاه عبد الله (معبدا) فى قوله يرثيه :

وإن تعقب الأيام والدهر تعلموا
بنى قارب أنا غضاب لمعبد[٧]

---

(١) الخصائص ٣ — ١٨٨ .
(٢) مايجوز للشاعر فى الضرورة : ٢١٠ .
(٣) السابق : ٢١٢ .
(٤) الأشمونى ٣ — ٨٤ ، والهمع للسيوطى ٢ — ١٢٥ .
(٥) شرح السيرا فى لكتاب سيبويه ١ — ٢١٩ (مخطوط) .
(٦) المحتسب لابن جنى ٢ — ٢٠٣ .
(٧) الأصمعيات : ١٠٧ وشرح السيرا فى ١ — ٢٣٦ .

ومن يسمى حازوقا يصير إلى (حزاق) فى قول أمه ترثيه :

أقلب طرفى فى الفوارس لاأرى
(حزاقا) وعينى كالحجاة من القطر[1]

وثعلبة بن سيار يسمى (ثعلبة بن سير) فى قول المفضل النكرى :

وسائلة بثعلبة بن سير
وقد علقت بثعلبة العلوق[2]

والبعيث يسمى عطية الخطفى أبا جرير (عطاء) فى قوله يهجو جريراً :

أبوك عطاء ألأم الناس كلهم
فقبح من فحل وقبحت من نجل[3]

وعبد الأشهل يصير فى الشعر إلى (عبد الأشل) فى قول ابن الزبعرى :

حين ألقت بقباء بركها
واستحر القتل فى عبد الأشل[4]

وعثمان بن عفان يسميه الشاعر (عثمان أبو عفان) فى قوله :

والشيخ عثمان أبو عفانا[5]

وقد جعل السيرا فى تحريف الاسم على هذا النحو فى (عثمان أبو عفان) غلطا لايجوز فى الشعر ولا فى الكلام .

وإذا كان الاسم أعجميا فإن التحريف فيه أكثر مثل (إبراهيم) فإنه يجىء على هذا النحو فى قول الراجز :

أنفى لك اللهم عان راغم
مهما تجشمنى فإنى جاشم
عذت بما عاذ به إبراهم[6]

أو يجىء على هذا النحو :

نحن آل الله فى كعبه
لم يزل ذاك على عهد إبراهيم[7]

« وذلك أن إبراهيم اسم أعجمى ، فإذا عربته العرب فإنها تخالف بين ألفاظه » كما يقول ابن خالوية [8] :

والنماذج لأنواع التحريف فى صيغة العلم كثيرة فى الشعر كما يقول ابن جنى، وقد جعل بعض النحاة هذه الاستعمالات ضرورة فى الشعر[9]، وبعضهم يسمى بعضها تحريفا كما فعل ابن جنى ، وبعضهم عد ذلك خطأ كما فعل ابن فارس . والواقع أن هذا كله ليس

---

(١) الأصمعيات : ٢٠١ والخصائص ٣ – ١٨٨ .
(٢) الخصائص ٢ – ٤٣٧ واللسان ١٢ – ١٣٨ (علق).
(٣) الخصائص ٢ – ٤٣٧ واللسان ١٩ – ٣٠٢ (عطى) .
(٤) الخصائص ١ – ٨١ ، ٣ – ٤٣٨ واللسان ١٣ – ٣٩٧ (شهل) .
(٥) شرح السيرا فى ١ – ٢٣٦ .
(٦) إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه : ٤ والرجز فى اللسان مع خلاف فى التقديم والتأخير ١٤ – ٣١٤ (برهم)
(٧) إعراب ثلاثين سورة : ٤ .
(٨) السابق نفسه .
(٩) انظر مايجوز للشاعر فى الضرورة : ٢١٠ ، ٢١٢ .

شيئاً من ذلك ، ولكنه نهج الشعر مع الأعلام اعتمادا على ما هو متعارف عليه بين الناس فى نداء الأعلام أو التحدث عنها من جانب ، واعتمادا على توفز النفس وشحذ الاهتمام واستحضار كل دواعى الفهم عند تلقى الشعر من جانب آخر بحيث تصبح الإشارة والإيماءة مغنية عن البسط والإسهاب فضلا عما يدل عليه تغيير صورة الاسم من معان تختلف باختلاف الموقف .

ولعل عدم نظرة النحاة للشعر على أن له استعمالا خاصاً للأعلام هو الذى دفعهم للاختلاف حول ترخيمها فى غير النداء فجعله سيبويه ضرورة من ضرورات الشعر وعقد لذلك بابا خاصاً فى كتابة[1]، وأجاز فى الاسم المرخم فى غير النداء أن يجعل ما بقى منه اسماً مستقلا ، « وليس بين النحويين خلاف أنه جائز له فى غير النداء على أن يجعله اسماً مفرداً ويعرب به بما يستحقه من الإعراب »[2] ويجيز سيبويه أيضا وغيره من المتقدمين البصريين والكوفيين أن يبقى الاسم بعد الحذف على حاله « على لغة من ينتظر » ولكن المبرد كان ينكر هذا ولا يجيزه فى الشعر ويعلل الأبيات[3]، وحجته فى ذلك أنه « حذف فى غير النداء فأشبه حذف دم ويد فكما أن يداً ودماً وأمثالهم (كذا) يجرى آخرها بالإعراب فكذلك ينبغى أن يجرى آخر المرخم فى غير النداء ضرورة »[4] ،ويقول عن ذلك ابن عصفور : « وهذا الذى ذكره ليس بشىء[5] » والذى أراه أن رأى سيبويه أشبه بما يتطلبه الشعر ولذلك لا أوافق المبرد على معياريته .

وبناء على ذلك لا نستطيع أن نوافق الكوفيين وابن مالك [6] فى تعميمهم وفرضهم لغة الشعر على النثر ؛ إذ يجيزون ترخيم المضاف فى النداء بحيث يوقعون الترخيم فى آخر الاسم المضاف إليه فى الشعر والنثر على السواء مثل قول الشاعر :

أبا عرو لا تبعد فكل ابن حرة
سيدعوه داعى ميتة فيجيب

وقول الآخر :

إما ترينى اليوم أم حمز
قاربت بين عنزى وجمزى

---

(١) انظر : الكتاب ١ – ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٢) انظر الكتاب ١ – ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٣) شرح السيرفى ١ – ٢١٧ .

(٤) شرح السيرافى ١ – ٢١٨ .

(٥) شرح الجمل لابن عصفور ورقة ٥٦ ا (مخطوط)

(٦) السابق نفسه .

(٧) انظر الهمع للسيوطى ١ – ١٨١ .

ولايجيز البصريون ذلك فى غير الشعر ، على أنه ضرورة[1]،والذى نراه أن هذا استعمال شعرى خاص بالأعلام ، ولاداعى لفرضه على النثر لأنه لايرخم فى غير النداء إلا العلم وحده لأنه المسموع ولاشاهد فى غيره[2]، كماأنه لاداعى أيضا لأن نصفه بالضرورة لأن وصفه بالضرورة إنما هو بالقياس إلى عدم جوازه فى النثر ،والذى نؤمن بهوندعوإليه أن يفصل بين الشعر والنثر فى التقعيد النحوى لأن ذلك سيوفر الكثير من الحكم بالعلةوالندرة والشذوذ والضرورة وغير ذلك ، وسوف يصحح ذلك كثيرا من الأحكام ويخفف كثيرا من القواعد التى أثقلت كاهل النحو زمنا ليس بالقصير .

ومن الاستعمالات الشعرية الخاصة بالأعلام والتى أثارت خلافا بين النحاة حذف التنوين من العلم فى الموضع الذى ينبغى أن ينون فيه حسب قواعد النحاة ، ومن هنا أجاز الكوفيون منع العلم من الصرف لسبب واحد هو العلمية[3] وأجاز ذلك ثعلب فى الاختيار وتابعه أبو حيان[4] ويقول ابن يعيش : « فاذا اعتبرت النصوص الواردة فى هذا الباب كان أكثرها أعلاما معارف فامتنع الصرف » [5] ويرى أن النصوص الواردة فى هذاالباب ليس من السهل ردها[6] ؛ ولذلك كان من النحاة من أجازه فى فصيح الكلام [7]، وينقل السيوطى فى ذلك أربعة آراء رابعها أنه يجوز فى العلم خاصة [8]، والبصريون يأبون ذلك ويمنعونه ؛ ولذلك أولوا الأبيات الواردة فى ذلك أوغيروا روايتها وتغيير الرواية كثير فى التراث النحوى — ومن أمثلة ذلك قول الشاعر :

فما كان حصن ولاحابس
يفوقان مرداس فى مجمع [9]

وقول الآخر :

ومصعب حين جد الأ
مر أكثرها وأطيبها[10]

وقول الآخر :

لتجدنى بالأمير برا
وبالقناة مدعسامكرا
إذا غطيف السلمى فرا [11]

---

(١) انظر المسألة ٤٨ من الإنصاف ١ — ٢١٤ .
(٢) انظر الهمع ١ — ١٨١ .
(٣) انظر المفصل للزمخشرى : ١٧ .
(٤) انظر : الهمع ١ — ٣٧ .
(٥) شرح المفصل لابن يعيش : ١ — ٦٩ .
(٦) انظر السابق ١ — ٦٨ .
(٧) انظر شرح الصقار الفقيه لكتاب سيبويه ورقة ٢٦ (مخطوط)
(٨) انظر الهمع ١ — ٣٧ .
(٩) شرح السيرافى ١ — ٢٠٤ وشرح المفصل ١ — ٦٨ .
(١٠) شرح السيرافى ١ — ٢٠٤ .
(١١) اللسان ٧ — ٣٨٧ (دعس) .

وقول حسان بن ثابت :

أو من بنى زهرة الأخيار قد علموا
أو من بنى خلف الخضر الجلاعيد(١)

وقول الآخر :

عمرو الذى هشم البريد لقومه
ورجال مكة مسنتون عجاف(٢)

وقول الآخر :

حميد الذى أمج داره
أخو الخمر ذو الشيبة الأصلع (٣)

ومن الاستعمال الشعرى للعلم أيضاً أن يفعل به عكس ماسبق أى ينونه فى الموضع الذى ينبغى ألاينون فيه حسبما تنص قواعد النحاة كقول الشاعر :

جارية من قيس بن ثعلبة
كأنها حلية سيف مذهبة(٤)

وقول الآخر :

فان لم يكن مال يثاب فانه
سيأتى ثنائى زيداً بن مهلهل

وقول الآخر :

سلام الله يا مطــــر عليها
وليس عليك يامطر السلام(٥)

وقول الآخر :

ضربت صدرها إلى وقالت
يا عديا لقد وقتك الأواقى(٦)

ومن الاستعمال الشعرى للأعلام تنوين الاسم العلم الذى حقه أن يمنع من الصرف ، وشواهده أكثر وأشهر من أن تذكر ، وإن كان هذا يدل على تطور فى اللغة إذا نظرنا إلى عدم صرف الاسم الممنوع من الصرف على أنه بقايا تاريخية لما كان يستخدم فى مرحلة سابقة(٧) ثم أدت عوامل التخفيف فى العلم إلى نزع التنوين منه ، ثم نظر إليها الشعراء فيما بعد على أنه من تقاليد الشعر الخاصة فاستعملوه .

---

(١) شرح السير فى ١ - ٢٣٣ ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب .
وانظر الديوان : ٣٤٥ والبيت ملفق من بيتين هما فى ديوانه :

أو فى الذؤابة من تيم وإخوتها   أو من بنى جمع الخضر الجلاعيد
أو كنت من زهرة الأبطال قد علموا   أو من بنى خلف الزهر الأماجيد

وانظر الكامل للمبرد : ٢٩/١

(٢) مايجوز للشاعر فى الضرورة : ١٢٥ واللسان ٢ - ٣٥٢ (سنت) والرواية فيه « عمرو العلا . . . »

(٣) المقتضب للمبرد ٢ - ٣١٣ واللسان ٣ - ٣٠ (أمج)

(٤) الكتاب لسيبوية : ٢ - ١٤٨ وشرح المفصل ٢ - ٦ .

(٥) هذا البيت وما قبله من شرح السيرا فى ١ - ٢٠٣ .

(٦) الأشمونى ٣ - ١٤٥

(٧) هذا إذا أخذنا بقول النحاة ، وهو أن التنوين هو الأصل ، ومنع الصرف طارئ لعلة ، وإذا كان هذا القول صحيحاً كذلك نحويا وتاريخيا ، وإلا فان نولدكه يرى أن العربية - كما كان يتكلمها النبطيون قبل ميلاد المسيح وبعده بقليل - كانت تستخدم الأسماء بدون تنوين ، والأسماء الممنوعة من الصرف كانت بلا نهايات إعرابية على الإطلاق ، ومقتضى قوله أن هناك تطورا حدث فى العربية إذ استخدمت الأسماء المنصرفة التنوين وأعربت الأسماء الممنوعة من الصرف بلا تنوين . (انظر اللغات السامية ٧٣ وما بعدها)

كما أن من الاستعمال الشعرى للعلم كذلك أن يمد إذا كان مقصوراً مثل قول الشاعر :

قد علمت أخت بنى السعلاء[1]

أو يقصر إذا كان ممدوداً مثـــل قول الشاعر :

لابد من صنعا وإن طال السفر[2]

وقول جرير :

ونبئت جواباً وسكناً يسبنى
وعمرو بن عفرا لاسلام على عمرو[3]

أو يزيد فى حروفه كقول الشاعر وذكر (ميسان) فجعلها (ميسنان) :

ومـــا دمية من دمى ميسنـــان
بمعجبـــــة نظـــراً واتصافاً[4]

وقول الأسدى :

وخافت من جبال السغدنفسى
وخافت من جبال خوارزم[5]

وقد قال أبو الفتح ابن جنى عن مثل هذا الاستعمال : « وهذا — لعمرى — تحريف بتعجرف عار من الصنعة »[6] ؛

لقد أردت — فحسب — أن ألفت النظر إلى جانب من جوانب الدرس النحوى شتته النحاة وشعثوا ما يجب أن يجتمع من أمره، وأرى لدراسة هذه الظاهرة دراسة وافية مجدية أن نحدد فترة زمنية معينة نجمع شعرها، ونستخرج الأعلام من هـــذا الشعر ، ثم نصنفها ونصف استخداماتها دون أن نقول إن هذا الاستعمال أو ذاك ضرورة أو خطأ أو غلط أو غير ذلك من أحكام ، بل ننظر إليه على أنه استعمال شعرى خاص مادام غير موجود فى النثر ؛ وبذلك نريح النحاة من الخلافات التى نشبت بينهم بسبب بعض هذه الاستعمالات ، ومن لجوء بعضهم إلى إنكار الرواية جملة لبعض الأبيات ، وكأن ذلك يعفى من تفسيرها ودراستها ، أو تخريجها وتأولها على غير ماوردت به مما أثقل كاهل النحو .

محمد حماسه عبد اللطيف

---

(١) شرح الجمل لابن عصفور : ١٣٨ والسعلاة أخبث الغيلان وكذلك السعلا يمد ويقصر اللسان ١٣ — ٣٥٧ (سعل)

(٢) السابق نفسه .

(٣) الكتاب لسيبويه ١ — ٣٥٧ .

والبيت فى ديوانه صفحة ٤٢٥ وانظر اللسان ١٨/٨٢ وطبقات فحول الشعراء لابن الإسلام ٣٢٨

(٤) الخصائص ١ — ٢٨٢ ، ٢ — ٤٤٧ م

(٥) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ — ٢٠٦ .

(٦) الخصائص ١ — ٢٨٢ .

ملاحظات

على تطور التأليف المعجمى عند العرب

للأستاذ رجيس بلاشير

ترجمة الأستاذ احمد درويش

كان تطور التأليف المعجمى عند العرب موضوعاً لدراسات عميقة بدرجة أو بأخرى،(١) وبفضل هذه الدراسات لم تعد معرفة المصادر التى تشكل الهيكل الرئيسى فى هذا الفرع تطرح مشاكل تستعصى على الحل ، وتبقى الأهداف التى يراد إنجازها بعد ذلك فى هذا المجال ، سهلة الإحاطة والمعالجة .

لقد تمت مهمة بالغة ، إنجاز طبعات أمهات المعاجم التى لم تكن قد طبعت من قبل مثل « تهذيب الأزهرى » ، وفى الوقت نفسه تمت إعادة طبعات المعاجم الكثيرة الاستعمال ، والتى لم يعد يكفى المطبوع منها للاستجابة لحاجة القراء التى أصبحت ملحة ، ومع ذلك فليس من التزيد دون شك ، العودة إلى دراسة مرحلة المنابع المعجمية وخاصة تلك التى شكلت الهيكل الرئيسى للتأليف المعجمى ، بدءاً من القرن الثانى الهجرى ، حتى ظهور ذلك السفر الجليل « لسان العرب » ، وخلال تلك الحقبة الطويلة كان ما فعله التأليف المعجمى العربى يتجاوز فى قيمته مجرد القول بأنه نجح فى إكمال رسالته ، فلقد غير فى خلالها مرات

---

(١) مثل دراسة جولدزيهر : Batir zwy Geschichte des Sprachgelehrsamkeit bei der Arabern والتى ظهرت فى Sizungslerichteder Ak Wien Lxxii (872) 587 299 .

ودراسة Krenkow بعنوان : The beginnigs of Arabic lexicogrophy فى Suppl.J. R.A . S. (1929)

ودراسة Rosenthal بعنوان : The techniqic nnd anproache of Muslin Scheel - Arship . 2 .

ودراسة Kraemer بعنوان : Studien Zur Altavabischen Lexikogrophis والمنشورة فى مجلة Oyiens VI (1923) 20 - 238 .

وبين الدراسات غير المطبوعة . ننوه بصفة رئيسية بدراسة عبد الله درويش : المعاجم العربية . القاهرة ١٩٥٦*

* اطلع كاتب المقال على المؤلف مخطوطا ، وقد طبع دكتور عبد الله درويش بعد ذلك كتابه تحت نفس العنوان : المعاجم العربية . القاهرة سنة ١٩٥٦ م (المترجم)

عديدة ، أهدافه ومقاصده ، واتسمت بعض مراحله كذلك بالتقصير .

ونريد هنا إعادة النظر فى الأثر الذى أحدثته بعض آيات القرآن فى المرحلة الأولى بصفة عامة على الجهود التى كانت تهدف إلى الجمع المعجمى للغة العربية .

لقد تعرضت التقاليد العبرية قبل الإسلام بقرون لقضية أصل اللغة ، ويمكن أن نقرأ عن ذلك فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين :

١٩ – وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية ، وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ، ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها .

٢٠ – فدعا آدم بأسماء جميع البهائم ، وطيور السماء ، وجميع حيوانات البرية ، وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره .

وكما نرى هنا فإن اكتساب اللغة ، كان نتيجة لتجربة الإنسان ذاته ، والحدث الإلهى لم يتدخل إلا لكى يظهر إلى أى حد خلق آدم مميزاً بعبقرية تفضله على المخلوقات الأخرى

أما فى القرآن فإن نشأة اللغة تبدو على العكس من ذلك ، وكأنها عطاء متفضل به على الإنسان ، ذلك المخلوق المميز ، كما جاء فى سورة الرحمن فى بداية نزول القرآن بمكة (حوالى ٦١٢ م) : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان» (١ – ٤) :

وفى آيات أخرى نزلت بالمدينة ، نجد سمة أخرى ، ذات مغزى كبير ، لذلك التصور الذى سيفرض نفسه على الجيل الأول من المسلمين، فيما يتصل باللغة كعطاء معجز : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم . (البقرة ٣١ – ٣٣) .

ومن المناسب أن نضيف إلى هذين النصين ثلاثاً وثلاثين آية وردت فى القرآن بهذا الصدد (*) .

(*) الآيات التى يشير لها بلاشير بعد ذلك بقليل ، أورد ثبتا بأرقامها فى فهارس ترجمته الفرنسية للقرآن تحت عنوان «المصدر الإلهى للوحى القرآنى » وهى الآيات التالية : (إنه لقول رسول كريم) التكوير : ١٩ (تنزيل من رب العالمين) الواقعة : ٨٠ (إن هو إلا وحى يوحى) النجم : ٤٠ (فأوحى إلى عبده ما أوحى) النجم : ١٠ (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) طه : ٤ (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا) طه : ١١٢ (وإنه لتنزيل رب العالمين) الشعراء : ١٩٢ (الذين جعلوا القرآن عضين) الحجر : ٩١ (قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم) الأنبياء : ٤ (وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) الأنبياء : ٥٠ (تنزيل من الرحمن الرحيم) فصلت : ٢ (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فصلت : ٤٢ (تنزيل الكتب من الله العزيز الحكيم) الجاثية : ٢٠ (تنزيل الكتب من الله العزيز العليم) غافر : ٢ (تلك آيت الكتب المبين) القصص : ٢ (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) الشورى : ٣ (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) يونس : ٩٤ (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع مايوحى إلى من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) الأعراف : ٢٠٣ (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الأحقاف : ٢ (قل ماكنت بدعا من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم إن =

لقد وجدت إذن مسلمة دينية ، وجهت بصفة رئيسية ، « عملية الجمع اللغوية » لدى علماء المعاجم المسلمين فى العراق منذ بدايات بحوثهم ، حيث الاعتقاد بأن الكلام منحة من الله ، ولغة العرب هى أسمى اللغات ما دامت هى تلك التى فضلها الله على جميع اللغات واختارهالغة لرسالته الأخيرة للإنسانية.

ولقد لعبت التفاسير الإسلامية دوراً هاماً فى أن تنسج من هذه المسلمة نظرية كاملة حول قضية « أصل اللغة » ، ومن هنا كانت مهمة المعجميين محوطة تماماً بالاستجابة للون من التعاليم الدينية ، وكانت المشكلة قبل كل شىء هى اكتشاف كل المدلولات التى كان ينبغى أن تنطوى تحت لفظ « البيان » (فى مثل قوله : علمه البيان) وأهم من ذلك اكتشاف كل المدلولات المنطوية تحت اللفظ الأكثر غموضاً « الأسماء » (فى مثل قوله : « وعلمّ آدم الأسماء ») ، وهو لفظ عام يطلق على « الدال » ولكنه هنا ينبغى أن يؤخذ على أنه مراد به « المسميات » .

ولقد عكست بوضوح روايات المشافهة ، التى كانت روافد التفسير ، « التصور العائم » لمعنى كلمة « الأسماء » لدى الأجيال التى تلت الجيل الأول من المسلمين ؛ ففى نهاية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حفظ لنا التفسير ، الذى لا تقدر نفاسته ، تفسير الطبرى (متوفى ٩٢٣ م) عبر سلاسل الإسناد المختلفة صدى لهذه التاويلات المترددة[1] :

= أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين) الأحقاف : ٩ (قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) الأحقاف : ٣٠ (وأوحى إلى هذا القرآن لأ نذركم به ومن بلغ) الأنعام: ١٩ (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) الأنعام : ٩٢ (أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتب مفصلا ، والذين أتيتهم الكتب يعلمون أنه نزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) الأنعام : ١١٤ (المر تلك آيت الكتب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون)[1] الرعد : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم) البقرة : ٩١ (وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) البقرة : ١٧٠ (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) البقرة : ١٨٥ (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء : ٨٢ (ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) النساء : ١٧٤ (سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات) النور : ١[*]

(*) ثبت أرقام الآيات لدى بلاشير ورد فى الترجمة الفرنسية للقرآن . وقد لاحظنا أثناء كتابة الآيات المقابلة للأرقام أن هناك أرقاما واضح أنها كتبت خطأ مطبعيا بالتقديم أو التأخير الطفيف فأثبتنا ما يتمشى مع السياق العام ونورد هنا أرقام ما غيرناه كما أتيته بلاشير (الواقعة : ٨٠) ، الشعراء : ٢٠١ ، الأحقاف : ٢٨ ، البقرة : ١٨١ ، آل عمران : ٣٩ . وقد أثبتنا فى قائمة الآيات ماراايناه قريبا منها فليراجع . « المترجم » .

(١) يورد الطبرى فى تفسيره « جامع البيان فى تفسير القرآن » (ا : ٤٨٢ — ٤٨٦) سلسلة من الأسانيد تنتهى إلى العباس ، وأحيانا إلى قتادة ، حيث نجد كلمة « أسماء » تحمل معنى الأسماء التى يتعارف بها الناس كإنسان ودابة وأرض وسهل . أو إسم كل شىء (حتى الهنة والهنية) ، وفى أسانيد أخرى فى نفس الكتاب ، يقدم تأويلات أخرى تفسر « الأسماء » (فى قوله : وعلم آدم الأسماء) . فإنها أسماء ذرية آدم وأسماء الملائكة ، وبين هاتين السلسلتين من التأويلات يفضل الطبرى التأويل الثانى (ذريته والملائكة) الذى يتمشى مع بقية النص فى رأى الطبرى . =

وفى نفس الوقت ، سوف تنمو حركة طبيعية ، برغم مخالفتها للمألوف السائد آنئذ ؛ لقد فهم النص القرآنى « وعلم آدم الأسماء كلها » فهماً حرفياً ، وكان من الطبيعى، بناء على هذا الفهم ، أن يحدد المجموع الضخم للكلمات التى وهبها الإنسان عندما منحت اللغة له ، ويبدو أن مدرسة نحويى البصرة ، كانت أول من شغل بتقديم إجابة على القضايا التى أثيرت فى هذا الصدد ، وهنا فرض منهج « العد والإحصاء » نفسه ووصل الأمر ببعضهم إلى إحصاء مجموع ما منحه الإنسان الأول من ملايين الكلمات التى كان يوضح بها حاجاته ، والتى امتاز بها على مجموع المخلوقات الأخرى[1].

إن التناقض بين منهج « العد والإحصاء » هذا وبين « الحقيقة اللغوية » بدا واضح البداهة لدرجة كان يمكن معها أن تدعو البعض إلى الدهشة من هذا الفهم غير المريح ، ويبدو أن مبدأ « التناقض الصوتى » كان قد فرض نفسه منذ فترة مبكرة على المنظرين أنفسهم ، وقادهم ذلك إلى التفريق بين « ما يمكن تفصيله » و « مالا يمكن تفصيله » ، أو إذا شئنا بين المعجم الحى والمعجم النظرى .

على هذا النحو ، انفتح مجال واسع لا نهائى « للإحصاء » اللغوى المعتمد على ذاته ، إذا صح هذا التعبير ، والمتحرر من القانون الدينى (القائل بأن اللغةمنحة للإنسان) :

وبالتوازى مع حركة الإحصاء الشاملة للغة تلك ، نرى تطوراً واسعاً فى « الرغبة فى البحث » لدى كل من فقهاء اللغة فى مدرستى البصرة والكوفة على السواء ؛ حيث نرى إشباع الفضول العلمى هو المحرك الأساسى للباحث . والتنقيب فى حياةعلماء اللغة المعروفين آنئذ ، يؤكد حدة ذلك الفضول ، والتى تبدو فى عناوين الكتب التى خلفتها هذه الشخصيات ؛ فكثيراً ما نجد « كتيبات » يحدد فيها العالم جهده ، دون كثير من الغرور والادعاء ، فى ملاحظة المفردات التى ثبتت نسبياً لديه ، والمتصلة بموضوع ما من موضوعات الحياة الصحراوية ، فى الحضارة البدوية : أو فى حيوانات أو نباتات الأعراب وعبر هذا المنحنى ، كان يتجه العلماء بطريقة أو بأخرى إلى البحث عن « الغريب » الذى كان يكثر وروده فى القصائد ، التى كانت أصالتها موضع نزاع ، والتى كانت تجمع من أفواه رواة البادية . وتدين لهذا المنحنى

= ولقد أحسن « فخر الدين الرازى » فى تفسيره « مفاتيح الغيب » بعدم إقناع التأويلات الحرفية والنحوية للطبرى ، ولقد نجح فى أن يشعرنا بكل مافى كلام الطبرى من غموض ، بعد تمحيصة لهذه التأويلات غير المحددة ، وعند الرازى ، أن « الأسماء » فى قوله : وعلم آدم الأسماء كلها ، تعنى « صفات الأشياء ونعوتها وخواصها » ، ولقد أخذ الرازى هذا المعنى من الجذر الأصلى للكلمة وهو « وسم » التى تعطى تماما معنى « السمات » (والخصائص) وقد أكد البيضاوى بدوره كذلك ، على المعنى الأصلى العام لكلمة « أسماء » .

(١) السيوطى : المزهر ١ : ٧٤ مع إحالته إلى حمزة الأصفهانى .

أيضاً ، إعادة بناء جزء من المعجم الحضرى بطريقة غير منتظمة إلى حد ما .

إن دراسة بعض الأعمال ، التى وضعت تحت عنوان « فقه اللغة » فى ذلك الوقت تؤكد أصالة هذا المنهج الرائع ، الذى تبعه هؤلاء الباحثون ، وإذا كان مؤلفو بعض هذه الكتب لم يتعدوا أحياناً طبقة « المدونين » فلقد كان الأمر على العكس من ذلك فى حالات أخرى كثيرة ، خاصة فى كتب « النبات » حيث يرتفع البعض إلى مستوى الملاحظات الدقيقة المدونة بمصطلحات تجبر على الإعجاب لدقتها ، ويرد على الذهن هنا خاصة ، أعمال « أبى حنيفة الدينورى » .

وابتداء من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) سوف يكتسى هدف البحث المعجمى شكلا جديداً ، بمعنى أنه سينفصل عن المسلمة الدينية ، التى كان مديناً لها بولادته ، وسوف تنتظم هذه الأبحاث تحت تأثيرات جديدة ، ويظهر هذا فى إنتاجين رئيسيين هما : « الجمهرة » لابن دريد (المتوفى عام ٩٣٣م) و « تهذيب الأزهرى » (المتوفى عام ٩٨٠ م) ، ولحسن الحظ فان كلا من هذين المعجمين قد صدر بمقدمة وضح فيها المؤلف هدفه ، ومنهجه بطريقة تجعل من الممكن بالنسبة لنا ، أن نقوم ، من خلال النصوص ، تطور المفاهيم المعجمية بالقياس إلى تلك التى كانت سائدة فى المرحلة الأولى لدى الخليل .

وواضح أن مؤلفى هذين المعلمين ، يتجهان على السواء ، إلى أن يضعا أمام القارئ ، إحصاء كاملا للغة ، وإلى أن يعيدا تناول العناصر التقليدية ، وضبطها بدرجة أو بأخرى طامحين إلى التزويد بأداة لغوية للبحث تكون صورتها الوحيدة ، اللسان العربى الخالص :

وفى بداية القرن الرابع ، جاء العربى ــ الفارسى ، ابن فارس (المتوفى عام ١٠٠٤م) فغذى طموحاً مماثلا ، لكنه ، فيما يبدو ، لم يكن له نفس القدر من الصدى الذى كان لسلفيه ، ومن ناحية أخرى ، تميز كل ذلك الإنتاج ، بصعوبة الاستعمال ، لأن الجذور لم ترتب إطلاقاً وفق الترتيب الألفبائى » الذى يتطابق مع ما تقضى به ضرورة الاستعمال ، ومن ثم فقد تمخض القرن الرابع عن ثورة معجمية ثانية ، ومن المحتمل أن يكون قد حدث ذلك ، تحت ضغط الحاجة التطبيقية التى وجدت فى الحواضر الثقافية فى إيران والعراق. وبطل هذا التجديد ، مرة أخرى ، عربى فارسى هو «الجوهرى» (المتوفى نحو عام ١٠٠٥م) والشهرة التى لقيها صحاح الجوهرى ، ليست عفوية ، فعلى مدى عدة قرون ، ظل هذا الكتاب صامداً ، مما يوضح إلى أى حد لبى حاجات الناس فى هذا النهج الجديد .

فى هذا الاتجاه ، دخل «الغرب الإسلامى» بدوره . باتجاهين قويين مختلفين ؛ فلقد استطاع المعجمى الضرير « ابن سيدة »

(المتوفى عام ١٠٦٦ م) أن يبدو ، فى ذات الوقت ، مجلا ومتمماً لابن دريد والجوهرى فى « المحيط » ، ومجدداً فى « المخصص » الذى يبدو لنا محاولة نجحت فى الوصول إلى ماتسميه معجم المتشابهات

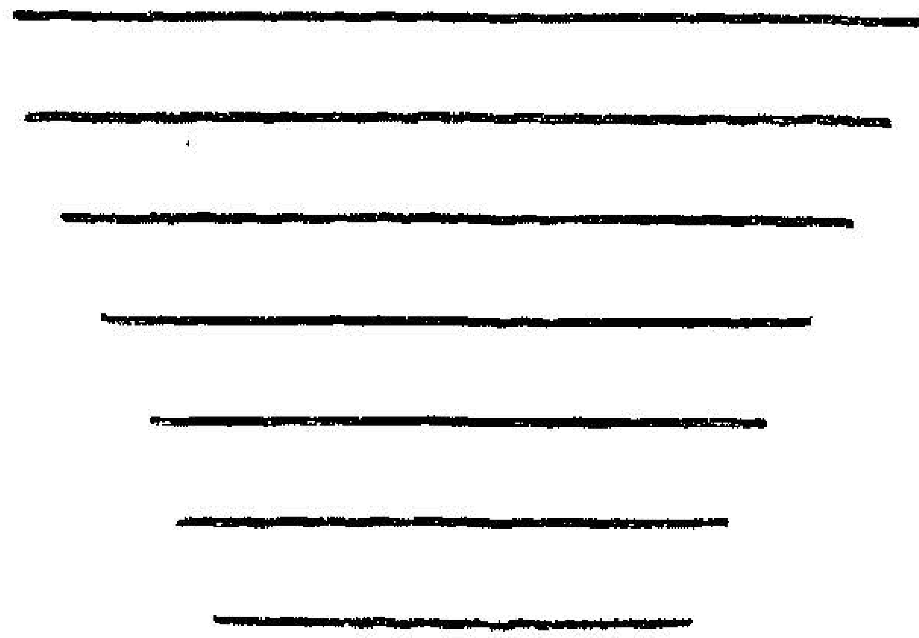
Dictionnaire ânalogique

لكن عبر أية ظروف تجمد الشرق بعد ثلاثة قرون من ذلك أمام أنماط كان قد تجاوزها وحقق نكوصاً بالقياس إلى ما قدمه الصحاح ؟

تلك مشكلة يطرحها « القاموس » الشهير للفيرزابادى (المتوفى عام ١٤١٥ م) ؛ فتعليل رواج هذا القاموس المجمل ، بسهولة استعماله فقط ، هو لا شك تعليل مغر ، ولكنه لا يشكل وحده تسويغاً كافياً ، والحق أن المهتمين بالدراسات الشرقية ، عانوا من عدم اهتدائهم إلى سر نجاح هذا القاموس . وحتى « دوزى » نفسه ، لم يكن لديه دائماً تفسير لسر رواجه .

لقد كان ينبغى الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وطبع « لسان العرب » لابن منظور الإفريقى ، لكى نرى من جديد ، ظهور قضايا التأليف المعجمى العربى فى قمتها عبر كتاب مدهش ومثير ، وهذا المعلم لا يبدو لنا فقط معجماً جامعاً ينبغى الرجوع إليه على الدوام ، إنه كذلك ، وربما قبل كل شىء ، الدليل فى مجال التأليف المعجمى ، كالشأن فى مجالات أخرى كثيرة ، على أن النزعة الإنسانية الإسلامية العربية ، كانت قد عرفت الارتفاع إلى مستوى الاحتياجات الكبرى للثقافة .

ريجيس بلاشير



علم الأرض
وفقه اللغة العربية
للدكتور على السكرى

تمهيد

اللغة العربية عن سائر اللغات بما تحويه من ثروة لفظية ضخمة ومترادفات للكلمة الواحدة ، الأمر الذى يمكن هذه اللغة من إبراز المعانى بصورة واضحة كما يمكنها من دقة التعبير . وللأسف فنحن اليوم لانستخدم من ألفاظ اللغة العربية إلا القليل ، فى حين قد تركنا أكثرها وراءظهورنا . فإذا أضفنا إلى ذلك استعمال الكثير من الألفاظ الدخيلة والغريبة ظهر لنا مدى بعدنا عن اللغة العربية . ونتيجة لهذا البعد بدت اللغة العربية أمام البعض وكأنها قاصرة عن تلبية احتياجاتنا اللغوية وبالأخص فى المجالات العلمية.

ولحسن الحظ فإن الثروة اللفظية لهذه اللغة مازالت تزخر بها الكثير من المعجمات الضخمة بجانب العديد من كتب فقه اللغة. وفى كتب فقه اللغة نجد تأصيلا لمعانى الكلمات وتعريفا بها ثم تصنيفا لها حسب الموضوع . ومن بين هذه الكتب القيمة كتاب فقه اللغة للثعالبى وكتاب المخصص لابن سيده الأندلسى ثم كتاب الإفصاح من عمل حسين يوسف وعبد الفتاح الصعيدى .

وفى كتاب فقه اللغة للثعالبى (المتوفى سنة ٤٢٩هـ – ١٠٣٨م) توجد ثلاثة أبواب فى علم الظواهر الجوية وعلم الأرض الطبيعى وعلم المعادن وبيانها كالآتى : الباب الخامس والعشرون فى الآثار العلوية ومايتلو الأمطار من ذكر المياه وأماكنها . الباب السادس والعشرون فى الأرضين والرمال والجبال والأماكن والمواضع وما يتصل بها. الباب السابع والعشرون فى الحجارة، بالإضافة إلى أبواب أخرى فى ذكر ضروب الحيوان وأوصافها (الباب السابع عشر) وفى النبت والزرع والنخل (الباب الثامن والعشرون) .

وتشمل هذه الأبواب عرض الكثير من المصطلحات العربية الأصل بحسب موضوع كل باب ثم التعريف بالمصطلح، بالإضافة إلى تصنيف الباب الواحد إلى عدة فصول يربطها وحدة الموضوع . وتتدرج بعض الفصول فى تعريف الظاهرة الواحدة من الأصغر للأكبر أو من القليل للكثير مع توضيح الفروق والاختلافات الدقيقة بين الدرجات المختلفة .

وهكذا فكأن هذه الأبواب اللغوية الأصل تمثل بدايات فريدة للعلوم المقابلة . فمثلا الباب الذى يعالج الآثار العلوية ومايتلو الأمطار من ذكر المياه وأماكنها كأنه يمثل الأصول اللغوية لعلم الظواهر الجوية الحديث ، والباب الذى يعالج الأرضين والرمال والجبال فكأنه يمثل الأصول اللغوية لعلم الأرض الطبيعى ، والباب الذى يعالج الحجارة فكأنه يمثل بدايات علم المعادن . وهنا فقط تتداخل اللغة فى العلم ؛ ويتداخل العلم فى اللغة . وساعد تصنيف المصطلحات فى أبواب موضوعية فى كتب فقه اللغة على إعطاء بعض العلوم معالم شخصية مستقلة له ، فالباب الذى يشمل الألفاظ الخاصة بالآثار العلوية ساعد فى نمو واستقلال علم الظواهر الجوية .

وإذا رجعنا إلى الباب الخامس والعشرين من كتاب فقه اللغة للثعالبى وهو يعالج الآثار العلوية (أى علم الظواهر الجوية) وجدناه يشمل الفصول الآتية : الفصل الأول الرياح — الفصل الثانى فيما يذكر منها بلفظ الجمع — الفصل الثالث فى تفصيل السحاب وأسمائها — الفصل الرابع فى ترتيب المطر الضعيف — الفصل الخامس فى ترتيب الأمطار — الفصل السادس فى ترتيب صوت الرعد على القياس والتقريب — الفصل السابع فى ترتيب البرق — الفصل الثامن فى فعل السحاب والمطر — الفصل التاسع فى أمطار الأزمنة — الفصل العاشر فى تفصيل أسماء المطر وأوصافه — الفصل الحادى عشر فى تقسيم خروج الماء وسيلانه من أماكنه — الفصل الثانى عشر فى تفصيل كمية الماء وكيفيتها — الفصل الثالث عشر فى تفصيل مجامع الماء ومستنقعاتها — الفصل الرابع عشر فى ترتيب الأنهار — الفصل الخامس عشر فى تفصيل أسماء الآبار وأوصافها — الفصل السادس عشر فى ذكر الأحوال عند حفر الآبار — الفصل السابع عشر فى الحياض — الفصل الثامن عشر فى ترتيب السيل تفصيله :

ونستعرض فيما بعد محتويات بعض الفصول المشار إليها . فالفصل الثانى وهو يتعلق فيما مايذكر من الرياح بلفظ الجمع يستطرد هكذا : الرياح الحواشك المختلفة والشديدة ، البوارح الشمال الحارة فى الصيف ، الأعاصير التى تهيج الغبار ، اللواقح التى تلقح الأشجار ، المعصرات التى تأتى بالأمطار ، المبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث ، السوافى التى تسفى التراب . وانظر إلى محتويات الفصل الرابع عشر فى ترتيب الأنهار : يقول الثعالبى عن الأئمة : أصغر الأنهار الفلج ، ثم الجدول أكبر منه قليلا ، ثم السرى ، ثم الجعفر ، ثم الربيع ، ثم الطبع ، ثم الخليج .

وفى السفر العاشر من كتاب المخصص لابن سيده الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٨هـ/١٠٨١م) ذكر أسماء الوادى و نعوته وتضم ١٤ اسما مميزا تصف الأنواع المختلفة من الأودية بيانها كالآتى : الخندق – العرض – الوادى – الغال – السليل – واد هجيج – الرغيب أى الضخم – الزهيد – مسلنطح إذا لم يكن الوادى عميقا – لاخ خفيف إذا كان عميقا – واد خضار وهو كثير الشجر والحرج – الأفجيج وهو الوادى الضيق العميق – الكركور وهو واد بعيد القعر – الشاخبة نوع من الأودية ينبت نباتا حسنا .

وهكذا يتضح أن اللغة العربية ثرية فى ألفاظها ومصطلحاتها وبالأخص فى المجالات العلمية المختلفة . ويبين الكشاف المرفق بعض المصطلحات التى استعملها العرب فى وصف الحجارة ، وهى مأخوذة من كتاب فقه اللغة للثعالبى . ونحن ندعو لنشر هذه المصطلحات وغيرها فى فروع العلم المختلفة والتعريف بها حتى تنتشر ويعم استعمالها، كما أنها قد تساعد فى عملية ترجمة العلوم إلى العربية. وحبذا لو اتبعنا أسلوبا جديدا فى ترجمة المصطلحات العلمية ، فبدلا من أن نترجم المصطلح الأجنبى إلى العربية نبدأ بالمصطلحات العربية الأصل ونحاول إيجاد المقابل لها فى الأجنبية سواء أكانت الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية . هذا ويرى بعض الباحثين أن المصطلحات العربية التى تصف ظاهرة بعينها قد تكون أحيانا من التعدد والكثرة بحيث يصعب إيجاد مقابل لها فى اللغات الأجنبية الأخرى . وبهذا تتميز اللغة العربية عن بعض اللغات الأجنبية بوفرة ثروتها اللفظية بالإضافة إلى قدرتها التامة على التعبير :

كشاف ببعض المصطلحات العربية فى الأحجار التى تتخذ أدوات (مختارات مما ذكر) :

الصلاية : الحجر العريض يسحق عليه الطيّب .

المسحنة : الحجر يدق به حجارة الذهب.

النشفة : الحجر الذى تدلك به الأقدام .

الربيعة : الحجر الذى يرفع لتجربة الشدة والقوة .

المسن : الحجر الذى يسن عليه الحديد أى يحدد .

الملطاس : الحجر الذى يدق به فى المهراس .

المرداس : الحجر الذى يرمى به فى البئر ليعلم أفيها ماء أم لا أو يعلم مقدار غورها .

المرجاس : الحجر الذى يرمى به فى البئر ليطيب ماءها ويفتح عيونها .

الظرر : الحجر المحدد الذى يقوم مقام السكين .

الجمرة : الحجر يستجمر به فى جمار المناسك .

البلطة : الحجر الذى تبلط به الدار أى تفرش .

الجمارة : الحجر يجعل حول الحوض لئلا يسيل ماؤه .

الآرام : حجارة تنصب أعلاما .

فى تفصيل حجارة مختلفة الكيفية :

البرمع : حجارة بيض تلمع فى الشمس .

اليلمع : مثل ما سبق .

الحمة : حجارة سود تراها لاصقة بالأرض متدانية ومتفرقة .

البراطيل: الحجارة الطوال واحدها برطيل .

البصرة : حجارة رخوة .

المرو : حجارة بيض فيها نار .

المهو : حجر أبيض يقال له بصاق القمر .

المهاة : حجر البلور .

المرمر : حجر الرخام .

الدملوك : الحجر المدملك .

الدملق : الحجر المستدير .

الراعوفة: حجر يتقدم من طىّ البئر .

الرضاض : حجارة ترضرض على وجه الأرض أى لاتثبت .

الصفاح : الحجارة العراض الملس .

الرضام : صخور عظام أمثال الجزر واحدها رضمة .

الرجام : دون الرضام فى المقدار .

الصلدح : الحجر العريض .

الصيخود : الصخرة الشديدة وكذلك الصفا والصفوان والصفواء .

الظرب : كل حجر ثابت الأصل حديد الطرف .

العقاب : صخرة ناشزة فى قاع البئر .

الكديد : الحجر تستره الأرض ويبرزه الحفر .

اللجيفة : صخرة على الغار كالباب .

اللخاف : فيها عرض ورقة .

اليهير : حجارة أمثال الأكف .

أتان الضحل : صخرة قد غمر الماء بعضها وظهر بعضها .

الصلعة: الصخرة الملساء البراقة .

الصيدان : حجر أبيض تتخذ منه البرام.

فى ترتيب مقادير الحجارة على القياس والتقريب :

حصاة : إذا كانت صغيرة .

نبلة : إذا كانت مثل الجوزة .

قنزعة: إذا كانت أعظم من الجوزة .

مقذاف (ورجمة ومرادة) : إذا كانت أعظم منها وصلحت للقذف .

يهير : إذا كانت ملء الكف .

فهر : أعظم منها .

جندل : أكبر منها .

جلمد : تليها فى الكبر .

صخرة : تليها فى الكبر .

قلعة : وهى التى تنقلع من عرض جبل ، وبها سميت القلعة التى هى الحصن .

على السكرى

الرجز

بين قديم وحديث

للدكتور يوسف نوفل

جعلت العرب بحر الرجز فى المكان السابع بين البحور المأثورة التى وصل إليها الخليل بن أحمد الفراهيدى ١٠٠ هـ — ١٧٤ هـ (٧١٨ — ٧٩١ م) وهى خمسة عشر بحراً هى : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، والوافر ، والكامل ، والرجز ، والرمل ، والخفيف ، والمتقارب ، والهزج والسريع ، والمنسرح ، والمضارع ، والمقتضب ، والمجتث .

وزاد عليها الأخفش (ت سنة ٢٢٥هـ) ، وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، بحراً أسماه المتدارك ؛ لأنه تدارك به مافات الخليل فصار عددها ستة عشر بحراً .

وقد كان الخليل لغوياً وإماماً لنحاة البصرة فى القياس والتعليل النحوى ، ومن أشهر تلاميذه سيبويه والأصمعى والنضر بن شميل وكان إلى ذلك عارفاً بالموسيقى ، فاستنبط العروض وجعله فى خمس دوائر واستخرج منها بحوره المذكورة .

وقامت نظرته الفنية إلى الدوائر على أساس التشابه بين البحور فى مقاطعها ، وقد جعل كل دائرة تتضمن مجموعة من البحور ، مستنداً إلى مايقرره الرياضيون من أن الدائرة الهندسية تعتبر كل نقطة فيها صالحة لأن تكون بداية ونهاية معاً ، وهكذا الدائرة العروضية تصلح أى نقطة بها أن تكون بداية مقطع لبحر ما .

وقد حصرها فى خمس دوائر هى كما يلى :

١ — الدائرة المختلفة : وأصلها الطويل وتضم معه كلا من المديد ، والبسيط .

٢ — الدائرة المؤتلفة : وأصلها الوافر وتضم معه الكامل .

٣ — الدائرة المجتلبة : وأصلها الهزج وتضم معه الرجز ، والرمل .

٤ — الدائرة المشتبهة : وأصلها السريع وتضم معه كلا من المنسرح ، والخفيف ، والمضارع والمقتضب ، والمجتث .

٥ — والدائرة المتفقة : وأصلها المتقارب وتضم معها بحر المتدارك . وبذلك يصبح استدراك الأخفش لاقيمة له فنياً ، لأن الخليل قد وضع تلك الدائرة التى تضم ذلك البحر ، كما أن من الممكن أن تسمى كل دائرة باسم أول بحر بها .

وحين نريد استخراج بحر من آخر من الدائرة فإن ذلك يسمى فكاً، ويستمر حتى نصل إلى آخر بحر فى الدائرة ، وقد علمنا أن كل بحر يتضمن عدة تفعيلات — وتسمى أيضاً الأجزاء أو الأركان ، أو الأمثلة ، أو الأوزان ، أو الأفاعيل ، أو التفاعيل ، وتجمع حروفها كلمتا « لمعت سيوفنا » فى عشرة حروف ، وتتكون التفعيلات من مقاطع هى الأوتاد جمع وتد ، وهو إما مجموع أى يتكون من حركتين فساكن ورمزهما هكذا : //٥ ، وإما مفروق أى يتكون من حركة فساكن فحركة ورمزهما هكذا : /٥/ كما تتكون المقاطع من الأسباب جمع سبب، وهو إما خفيف أى يتكون من حركة فسكون مثل : /٥ ، أو ثقيل أى يتكون من حركتين ورمزهما هكذا : //

أمثلة :

وتد مجموع مثل : أخى ، مضى ، رمى (//٥)

وتد مفروق مثل : منك ، قال ، جاء (/٥/)

سبب خفيف مثل : لم ، لن ، من (/٥)

سبب ثقيل مثل : لك ، بك (//)

وقد يجتمع السبب الثقيل والسبب الخفيف فيسمى فاصلة صغرى ، وقد يجتمع السبب الثقيل والوتد المجموع فيسمى فاصلة كبرى ، وقد جمعوا المقاطع فى قولهم : « لم أر على ظهر جبلٍ سمكةً (بتنوين سمكة) .

فإذا بدأنا البحر الأول من الدائرة وأردنا أن نقف على البحر الثانى تجاوزنا المقطع الأول وبدأنا بالمقطع الثانى لنحصل على آخر وهكذا حتى تنتهى مقاطع الدائرة .

وحيث اتفقنا على الرموز الدالة على كل من الحركة والسكون فإننا سنكتب المقاطع بتلك الرموز ونتعرف على إحدى الدوائر العروضية التى وضعها الخليل ، ونقف عند الدائرة التى تتضمن بحر (الرجز) وهى الدائرة المجتلبة .

والدائرة المجتلبة أصلها الهزج ، وتضم معه بحرى الرجز والرمل :

أما بحر الهزج — وهو أصل الدائرة — فتفعيلاته هى مفاعيلن (ثلاث مرات) فى كل شطر .

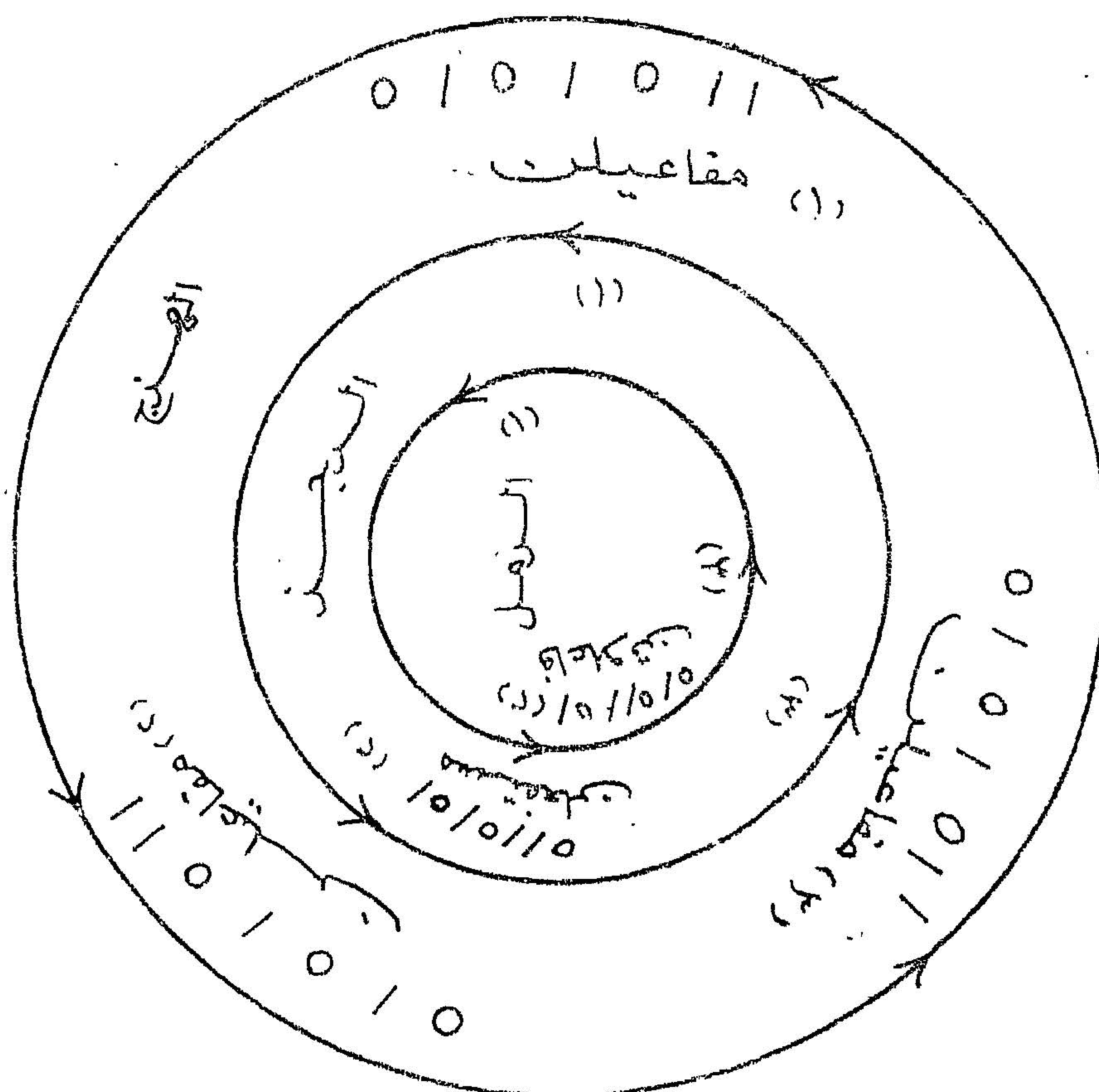
وتتكون الدائرة من المقاطع التالية .

وتد مجموع (مفا //٥) ؛

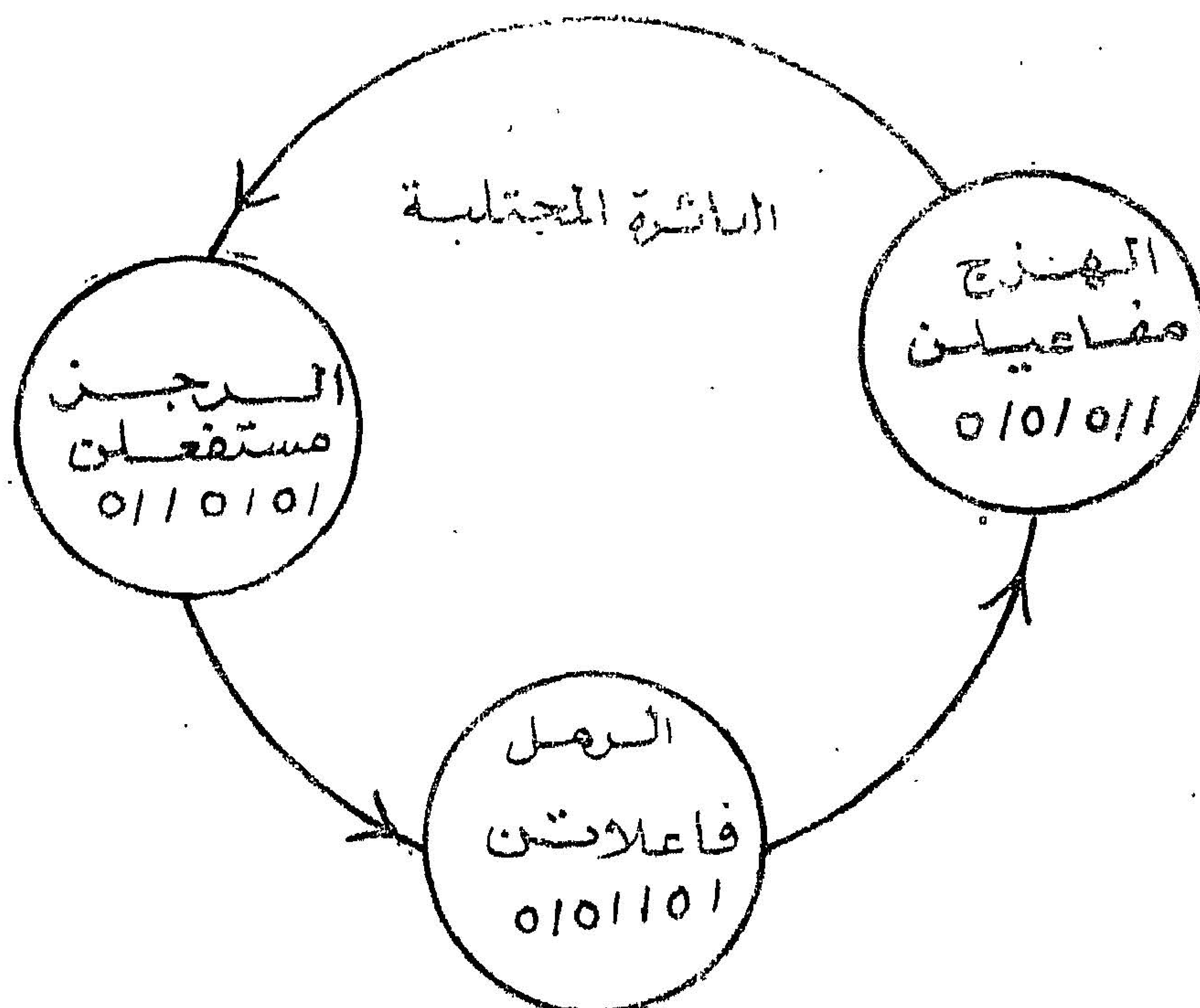
فسببين خفيفين (عيـ /٥ لن /٥)

أما بحر الرجز فتفعيلاته هى مستفعلن (ثلاث مرات) فى كل شطر .

أما بحر الرمل فتفعيلاته هى فاعلاتن (ثلاث مرات) فى كل شطر .



شرح تفصيلى لطريقة استخلاص بحور الدائرة المجتلبة



أصل الدائرة بحر الهزج ، وتفعيلاته المكررة هى (مفاعلين) ، وتبدأ بأول مقطع وهو الوتد المجموع (مفا / / ٥) .

وحين نريد استخلاص بحر الرجز نترك ذلك الوتد المجموع ونبدأ بما يليه ، وهو السبب الخفيف فالسبب الخفيف الذى يليه فالوتد المجموع الذى تركناه فى أول الأمر ، لنحصل على تفعيلة (مستفعلن /٥ /٥ //٥) :

وحين نريد استخلاص بحر الرمل نترك أول السببين الخفيفين ونبدأ بالثانى لنحصل على تفعيلة (فاعلاتن /٥ / /٥ /٥) التى تتكون من السبب الخفيف الثانى والوتد المجموع والسبب الخفيف الأول .

وهكذا تمضى الدائرة فى استخلاص مستمر مادمنا نترك أول مقطع ونبدأ بما يليه من مقاطع .

الهزج / /٥ /٥ /٥ / /٥ /٥ /٥ /٥ / /٥ /٥ /٥ (مفاعيلن) .

الرجز /٥ /٥ / /٥ /٥ /٥ / /٥ /٥ /٥ / /٥ (مستفعلن) .

الرمل /٥ / /٥ /٥ /٥ / /٥ /٥ /٥ / /٥ /٥ (فاعلاتن) .

وتوجد تفعيلة الرجز (مستفعلن) فى الدوائر العروضية كلها ماعدا الدائرة المتفقة ، فهو فى الدائرة المختلفة فى تفعيلتين فى بحر البسيط . بل وجدنا من يذهب إلى أن البسيط هو الرجز ويرى أن تفعيلة (فاعلن) ماهى إلا (تفعلن) من بحر الرجز أو (تعلن)[1] ، وهو فى الدائرة المؤتلفة فى بحر الكامل إذا أضمرت تفعيلة (متفاعلن) وفى تلك الحالة نفرق بين التفعيلتين إذا وجدنا تفعيلة محركة الثانى فحينئذ يكون البحر هو الكامل .

كما توجد تفعيلة الرجز فى الدائرة المشتبهة حيث توجد فى كل من بحر السريع ، وبحر المنسرح ، وبحر المقتضب ، وبحر المجتث ، وبحر الخفيف . بل قد يحدث لبس لدى بعض المبتدئين بين بحر الرجز وبعض تلك البحور وخاصة بحر السريع ، ولعل هذا ما دعا باحثا إلى الذهاب إلى أن بحر السريع هو بحر الرجز ، ورأى ما رآه فى بحر البسيط وهو أن (فاعلن) هى (تفعلن) أو (تفعلان) مأخوذة من تفعيلة (مستفعلن)[2] .

ومن وجوه الاتفاق بين بحر الرجز وبعض تلك البحور اتفاق السريع والرجز فى مجيئهما مشطورين دون غيرهما من البحور ، واتفاق الرجز مع المنسرح فى مجيئهما منهوكين ، وهذا فى ظنى ما يؤكد الصلة الفنية بين تلك الدوائر المذكورة ، وما يرد على من لم يجعل الرجز من الشعر ، وقد سبقنا كثير من الباحثين إلى الذهاب إلى أن كثيراً من أوزان الشعر يمكن إرجاعها إلى بحر الرجز مثلما ذهب المستشرق (هارتمان) . بل قد

---

(١) أحمد كشك مجلة الثقافة العربية فى أغسطس ١٩٧٦ ص ٤٤ ومابعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٤٥ وما بعدها .

ذهب (إيفالد)[1] إلى ارجاع بحور الشعر جميعاً إلى الرجز ، وهذا ما يؤكد ما أشرنا إليه من اشتداد الصلة الفنية بين تفعيلة (مستفعلن) وبعض الدوائر العروضية أو معظمها .

وقد أدرك الشعراء المحدثون فى العصر الحديث ذلك الواقع الفنى فجاء معظم شعرهم من بحر الرجز [2] ، وكثر استعمال ترخيصات ذلك البحر لدى هؤلاء الشعراء وغيرهم ، وربما أسرف بعضهم فى توسعه فى استعمال هذه الترخيصات العروضية .

وقد وضح أن تفعيلة الرجز هى :

(مستفعلن) وهى تتكون من سببين خفيفين هما :

/٥ و /٥ . ووتد مجموع هو : //٥ .

ويمكن أن يطرأ عليها تغيير لتأخذ صورة من الصور التالية متفعلن : بحذف الثانى فتكون : //٥//٥ .

ومستعلن : بحذف الرابع فتكون : /٥///٥

ومتعلن : بحذفهما (أى الثانى والرابع) فتكون : ////٥ .

ونظراً لأن بحر الرجز تتكرر فيه التفعيلة ذاتها على نحو ماذكرنا فإنه يعد من البحور الصافية ومنها أيضاً :

المتقارب : فعولن فعولن فعولن فعولن فى كل شطر .

الهزج : مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن فى كل شطر :

الرمل : فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فى كل شطر :

الكامل : متفاعلن متفاعلن متفاعلن فى كل شطر :

الوافر : مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن وتصبح الأخيرة مفاعل أو مفعولن : فى كل شطر :

ومن هنا جاز لنا الا نقبل راى من اخرج بحر الرجز من الشعر ، أو أخرج مشطوره ومنهوكه ، كما جاز لنا ألا نقبل رأى من جعل الرجز دون الشعر [3] منزلة ، وما روى من ازدراء الجاهليين له ، ومتابعة الإسلاميين ومن جاءوا بعدهم للسابقين فى ذلك الازدراء يرجع إلى الموضوعات التى كان يختارها الراجز ، وقد كان يقتصر فى معظمها على أبيات معدودة ، وكان من عادة

---

(١) الدكتور حسين نصار – الشعر الشعبى العربى – المكتبة الثقافية ص ٢٥ وص ٤٠ .

(٢) انظر لتفصيل القول فى ذلك على نحو جديد (الدكتور رجاء عيد – الشعر والنغم – دار الثقافة . ١٩٧٥ . ص ١٠٨ ، ومابعدها وص ١٢٨ ومابعدها وص ١٥٥ وما بعدها) .
وقد دخلت (مستفعلن) فى أوزان الفنون المستحدثة ومنها السلسلة ، والمواليا والقوما والكان كان .
وكثر استعمال الرجز لدى نزار قبانى كما كثرت ترخيصات الرجز عنده .

(٣) لم يذكره أبو العلاء المعرى فى تصوير جنته فى رسالة الغفران وأفرد لشعرائه جنة خاصة جعل بيوتها أحط وأقل درجات من قصور الشعراء .

الذوق العربى ألا يستسيغ فنيا إلا القصائد وخاصة ما يطول منها ، وكان الرجز قليل الأبيات ، ومن ناحية أخرى اعتبره الذوق شعراً شعبياً لتعدد أغراضه ، ومن هنا لم يحفل به الشعراء والرواة ولم يقفوا عنده طويلا ، حتى ليشبهه المحدثون فى عصرنا بالفنون الشعبية كالزجل والمواويل [1] ، بينما يشهد الواقع أن اللغويين احتفلوا بهذا اللون كثيراً ، وأن عامة الناس أعجبوا بالرجز والرجاز ، بل أعجب به النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقد روى أن العجاج أنشد أبا هريرة أرجوزته التى يقول فيها :

« ساقاً بخنداة وكعبا أورما »

فقال أبو هريرة : كان النبى صلى الله عليه وسلم يعجبه نحو هذا الشعر . وأحب العرب الرجز ورأوه فنا أصيلا ، وقال المنتجع بن نبهان لرجل من أشراف العرب : ما علّمتَ ولدك ؟ قال : الغرائض . قال : علّمهم الرجز فإنه يهرت أشداقهم أى ؛ يوسعها فتفيدهم فى الخطابة :

ومعنى هذا أن الرجز فن محبوب للعامة ، وللخاصة أيضاً ؛ ويؤكد ذلك ما يروى من أن الأصمعى كان يحفظ ست عشرة ألف أرجوزة ، وإن كان لذلك صلة بميله اللغوى وكذلك غيره من اللغويين .

وقد ذهب المستشرق جولد تسهير إلى أن الرجز نشأ عن السجع بعد أن أخضع للأذن ، ويلتقى هذا مع حقيقة تؤكد شعبية هـذا الفن وبقاءه على صورته الشعرية التى نشأ عليها على حين تطورت الألوان الشعرية الأخرى وارتقت ، وقد أرجع بعض المستشرقين سبب تسمية الرجز عند العرب إلى أنهم شبهوه بصوت الرعد المتتابع إذ يهدر الراجز فى هجاء خصومه ، وكان الهجاء أبرز أغراضه فى الجاهلية ، وذهب بعض الباحثين إلى أن الكلمة مشتقة من الرجز الذى يعترى الناقة أو البعير ، وهو ارتعاد الأفخاذ والمؤخرة عند القيام ، وفى ذلك ما يصل بين الرجز والحداء ، ورغبة العربى فى تنشيط الناقة ودعوتها للحركة .

وقد سبق الرجز ألوان الشعر وكان الجاهلى يعمد إلى البيت أو البيتين أو الأبيات القلائل إذا خاصم أو شاتم أو نافر ، لكن المخضرمين أطالوها كالأغلب العجلى ، وكما ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى كان العجاج أول من أطاله وقصّده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب ووصف الناقة وبكى على الشباب ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد ؛ فكان فى الرجاز كامرئ القيس فى الشعراء [2] وفعل مثله رجاز العصر الأموى ومنهم ابنه رؤبة ، فعنوا به ،

(١) منهم الدكتور طه حسين — انظر : الدكتور حسين نصار : الشعر الشعبى العربى ص ٣٨ و ٣٩ .

(٢) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٥٦ .

ونوعوا أغراضه ، واشتدت المنافسة بينهم وبين غيرهم من الشعراء ، وأخذ جرير والفرزدق وغيرهما يقولون الرجز البدوى ، وتخصص البعض فى الرجز الذى يصور الطبيعة البدوية بين القوم المتحضرين ؛ ويخدم اللغة وينوع الأغراض الشعرية ، فيتناول المدح والهجاء ، ولم يعد الرجز فنا شعبياً فحسب ، ووجدنا ذا الرمة يتصل بالحضارة ويصوغ الصور البدوية فى شعر يعجب أهل الحضر المهتمين بالبادية ويخدم أصحاب اللغة . وظل الرجز فناً قائماً فى العصر العباسى ، وقد ساعد على ضياع كثير منه ارتجاله ، وكان هذا الارتجال سبباً فى تعدد أغراض الرجز ، ومنها الهجاء فى الجاهلية وصدر الإسلام ، والحداء وهو قديم ، ووصف مظاهر الطبيعة ، ووصف الحروب .. إلخ ما هنالك من موضوعات شعبية .

وكان الرجز مطواعاً لحركة التجديد على مر العصور ؛ فكان منه المجزوء والمنهوك ، وكانت كثرة ترخيصاته الفنية من زحافات وعلل ، وكان سريع الاستجابة إلى دواعى التجديد حين اتسعت الحضارة الإسلامية فى العصر الإسلامى ، وكثر الغناء وانتشرت الموسيقى ، فظهرت المجزوءات فى الشعر ، ووجدنا كثيراً من ذلك لدى أبى نواس ومسلم بن الوليد ، ثم ها نحن نجد الشعر الحديث فى عصرنا يقبل على هذا البحر فى كثير من تجاربه ، وكما اتخذه اللغويون فى القديم أداة طيعة لعرض لهجات القبائل ، واستعمال الضرورة اللغوية ، بل الشذوذ عن القاعدة اتخذه شعراء العصر الحديث بأوسع صور ترخيصاته ، فتوسعوا فى العلل والزحافات فيه . ومعجم الرجز أكثر مادة من معجم الشعر ، إذ وسع الرجاز على أنفسهم ، فأفسحوا للغرابة والغموض والشذوذ عن القاعدة النحوية على عكس الشعراء .

وقد حمل الرجز قديماً لغات قبائل الشعراء ، من ذلك قلب السين تاء فى قولهم :

يا قبح الله بنى العلات
عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا أعفاء ولا أكيات

يريد : الناس ، وأكياس .

وقولهم بقلب الياء المشدودة جيما :

عمى عويف وأبو علج
المطعمان الشحم بالعشج

يريد : أبو على ، وبالعشى .

وأخذوا يخففون المشدد ، ويفكون المدغم ، ويدغمون المفكوك ، ويزيدون ، ويحذفون ، مما أرضى اللغويين والنحويين ، وجعل كثيراً من النقاد ومؤرخى الأدب لا يهتمون بالرجز .

وها نحن نجد العجاج ورؤبة قد أكثرا من قول الأراجيز التى صارت شواهد نحوية للغويين ، فإنهم ينسبون لرؤبة كثيراً من

الشواهد النحوية ومنها على سبيل المثال قوله في مدح عدى بن حاتم الطائي :

بأبه اقتدى عدى في الكرم
ومن يشابه أبه فما ظلم

وقوله : إن أباها وأبا أباها
قد بلغا في المجد غايتاها

وقوله : أعرف منها الجيد والعينانا
ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله : عددت قومى كعديد الطيس
إذ ذهب القوم الكرام ليس

وقوله : نحن اللذون صبحوا الصباحا
يوم النخيل غارة ملحاحا

وقوله : من يك ذابتٌ فهذابتى
مقيظ مصيف مشتى

وقوله : أكثرت في العذل ملحادائما
لا تكثرن إنى عسيت صائما

وقوله : لتقعدن مقعد القصىّ
منى ذى القاذورة المقلىّ

وقوله : أو تحلفى بربك العلىّ
أنى أبوذيالك الصبىّ

كما ينسبون كثيراً من الأراجيز في صدر الاستشهاد النحوى لغير العجاج ورؤبة من جماعة من تميم قومه في لغة ينصبون فيها اسم إن وخبرها ، وكذلك أخواتها : ومنهم قول الراجز :

ياليت أيام الصبا رواجعا

وقول محمد بن ذؤيب العمانى الفقيمى يصف فرسا :

كأن أذنبه إذا تشوّفا
قادمة أو قلما محرّفا

وغير ذلك من الشواهد العديدة التى تحفل بها كتب النحو — واللغة (١)

وقد كتب جمال الدين محمد بن عبدالله ابن عبدالله بن مالك الأندلسى ألفيته في النحو على بحر الرجز ومطلعها قوله :

قال محمد هو ابن مالك
أحمد ربى الله خير مالك
مصلياً على النبى المصطفى
وآله المستكملين الشرفا
وأستعين الله فى ألفية
مقاصد النحو بها محوية
تقرب الأقصى بلفظ موجز
وتبسط البذل بوعد منجز

وقد ساعد على ذلك ما يمتاز به بحر الرجز من كثرة الزحافات ، ولهذا استعمل في الشعر التعليمى في نظم العلوم والمتون كالألفية كما أشرنا ، وكانت فى النحو ، وكالرجبية في الميراث ، والشاطبية في القراءات ونظم كليلة ودمنة لأبان بن عبد الحميد اللاحقى ، وبعض تلك المؤلفات يلتزم التصريع

---

(١) انظر لما تقدم من أمثلة ابن عقيل ط٨ سنة ١٩٥٤ صفحات ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٤ ، ٩٦ ، ١٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢٧٧ ، ٣٠٦ وهامش ٢٩٧ ، وانظر لغيره صفحات ١٩ ، ١٠١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ٣١٣ وغيرها .

باتحاد رَوِىّ العروض و،الضرب مثلما وجدنا
فى الألفية ومثل قول الشاعر :

إن الشبـــاب والفـــراغ والجده
مفسدة للمرء أى مفســـده

وبعضها يجىء موحد الروىّ والقافية .

ووجدنا فى العصر الحديث أمير الشعراء أحمد شوقى يكتب من الرجز شعراً على لسان الحيوان ومنه قصيدة الدجاج البلدى والديك الهندى وفيها يقول :

بينـــا ضعاف مـــن دجاج الريف
تخطر فى بيت لهـــا ظريـــف
إذ جـــاء هندىٌّ كبير العـــرف
فقام فى الباب مقام الضيف
يقول : حيا الله ذى الوجوها
ولا أراهـــا أبـــداً مكروهـــا
أتيتـــكم أنشر فيكم فضلـــى
يومـــاً وأقضى بينكـــم بالعدل

وقد استخدم الرجز قديما فى كثير من مواقف العمل وغيره ؛ لخفته وجمال إيقاعه

ومـــا قيل حول المـــاء :

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا
بحـــرا يجيش ماؤه غزيرا

ومما قيل أثناء بناء مسجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

لئن قعدنا والنبىُّ يعمل
لذاك منـــا العمل المضلل

وكان الرسول ينقل اللبن مع القوم ويقول من رجز ابن رواحة :

هـــذى الجمال لاجمال خيبر
هذا أبرّ — ربنا — وأطهر

وحين هـــدم خالد بن الوليد صنم العزى ارتجز وهو يهدمها :

ياعز كفرانك لاسبحانك
إنى رأيت الله قـــد أهانك

ومـــا قيل أثناء الحداء وصف الناقة بالهزال من الظمأ والسير حتى صارت كالقوس :

كأنهـــا وقد براها الإخماس
ودلج الليل وهاد قياس
شرائج النبع براها القواس

وهذه محاورة شعرية ، حين نادى أبوسفيان متوعِّداً عقب غزوة أحد قائلا :

« اعْلُ هُبَلْ » .

فأمر الرسول أصحابه أن يجيبوه :

« الله أعلى وأجلّ » .

فيرد أبوسفيان :

ألا لنا العزى ولا عزى لكم

فيأمر الرسول أن يقولو :

الله مولانا ولا مولى لكم

وقد قذف أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرات كان يأكلها وذهب للقتال قائلا :

ركضاً إلى الله بغير زادِ
إلا التقى وعمل المعـــاد
والصبر فى الله على الجهاد
وكل زاد عرضـــة النفـــاد
غير التقى والبر والرشاد

يوســـف نوفل



تحقيق : الأستاذ عبود الشالجي
تعريف ونقد : الأستاذ محمد عبد الغني حسن

أذكر أن الأجزاء الثلاثة التى نشرت من (نشوار المحاضرة) بهمة المستشرق البريطانى المعروف د.س. مرجوليوث وجميل سعيه كانت من الأعمال الجليلة فى عالم نشر التراث العربى حين صدر الجزء الأول سنة ١٩٢١ مطبوعا فى مصر ، وصدر الجزء الثامن فى سنة ١٩٣٠ مطبوعا فى دمشق، وصدر جزء ثالث فى دمشق سنة ١٩٣٢ على أنه ثانى أجزاء الكتاب الذى ضاع أكثر أجزائه على توالى العصور .

وفرح الأدباء والعلماء والمؤرخون منذ صدور الجزء الأول من النشوار سنة ١٩٢١ ، لأنهم وجدوا فى الكتاب مادة ثرية خصبة لعرض ملامح كثيرة من المجتمعات العربية الأسلامية فى القرن الرابع الهجرى . وهى ملامح رآها المؤلف التنوخى رأى العين ، او سمع بها من ثقات ممن أخذ منهم وروى عنهم .

ومع عروبة المؤلف أبى على المحسن التنوخى وأصالته فى النسب العربى الصميم، فأنه لجأ إلى كلمة غريبة النسب واللفظ ليجعلها عنوانا لكتابه ، وهى لفظة (نشوار) التى اختارها لأن النشوار ما يظهر من كلام حسن ، فيقال : (إن لفلان نشوارا حسنا . أى كلاما حسنا) . وسواء أكانت كلمة (النشوار) بالشين المعجمة كما وجدت فى الأصول ، أو بالسين المهملة كما يلفظها العامة وكما وجد بخط القاضى أبى جعفر أحمد بن أسحاق بن البهلول التنوخى وهو حجة فى رواية اللغة ، فأنها لم يصقلها الاستعمال على مدى القرون بدءاً من القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه القاضى التنوخى ، وقد ظلت قرابة ألف عام وهى منعزلة عن اللسان إلا ما كان من التصاقها بكتاب القاضى التنوخى ، فهى لا تذكر إلا معه ، ولا ترد إلا متصلة به

وقد حرك ما فى كتاب النشوار — من طرائف ونوادر لم ترد فى نص آخر — همة أديب عربى معاصر هو الأستاذ العراقى عبود الشالجى المحامى، على أن ينشر نشوار المحاضرة كاملا ، استنادا إلى ما يقع له من مخطوطات لهذا الكتاب : فنص لهذا الغرض العظيم همته وعزمه ، وظل يتابع كل مخطوطة لهذا الكتاب

فى أماكن وجودها ، وأغرم بهذا العمل غراما شديدا ، وظل يبحث عن الأجزاء الضائعة من هذا الكتاب ليضمها إلى المطبوعة . .

وهداه البحث والتقصى إلى مخطوطة الجزء الأول بباريس . . إلى مخطوطة تشتمل على الجزءين الأول والثانى فى مكتبة مراد ملا باستنبول . وقد أكدت له هذه المخطوطة الأخيرة أنها هى الجزء الثانى من النشوار . وأن ما نشر سنة ١٩٣٢ على أنه الجزء الثانى ليس إلا ثالث أجزاء الكتاب . . . أما بقية الأجزاء فقد ظلت ضائعة . فكيف يجمعها وينشرها وليس لديه أصولها الخطية ؟

هنا لجأ محققنا الفاضل إلى عمل جرىء فى عالم نشر التراث لم يسبقه إليه أحد كما يصرح هو بنفسه فى مقدمته للجزء الأول من الكتاب .. ولعله لم يكن محتاجا إلى هذا التصريح الذى يكشفه القارىء بأدنى نظر دون حاجة إلى اعتراف من المحقق . . . . ولعله أراد بذلك أن ينتهز ها فرصة ليرد بها فى إيجاز على المعترضين على منهجه الجرىء هذا فى التحقيق ، فقال بنص عبارته : « ولعل بعض القصص التى نقلتها كانت من رواية أبى القاسم التنوخى ، ابن المؤلف : ولعل بعض القصص ، وإن كانت من رواية المؤلف ، إلا أنه ليس ثمة دليل قاطع على أنها مما اشتمل عليه كتاب النشوار . وردى على من اعترض على إيرادها عين ما كتبه المؤلف فى خاتمة مقدمة الجزء الأول من الكتاب ، حيث قال : « لو كان فى إيراد هذه القصص وتسجيلها خير من موضعها بياضا ، لكانت فائدة . . . »

والحق أن المحقق الفاضل التمس الخير من طريق غير مأمون المغبة ، ولا سليم العاقبة ؛ فإن جمع نصوص مفقودة من كتاب من مصادر مختلفة ، لايقوم فى ذاته منهجا سليما لنشر التراث ، أو لنشر كتاب من كتب التراث على الأقل. وهو منهج مع خطورته أو خطره اعترف المحقق بأنه موضع اعتراض من الغير الحريصين على نشر التراث سليما كما أراد له أصحابه . ولكن الذى ألجأه إلى ركوب هذا المركب الوعر ، والمزلق الخطر أنه رأى أن ذلك خير من أن تترك مواضع الكتاب بياضا . . . كما رأى ذلك المؤلف التنوخى من قبل . . .
ولكن شتان بين الموقفين . فأن التنوخى حين كان يجمع الأخبار من أفواه من شاهدوها كان له مطلق الحرية والاختيار فى إيثار خبر على خبر ، أو تقديم نص على نص. فالنصوص كلها بين يديه ، وهى تستوى فى إيرادها جملة أو حذفها جملة أو إيراد بعض وحذف بعض .
أما الأستاذ المحقق عبود الشالجى حين ركب هذا المركب لجمع أخبار توهمها للقاضى التنوخى ، أو رواها التنوخى ونقلت عنه فى مصادر أدبية وتاريخية أخرى ، فإنه قد يضيف إلى التنوخى مالم يرده أن يكون فى كتابه النشوار . ونحن نشاهد من واقع تجاربنا الخاصة أن المؤلف منا قد يؤثر مؤلفا من مؤلفاته بخبر أو نادرة لا يريدها أن تكون فى كتاب آخر له . فكيف يقضى الأستاذ عبود الشالجى — متحكما وذا سلطان — بأن ما ورد للقاضى التنوخى من روايات وأخبار نقلها عنه الرواة والمؤرخون هى مما اشتمل عليه كتاب النشوار

الذى ضاعت منه أجزاء لم يوقف لها على أثر . وهل معنى رواية نسبت إلى القاضى التنوخى فى كتاب مثل المنتظم لابن الجوزى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان أنها مما اشتمل عليه كتاب النشوار ؟

على أن محققنا الفاضل لا يجد فى تلك القضية الخطيرة بأسا . بل يقول فى بساطة : (ثم حاولت ـ من بعد ذلك ـ أن أتتبع الفقرات الضائعة من النشوار ، فى ثنايا الكتب ، فأعيد جمعها . وكان ذلك بدء عمل مضن ، بذلت فيه وقتا وجهدا وصبرا . وراجعت مؤلفات ابن الجوزى : المنتظم ، والأذكياء ، وأخبار الحمقى والمغفلين ، وذم الهوى ، وتلبيس إبليس . كما راجعت تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ الوزراء للصابى ، ومؤلفى ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، ووفيات الأعيان ، وغيرها من الكتب ، فوجدت فيها ينبوعا ثرا من القصص التى تروى عن مؤلف النشوار ، غير أنها وردت بأسماء مختلفة . ووجدت أن قسما من تلك القصص قد أثبتت فى الأجزاء المنشورة من النشوار . فتأيد لى من ذلك أن القصص التى وردت مروية عن أصحاب تلك الأسماء ، أنما هى مروية عن صاحب النشوار ، وأنها قد اقتطعت من ذلك الكتاب ، فاستللتها من مواضعها ، وضممتها إلى بعضها ، واعتبرتها من الفقرات الضائعة من النشوار..)

هكذا وبكل بساطة استوى من كتاب نشوار المحاضرة ـ المفقود بعض أجزائه ـ بضعة أجزاء استلها المحقق من كتب أخرى متوهما أنها من النشوار ـ دون سند صحيح أو بينة قوية ـ وليس لها من سند ألا أنها وردت فى طائفة من المؤلفات منسوبة إلى التنوخى ، فجزم محققنا الفاضل بأنها من نشواره .

وهنا نسأل سؤالا آخر : كيف جاز لمحققنا الفاضل أن يجمع هذه الأخبار الشتى من مصادر متفرقة ، ثم يؤلف من كل طائفة منها جزءا يسميه الجزء الرابع ، أو الخامس ، أو السادس من النشوار ؟ فهى جمعه وتنسيقه وتقسيمه هو لا جمع المؤلف ولا تنسيقه ولا تقسيمه . ومن هنا هل نجرؤ على القول إن هذا المنشور كله هو نشوار المحاضرة كما أراده مؤلفه وجامعه الأصلى ؟ وما الظن لو أن الجزء الخامس من النشوار المخطوط قد كتب له الظهور بعد خفاء ، فهل نجده مثل الجزء الخامس الذى صنعه المحقق الفاضل ؟

الحق أن دافعا نبيلا ، وباعثا عظيما هو الذى حمل الأستاذ عبود الشالجى على أن يسلك هذا المسلك الوعر ، حتى يضم أشتات ما تبعثر من أجزاء النشوار المخطوطة الضائعة ، وحتى يسوى من ذلك الذى جمعه كتابا يسميه هو نشوار المحاضرة ، ولكنا نخشى أن تكون المقابلة بينه وبين الكتاب الأصلى مخيبة للآمال .

على أن الأستاذ المحقق لم يلجأ إلى هذا الجمع استهانة به ، وتهوينا من شأنه . فقد كان يعلم أنه مقبل على أمر عظيم ، وأن هذا الجمع المتتبع ، والتعقب الدقيق لمرويات القاضى

التنوخى ومأثوراته مما هو أشبه أن يكون من كتاب النشوار هو عمل شاق مضن اقتضاه كثيرا من الجهد ، والتنبه والتفطن ألى المظان ، كما اقتضاه أن يحمل مسئولية لا يقوى عليها كثير من أصحاب العزائم . فهو يعلم أن عمله هذا ومنهجه فى الجمع قد لا يرضى الملتزمين بأصول التحقيق ونشر التراث : ولكنه أقدم على ما توسمه صحيحا ليصون لنا كتابا ضائعا .

وقد يكون ـ غفر الله له ـ قد بعد بكتاب النشوار عن أصله وعن نسقه ، ولكنا نراه راضيا عن عمله هذا ، لأنه لم يقصد به إفساد نص ولا بتره ولا التزيد عليه ، ولكنه أراد به رد الاعتبار والوجود ألى كتاب أغلبه ضائع مفقود :

وهب أن ما جمعه الأستاذ عبود الشالجى ليس النصوص الكاملة لكتاب نشوار المحاضرة ، فهل ننكر أن هذه المجلدات الثمانى الأنيقة الطبع ، الجميلة الأخراج تعد فى ذاتها ثروة أدبية تاريخية رواها القاضى التنوخى ، ولو لم تكن من متن كتابه نشوار المحاضرة ؟ وإذا جاز لبعض الملتزمين بأصول النشر ، وقواعد تحقيق التراث أن ينكروا أن نشوار المحاضرة فى هذه الأجزاء الثمانية هو نشوار التنوخى الأصلى ، فهل ينكرون أننا الآن مع كتاب رائع طريف حافل بأكثر ما روى عن القاضى التنوخى من أخبار ونوادر وأسمار ؟

فلنقبل هذه الحصيلة العظيمة الضخمة من أخبار القاضى التنوخى فى هذه الطبعة الرائعة التى أصدرها الأستاذ عبود الشالجى ، ولنغض النظر ـ ونحن مستمتعون بأطيب ما فيها من طرائف ـ عن أنها هى نشوار المحاضرة كاملا غير منقوص ، ولا مزيد : ؟

وهل تشغلنا هذه القضية فى منهج تحقيق التراث من أن نعترف بما بذله المحقق من جهد ، وما أسداه عن فضل حين قدم لنا مجموعة نادرة من أخبار القاضى التنوخى ومذاكراته ومحاضراته الشائقة سواء كانت مما اشتمل عليه كتاب النشوار أم لا ؟ إنه فى الحق أمتعنا بثمرة طيبة من ثمرات التنوخى لم يشأ أن يجعلها بياضا ، فدونها وجمع أشتاتها . ولك بعد هذا أن تسميها قصصا وأخبارا من نشوار المحاضرة للتنوخى ، أو قصصا وأخبارا من مرويات التنوخى

وقيمة هذه القصص والمرويات والأخبار الطريفة العجيبة أنها أدخل فى باب تصوير المجتمع العربى الأسلامى منها فى باب الأدب والأسمار ؛ فهى صور واقعية وقعت فى القرن الرابع الذى عاش فيه التنوخى ، وهى صور فيها كثير من ملامح بغداد وأهلها ، وأفراحها ومآتمها ، وعبادها وفساقها ، وقضاتها وشهودها . . . وقد خالط التنوخى كل لون من الناس ، وعاشر كل جنس ، ولقى العلماء والشعراء فى زمانه وروى عنهم :

وأنشد أشعارهم أو استنشدهم إياها . وكان ممن لقيه المتنبي وقال عنه فى مقدمة نشواره : (وما أحسن ما أنشدنى أبو الطيب المتنبي لنفسه من قصيدة فى وصف صورتنا :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم)

ولم يكتف التنوخى بأن يسمع من فم أبي الطيب شعره يلقيه عليه الشاعر الفحل بنفسه ، بل إنه ازداد على المتنبي اجتراء فسأله عن نسبه وهو يمر ببغداد سنة ٣٥٣ هـ ، ولكن المتنبي الغامض اعتذر لسائله عن الأفصاح عن حقيقة نسبه . والتقى التنوخى بالشاعر الماجن ابن حجاج البغدادى ، وروى شيئا من شعره الذى أنشده فى مجلس الوزير أبي الفضل الشيرازى : وقد أعان التنوخى على الجاه فى عصره صلته بأعاظم الرجال فى وقته ، فهو قريب من عضد الدولة البويهى ، وهو معروف عند الخليفة العباسى الطائع ، ومن هنا أتيح له أن يخطب فى الحفل الذى أقيم عند زواج الخليفة الطائع بابنة الملك البويهى عضد الدولة

وقد أتاحت الملابسات المختلفة لصاحب النشوار أن يرى المجتمع العربي فى ظاهر أمره وخافيه ، وأن يدخل إلى القصور كما يتسلل إلى الأكواخ . ومن هنا نقع فى النشوار على غرائب الأحداث ، فهناك حكايات واقعية عن مروءة الوزير حامد بن العباس ومكارم أخلاقه ، وعن وقار الوزير على بن عيسى وتزمته ، وعن ابن رزق الله التاجر البغدادى الذى يوقف فى بلاد الروم أكسية لتدفئة أسارى المسلمين ، وعن الوزير عبيد الله بن سليمان الذى يبيح جزءا من مال الدولة لأحد صنائعه . . . وعن هندى يقتل فيلا عظيما بثيابه دون حاجة إلى سلاح ، وعن القصرى غلام الحلاج الذى كان يصبر على الجوع خمسة عشر يوما ، وعن المرأة البغدادية التى كانت تتظرف فتحرف القرآن . وعن النحوى الزجاج وكيف درس النحو على المبرد صاحب الكامل ، وعن ابن الحواصة الذى فتح داره لترتكب فيها الفاحشة علانية ، وعن ذلك الرجل الذى خبأ ماله فى برنية ، فعجل ذلك بسرقتها ، وعن كردك الديلمى الذى اغتال رجلا استأمنه طمعا فى ماله . . . وغير ذلك من الأحداث التى كانت تموج بها بغداد والعراق والبصرة وبقاع كثيرة من العالم العربي . ومن أجل هذا ازدحم كتاب النشوار فى طبعته الجديدة بمئات ومئات من المصطلحات التى فهرس لها المحقق فى معجم عمرانى عام ؛ وهو معجم يهدينا الى آلاف من المصطلحات التى خلقتها طبيعة المجتمع العربي فى عصر التنوخى وما حوله بقليل ، ولن نأخذ هنا فى سرد بعض هذه المصطلحات ، ولكن القارىء للنشوار سيجد فيها حصيلة تصور له

المجتمع العربى على حقيقته . وتدلنا حقيقة هذه الصورعلى أن الأول لم يترك للآخر شيئا . . . وأننا اليوم نكرر ما دار بالأمس تأكيدا لمسيرة الأنسانية فى مسارها الطويل . فعندنا اليوم ما يسمى (بالمزاد) الذى تباع فيه السلع — وخاصة المستعملة — عن طريق المزايدة على أسعارها ، فصاحب السعر الأعلى يرسو عليه المزاد . وقد كان ذلك فى العصر العباسى ، وكان يسمى (النداء) لأن إعلان السعر كان يتم بطريق المناداة عليها . وقد كان من عادة النعمان بن عبدالله — وهو أحد كبار العمال فى الدولة العباسية — إذا كان فى انسلاخ كل شتاء ، أن يعمد إلى جميع ما استعمله من خز وصوف وفرش وكوانين وآلة الشتاء فيبيعه فى « النداء » أى فى المزاد لينخلص منه .

والحق أننا لا نملك أنفسنا إزاء ما فى النشوار من أخبار وحكايات ووقائع أن نعجب مما صنعه المؤلف ليجمع مادة هذا الكتاب الممتع الطريف . ومزية القاضى التنوخى أنه لم يجمع مادة كتابه من كتاب كما كان يصنع غيره من المؤلفين ، وأنما جمعه مما تناثر على أفواه الرجال ، وما دار بينهم فى المجالس ... فهو كتاب منقول عن الأفواه لا عن صفحات الكتب ، وزاد عليه التنوخى ما رآه هو بعينه فى خلال مخالطاته الكثيرة فى الحياة . ويبدو أن كتاب النشوار قضى عليه أن يستغرق حقبة طويلة من الزمان جمعا فى البداية ، وإعادة جمع فى نهاية المطاف بعصرنا هذا ... فقد قضى التنوخى فى تأليفه عشرين عاماً كما جاء فى معجم الأدباء . لياقوت ، وقضى المحقق عبود الشالجى أعواماً كثيرة فى جمع ما تصوره ضائعاً من أخبار النشوار ، وكذلك الكتاب العظيم يحتاج إلى وقت أطول ، وجهد أعظم .

وإذا كان القاضى التنوخى غير مسبوق فيما اتخذه لنفسه من منهج لتأليف كتاب نشوار المحاضرة ، وذلك عندما اشترط على نفسه أن لا يجمع كتابه من كتاب ، فإن صديقنا الروحى الأستاذ عبود الشالجى غير مسبوق حين استخلص ما ضاع من أجزاء النشوار وجمعها من كتب أخرى غير الكتاب الذى يحققه ، وكأنه بهذا أراد أن يوائم بين سبق التنوخى وسبقه حتى تتم المشاكلة فى العمل العظيم .

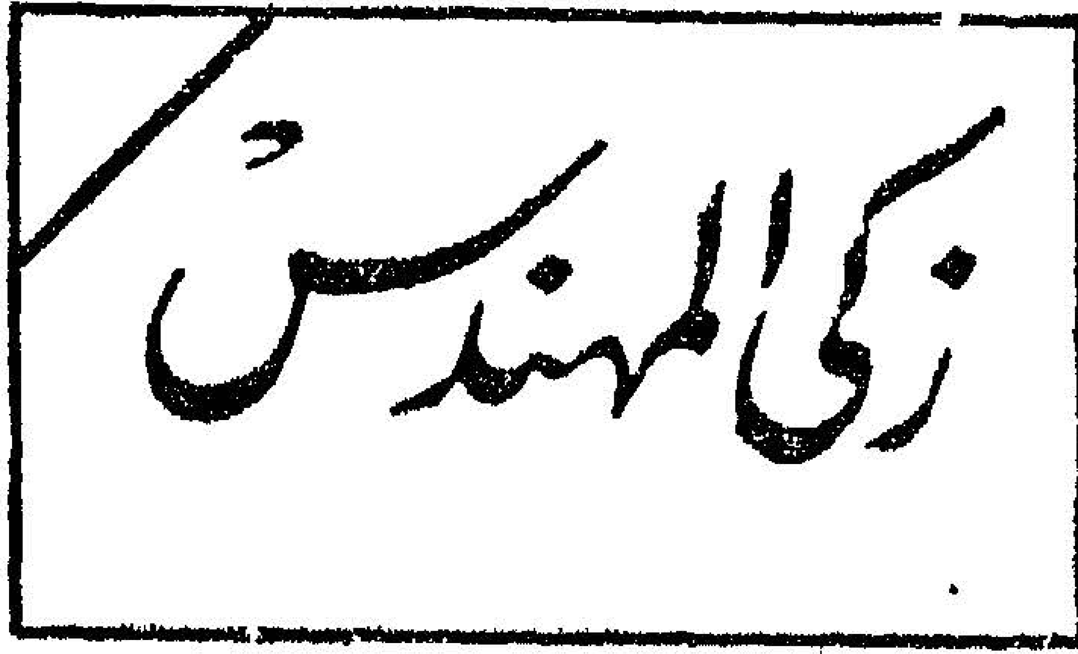
ولم يقدم الأستاذ عبود الشالجى طبعته لكتاب النشوار عارية من الجهد الذى يدل على ما بذله فى سبيل تحقيق النصوص التى جمعها من مختلف المظان، فكل صفحة من الكتاب فى أجزائه الثمانية المطبوعة على أجمل ما تكون الطباعة العربية تزدحم بالهوامش المزدحمة بالتعليق والتحقيق والمقابلة والترجمة للأعلام وغير ذلك مما تقتضيه أصول النشر العلمى : وهذه الفهارس المتنوعة فى كل جزء لموضوعات الكتاب وأسماء الأشخاص ، والفهرس الجغرافى ، والفهرس العمرانى وثبت المراجع والمصادر للتحقيق، تدل كلها على الروح العلمية التى يتسم بها محققنا الجليل :

محمد عبد الغنى حسن

فى الساعة الخامسة من مساء الاربعاء ١٨ من ذى القعدة سنة ١٣٩٦ هـ الموافق ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٧٦ م أقام المجمع بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع حفل تأبين المرحوم الأستاذ زكى المهندس نائب رئيس المجمع الراحل ، وفيما يلى ما القى من كلمات فى هذا الحفل :

كلمة الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم الأستاذ :



زكى المهندس بين المجمعيين

سيداتى ، سادتى :

يعز علىّ حقاً أن أقف الليلة بينكم مؤبناً «زكى المهندس» ، فقد كنت معه بين عشرة من الخالدين ، دخلوا المجمع سوياً عام ٤٦ ، ثم رحلوا عنه الواحد تلو الآخر ، ولم يبق لى منهم سواه ، وها هو ذا قد جاء دوره ، فلم يتخلف ، وتركنى وحدى ، « وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وأبى هؤلاء العشرة إلا أن أكون المتحدث باسمهم فى حفل استقبالهم وإن كنت أصغرهم أو لأنى كنت أصغرهم ، فتحدثت فى الأمس البعيد باسم زكى المهندس يوم أن دخل المجمع وشاء القدر أن أتحدث عنه الليلة يوم أن رحل ، وما أعظم الفقد ، وما أقسى الحديث! ويزيده قسوة أن زكى المهندس كان أوثق الزملاء صلة بى ، وأطولهم صحبة لى ، وأقربهم إلى قلبى . قضيت معه

ثلاثين عاماً كاملة فى هذا المجمع ، نعمت فيها بزمالة كريمة ، كلها ود وإخلاص ، ورقة وعذوبة ، وسماحة ، وبشاشة لا مطمع فيها ولا مغنم ، ولا تنافس ولا تزاحم ، فلم نختلف يوما ما ، ولم تباعد بيننا الأحداث والتقلبات . وإن بدا شيء من التباين بين أبناء الأسرة الواحدة ، كان زكى المهندس همزة الوصل ، ونقطة الالتقاء ، ومبعث الرضى. اختلفنا مرة فيمن يكون نائب رئيس المجمع ، ويوم أن ذكرت اسمه زال الخلاف ، واتفق الجميع .

ويطول بى الحديث إن شئت أن أعرض لزكى المهندس المجمعى ، فقد كان مؤمناً الإيمان كله بأن العربية لغة علم وحضارة ، وأنها حية ومتطورة . وفى وسعها أن تسد حاجات العصر ومتطلباته ، وعلينا أن نيسرها فى مفرداتها وتراكيبها ، فى نطقها وكتابتها ، وأن نتوسع فى ألفاظها وأساليبها . وأشهد أنه من أنصار التيسير والتجديد ، لأنه كان يرى أن اللغة تعبر عن الحياة ، والحياة فى تطور مستمر . والعربية لغة طيعة مرنة ، قد اتسعت — وما زالت تتسع — لكل جديد ، وتصلح للتعبير عن كل مستحدث ، وحركة التطور مطردة ماضية متصلة ، تجرى إلى غاياتها فى سرعة وقوة .

وكان مؤمناً أيضاً برسالة المجمع ، حريصاً على أدائها ، فأعطاه فى سخاء ، ووقف عليه جل جهوده فى سنين طوال « مرحلة النضج والخبرة التامة » ، مرحلة الشيخوخة الحكيمة المتزنة ، أعطاه علماً وعملا ، توجيهاً ورأياً ، إشرافاً وإدارة . أسهم فى معظم لجانه ، وأولع بمجلسه ومؤتمره ، وندر أن تخلف عن جلسة من جلسات اللجان أو المجلس أو المؤتمر ، ولم تنقطع صلته قط باللجنة الإدارية التى ترعى نشاط المجمع وسير العمل فيه : وأشرف عدة سنوات على مجلة المجمع ، فجدد نشاطها ، ونوع غذاءها ، وحرص على أن تصدر فى مواقيتها ، واختير نائباً لرئيس المجمع عام ٦٤ ، وجدد انتخابه بعد ذلك ثلاث مرات . ووقف إلى جانب المرحوم طه حسين رئيس المجمع فى سنى مرضه موقف الولاء والإخلاص . وألححت عليه بعد وفاته أن يقبل الترشيح لرياسة المجمع ، فاستعفى ، وأبى إلا أن يلقى العبء عن كاهله ، وأشهد أنه لم يضن علىّ برأى أو مشورة ، ولم يقصر فى عون أو مساندة .

* * *

هذا هو زكى المهندس الزميل والرئيس ، المشرف والإدارى ، أما زكى المهندس العالم والدارس ، فالحديث فيه طويل : وأكتفى بأن أشير إلى موقفه من ثلاث لجان من لجان المجمع كانت أثيرة لديه ، ارتبطت باسمه ، وحببت إليه ، وما أقساها من لجان ، وأعنى بها لجان : اللهجات ، وتيسير الكتابة ، والأصول .

ودراسة اللهجات ليست من الأمور الهينة، فهى علم حديث النشأة يرجع إلى النصف الأخير من القرن الماضى ، ويتطلب ضرباً من الانتجاع والرحلة ، ولا بد له أن يستعين ببعض الأجهزة والآلات ولم تعن به بعد الجامعات العربية العناية الكافية ، ومن حقنا أن نعــوّل عليها أولا كى تمــد اللغويين والمجمعيين بمادة يمكن أن يستخلصوا منها ما يستخلصون . وفى العربية لهجات قديمة وحديثة جديرة بالدرس والبحث ، وقد بذر البذرة الأولى لدراستها فى مجمعنا بعض زملائنا الأول . عرب ومستعمرين ، ومنهم من كان يعد بين علماء اللهجات .

وأذكر أن الجارم حاول أن يدرس لهجة رشيد مسقط رأسه ، كما أخذ العقاد نفسه بدراسة لهجة أسوان ، ولفريد أبو حديد دراسة مفصلة فى اللهجة القاهرية . وحاول زكى المهندس أن يتابع هذا النشاط ، وأن يغذيه وينميه . فاتجه أولا إلى الجامعات ومعاهد الصوتيات ، لكى تعنى بدراسة اللهجات المعاصرة دراسة حقلية ، ولكنا لم نحظ منها حتى الآن برد يعول عليه . ولجأ ثانياً إلى كتب الأدب واللغة آملا أن يكشف فيها عن بعض اللهجات القديمة ، كعنعنة تميم وقضاعة . وكشكشة أسد وربيعة . وبقى حريصاً على أن يكون للهجات درس وبحث فى المجمع ... برغم ما صادفها من صعاب ، وما أحوجنا فى هذا المضمار إلى دراسات ميدانية وبحوث متخصصة تواجه لهجات العالم العربى فى مختلف أرجائه ؟

واستوقفت مشكلة الكتابة العربية المجمع فى انعقاده الأول ، وأخذ يعالجها علاجاً متصلا منذ سنة ١٩٣٨ ، ووقف عليها دورة كاملة عام ١٩٤٤ لمناقشة مشروع الحروف اللاتينية الذى تقدم به عبد العزيز فهمى . وأعلن المجمع بعد ذلك بقليل عن جائزة محترمة فى مسابقة لتقديم أحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية ، وما إن أعلن عن هذه المسابقة حتى استجاب لها كثيرون ، وأربت المقترحات التى قدمت للمجمع على المائتين . وقدر لى أن أشترك مع زكى المهندس فى فحص هذه المقترحات، ولم يكن من بينها مع الأسف ما يحقق التيسير المنشود ، واتصل عملى مع الفقيد الكريم فى لجنة تيسير الكتابة العربية بانتظام .

والمشكلة فى حقيقتها مزدوجة ، هى مشكلة قراءة وكتابة معاً ، وليس من اليسير أن يقدم لها حل يعالج الجانبين معاً . واتجهت اللجنة خاصة إلى معالجة مشكلة القراءة ، فأوصت بالتزام الشكل الكامل فى كتب المرحلة الابتدائية ، وبشكل أواخر الكلم فى كتب المرحلة الإعدادية ، وبشكل ما يتوقع خطأ التلميذ فيه فى كتب المرحلة الثانوية ، ورحبت وزارة التربية والتعليم بذلك. وفى هذا ما ينشئ التلميذ على القراءة الصحيحة والنطق السليم . ودرست اللجنة فى تفصيل صور الحروف والهمزات وعلامات الترقيم

فى صندوق الطباعة العربية ، ورأت الاكتفاء بصورة واحدة للحرف الواحد كيفما كان موضعه فى الكلمة ، وخفضت صور الهمزة وعلامات الترقيم : فهبطت بصندوق الطباعة العربية إلى ١٣٥ صورة ، واقترب كل القرب من صندوق الطباعة اللاتينية الذى تبلغ صوره ١١٥ .

ووضعت لذلك نموذجاً صادف نجاحاً ملحوظاً ، وأخذ به كثير من دور النشر وسبك الحروف . وكم كان زكى المهندس ، وهو أستاذ خط بقدر ما هو أستاذ أدب ولغة ، عوناً للجنة فيما انتهت إليه من صور وأشكال. ولا شك فى أنا نقرأ اليوم أكثر مما نكتب ، ولا تزال مشكلة الكتابة فى حاجة إلى معالجة وتيسير ، وليتنا نقنع بخط الرقعة كتابة ، ونعرف كيف نمكن أبنائنا من تجويده .

وأما لجنة الأصول فهى لجنة التجديد والتطوير ، لجنة التشريع اللغوى إن صح هذا التعبير ، وواجب المشرّع أن يلحظ الظروف والملابسات ، وأن يسعى جاهداً إلى سد حاجات العصر ومقتضياته .

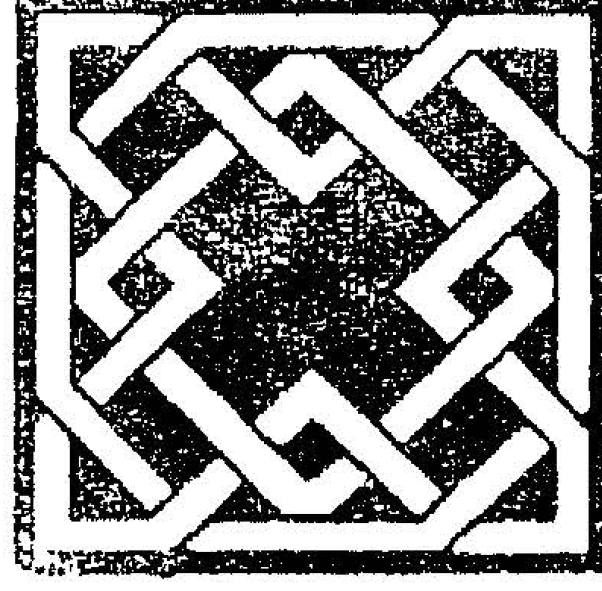
ولجنة الأصول من أهم لجان المجمع ، بدأت تعمل فى نشاط منذ دور الانعقاد الأول ، وأنتجت بعد بحث وتمحيص ، واطرد إنتاجها دون انقطاع . واستطعنا عام ثلاث وستين أن تخرج ثمار هذا الإنتاج طوال ثلاثين سنة ، من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة والعشرين . أخرجناه فى مجلد بعنوان : « مجموعة القرارات العلمية » ، ويقع فى أربعة أبواب : أولها « فى أقيسة اللغة وأوضاعها العامة » ، وثانيها « فى الترجمة والتعريب وكتابة الاعلام » ، وثالثها « فى وضع المعجمات والمصطلحات » ، ورابعها « فى تيسير النحو والصرف والكتابة العربية » ، ويشتمل على ما يزيد عن ٢٠٠ قرار .

والتطوير فى شد ومد دائماً بين تيارين متعارضين : تيار التيسير والتجديد ، وتيار الجمود والمحافظة ، وربما طغى أحدهما على الآخر . وللمجمعيين حوارهم وجدلهم ، وقد تنزع مناقشاتهم أحياناً منزعاً نظرياً ، وتسمى عن قصد أكاديمية ، فننسى الملاءمة بين الماضى والحاضر وتعجز عن سد الحاجة ، وتبطئ بالنهوض المنشود . عاش زكى المهندس ١٥ سنة أو يزيد رئيساً للجنة الأصول فى هذا الجو وتحت ضغط هذا التقابل ، وقد واجهه فى حضور بديهة وسرعة خاطر ، فى مهادنة ومسالمة ، فى صبر وجلد نادرين . وكثيراً ما امتد بحث الموضوع الواحد فى هذه اللجنة شهراً أو شهرين ، تقدم فيها البحوث تلو البحوث ، وتثار وجهات النظر المختلفة ، فكان المخاض عسيراً والوصول

إلى قرارات غير يسير . ومع هذا استطاعت أن تخرج فى هذه المدة مجلدين متلاحقين « فى أصول اللغة » ظهر أولها عام ٦٩ ، وثانيهما عام ٧٥ ويشتملان على أعمال ١٤ دورة من دورات المجمع ، وفيهما ما يكشف عما بذل فى سبيلهما من جهد صادق وعمل دائب ، أشرف عليه زكى المهندس ورعاه . فيها عود على بدء، وتدارك لبعض ما فات ، أو تيسير وتجديد فى أقيسة اللغة وأوضاعها ، وفى بعض الأحكام النحوية والصرفية ، وفى بعض الألفاظ والأساليب العربية والمعربة .

رحم الله زكى المهندس بين العاملين الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ، ورحمه الله بين المخلصين الأولياء ، والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع



كلمة الدكتور محمد مهدى علام

فى أعرق أحياء القاهرة المعزية ، منذ تسع وثمانين سنة ، ولد فقيدنا العزيز زكى المهندس لأب من أوساط وجهاء ذلك الحى ، كان يزاول العمل الهندسى فى تلك المنطقة .

وحدث أن كان لذلك الوالد صلة معرفة — إن لم تكن صداقة — بوالدى . ولم أعرف عن هذه الصلة شيئاً حتى كنت على وشك التخرج من دار العلوم :

فقد حدث أننى كنت فى فترة التمرين على التدريس بمدرسةالعقادين، وكان يزورنى للتفتيش المرحوم الأستاذ زكى المهندس . فلاحظ ما كنت عليه من اكتئاب سببه أننى كنت أعد نفسى بعد بضعة أسابيع للقيام بعبء الأسرة بعد وفاة أكبر إخوتى وعائل أسرتى ، فى حين أن أملى وأمل أساتذة المدرسة كان مرتبطاً بسفرى فى البعثة . وبعد انتهاء العمل يومئذ فى المدرسة صحبنى أستاذى إلى بيتنا فى حارة الروم ، وقص علىّ صلة والده بوالدى ، وتعهد بأن يتفق مع أخ أكبر لى أن ينهض بعبء الأسرة ، حتى لا يحال بينى وبين بعثتى التى كانت أمراً شبه مقرر ، وفقاً لما كان عليه نظام البعثات يومئذ فى اختيار أوائل الخريجين عقب تخرجهم .

ولم يكن هذا أول موقف ود وصداقة وأبوة له ، بل سبق ذلك عدة مواقف ربطت بينى وبينه منذ ألقى علينا أول درس فى التربية وعلم النفس ، فقد استمال قلوبنا جميعاً ، نحن الطلاب يومئذ ، شاب وضىء المحيا ، أنيق الملبس ، نشيط الحركة ، تتابعه نظرات الطلاب وزملائه الأساتذة الذين كانوايفوقونه سناً ، وكان من بينهم عدد من أساتذته الذين تلقى عليهم العلم قبل سفره إلى إنجلتره .

ومن أوثق المواقف التى ربطت بينى وبينه موقفه من حركة الطلبة إبان ثورة١٩١٩ التى كان لطلبة دار العلوم دور رائد فيها . فقد قاد الحركة فى مصر لجنة المدارس العليا ، وكان لكل مدرسة مندوب يمثلها فى تلك اللجنة التى كانت على اتصال سرى بالسكرتير العام للجنة الوفد المركزية المرحوم عبدالرحمن بك فهمى ، فى بيته الذى ما زال قائماً فى شارع قصر العينى تحتله دار الأدباء .

وفى المرحلة الأولى التى كنا نعمل فيها علانية . بالقصائد النارية، والخطب الحماسية، كان المرحوم زكى المهندس يلازمنا فى المساجد والكنائس والمجتمعات، ويصحبنا أحياناً الأب سرجيوس .

وإذا كنا — نحن طلاب ذلك العهد — قد مقتنا واحتقرنا أستاذاً كانت نصيحته لنا يوم حطمنا الأبواب فى ٩ من مارس ١٩١٩ وكانت الأبواب تغلق علينا حتى منتصف الرابعة مساء — كانت نصيحته لنا : « كن فى الفتنة ذنبا ولا تكن فيها رأساً » ، فإن تقدم زكى المهندس الأستاذ الشاب المتوثب ليدعم إرادتنا ، ويصحب خطواتنا ، قد عكس هذه النصيحة ، فكنا فى الثورة رأساً لا ذنباً .

وقد كنا نحتاج إلى تحرير بعض البيانات بالإنجليزية والفرنسية ، وكان لنا اثنان من أساتذتنا يقومان بذلك سرا دون أن يعلم بهما إلا القليل ممن يوثق بهم : وهما زكى المهندس للإنجليزية ، وإسماعيل بك رأفت للفرنسية .

وأستسمحكم فى الاسترسال فى ذكرى الفقيد فى موقف آخر له : ففى يوم من أيام مايو سنة ١٩٢١ كنت أؤدى الامتحان التحريرى ، ورأيت من شرفة القاعة التى كنت فيها ثلة من ضباط الشرطة يدخلون متجهين إلى حجرة رئيس الامتحان . ولم يكن لدى أقل شك فى تحديد شخصية من حضروا للقبض عليه . وأصابنى رعاف، ضيقا بأن تحدث هذا فى أثناء الامتحان الذى لم يكن له دور ثان ، بل لم يكن يسمح لطالب راسب أن يعيد ، بل يفصل ، تبعا للائحة الدنلوبية فى ذلك العهد . .

ورأيت من الشجاعة أن أضع قلمى لأذهب إلى حجرة رئيس الامتحان لأسلم نفسى ، ولكن يدا رفيقة كانت تضع منديلا تحت أنفى تتلقى فيه الدم ، وبصوت رقيق تقول لى : أنك لم تستدع بعد ، فاجلس وأتم إجابتك ، وسأستمهل الداعين حتى تفرغ من إجابتك . .

كان هذا هو المرحوم زكى المهندس الذى شاء القدر أن يكون هو المراقب فى حجرتنا فى ذلك اليوم ، وليس مما أنا بصدده أن أسترسل فى سرد ما تم بعد ذلك فى حجرة المرحوم أسعد بك برادة رئيس الامتحان ، واتصاله برسل باشا حكمدار العاصمة ، ومصاحبة ضباط الشرطة لى لتفتيش منزلى .

ومما لا أزال أذكره — ويذكره بعض الأعضاء من جيلى — أنه فى أول الثورة ، عقب اعتقال سعد وصحبه ونفيهم إلى مالطة ، تألفت لجنة عليا لموظفى الحكومة ، وقررت هذه اللجنة أن يضرب جميع الموظفين احتجاجا على نفى سعد وصحبه . ولم يكن الإنجليز يتصورون أن موظفى الحكومة يضربون ، وهم — فى تقديرهم — أهل الطاعة ، والحرص على مرتباتهم التى ما كانت تكفيهم إلا بشق الأنفس .

ولكن المستحيل تحقق ، وأضرب جميع الموظفين فى جميع أنحاء الدولة — إلا ثلاثة ، كان أحدهم ناظر دار العلوم . وكانت فضيحة لم نستطع أن نحتملها نحن طلبة هذا المعهد الذى كانت له قيادة وريادة فى تلك الثورة — فقررنا أن نلقن هذا الناظر درسا فى الوطنية ، بأن يتلقى ضربة تؤدبه وهو فى طريقه فى الصباح إلى المدرسة .

وكانت هناك دراسة للطريق التى يسلكها ، واختيار للنقطة التى يهاجم فيها حيث تكون خالية من المارة . وعهد إلى أحد الطلاب أن يصطنع السؤال عن الطريق من الشرطى الذى فى أول الطريق ، وإلى طالب آخر أن يقوم بنفس العمل مع الشرطى الذى فى الطرف الآخر للطريق حتى تتم عملية التأديب .

ولكن بقى أن نختار المنفذين للتأديب . وكانت كل هذه المناقشات والترتيبات تدور فى جلسات سرية يحضرها أستاذنا زكى المهندس . وقد وافق على كل خطوة إلا أن يقوم أحدنا بالتأديب. وتعهد أن يستأجر شخصين من « فتوات » الدرّاسة للقيام بهذا العمل ، مع تفهيمهما السبب الذى من أجله نريد أن نؤدب ذلك الرجل . وكانت الروح الوطنية مشتعلة فى صدور الناس على اختلاف طبقاتهم ، فلما علم هذان الشخصان بطبيعة الوضع ، رفضا أخذ الأجر الذى كان مقدما لهما ، كما رفضا أن يستوليا على الساعة الذهبية وسلسلتها التى كانت تتدلى من جيب ذلك المسكين ، قائلين : عيب ، نحن وطنيون مثلكم ، لا نُؤجَّر ولا نسرق .

وبعد أن تم التأديب تحت أعيننا ، إذ كنا نشاهد ذلك من نافذة فى بيت يطل على مكان الحادث ذهب الرجل حاسر الرأس إلى مكتبه ثم إلى بيته ، ثم استقال :

وإذا كان لى بعد أكثر من نصف قرن ، أن أعيد النظر فى ذلك الحدث فإننى أقرر إحقاقا للحق أن ذلك الرجل لم يكن خائنا ، بل كان أسيرا للنظام الفرنسى الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر ، وقد تربى عليه فى فرنسا وكان وأمينا على ما كان يسميه الضبط والربط . فكان يعد الإضراب خيانة لأمانة الوظيفة التى فى عنقه . فليغفر له الله سوء تقديره وليصفح الله عن كل تجاوز صدر ممن اشتركوا بالقول أو بالفعل فى ذلك العمل . ولكننا رفعنا رؤسنا أمام زملائنا الطلبة بعد فعلتنا هذه .

ولقد ظل زكى المهندس مثلا نحتذيه . وظلت صلته بى عند تخرجى وسفرى إلى إنجلترا . وقد وجدت له صورة بالقبعة وقد أرسلها إلى أهله، وكتب تحتها بيتين من الشعر كان قد حاكى فيهما زميلا أقدم هو المرحوم على الجارم .

كان على الجارم قد كتب تحت صورته ، وقد خلع العمامة ولبس القبعة يقول :

لبست الآن قبعة بعيدا
عن الأوطان معتاد الشجون
فإن هى غيرت شكلى فإنى
(متى أضع العمامة تعرفونى)

وحذا حذوه زكى المهندس عندما سافر إلى إنجلتره فأرسل صورته وتحتها البيتان الآتيان :

فإن تك غيرت منى الليالى
وحال البعد دونكم ودونى
فهـذا رسم صاحبكم ولكن
(متى أضع العمامة تعرفونى)

وقفيت على آثارهما فأرسلت صورتى وعليها :

رأيتم صورتى فجهلتمونـى
وكدتم ، لحظة ، أن تنكرونى
أنا مهدى بن عـلام ولكن
(متى أضع العمامة تعرفونى)

لقد تحدث الدكتور الرئيس عن الفقيد فى المجمع ، وسمحت لنفسى أن اتحدث عنه حديث الذكريات ، فلأقل كلمة — مجرد كلمة — لاتكاد تفيه حقه فيما بقى لى من الزمن :

لقد تخرج الفقيد من دار العلوم سنة ١٩١٠ فى فوج من النابهين الذين عرفـت لهم اللغة والأدب والثقافة آثارهم . فقد كان عظيما بين عظماء ، نابها بين نابهين.

ولم يكن تفوقه على من تسهل منافستهم :

كان منهم إبراهيم مصطفى الأستاذ بآداب القاهرة، وآداب الإسكندرية، ودار العلوم، وعميدها ، وعضو هذا المجمع .

وشرف الدين خطاب رفيقه فى البعثة وزميله فى التدريس بدار العلوم وفى التفتيش.

وعبد المجيد الشافعى العالم المؤلف والأستاذ فى دار العلوم .

والدكتور على العنانى الأستاذ بالجامعة المصرية فى عهديها الأهلى والحكومى ، وزميل الفقيد فى التدريس بدار العلوم وفى التفتيش .

ومحمود السيد عبد اللطيف صاحب أول سفارة علمية إلى سنغافورة ، فى وقت كان الانتقال فيه إلى طنطا يعد هجرة .

أوفد الفقيد إلى إنجلتره فدرس وتخرج من جامعة ردنج حاصلا على دبلوم فى التربية وعلم النفـس .

ولنا هنا وقفة للتاريخ قبل أن يأتى النسيان على ما بقى منها فى الأذهان .

لقد قامت دراسة التربية وعلم النفس فى مصر على أيدى رواد من خريجى دار العلوم. كانوا يوفدون فى بعثات معظمها فى إنجلتره . ولم يكن هناك منذ أول القرن الحالى من يحمل هذه الأمانة العلمية سواهم . وأستطيع أن أقسمهم إلى أفواج ثلاثة :

فكان الرعيل الأول ممثلا فى حسن توفيق العدل (الذى درس فى ألمانيا) ومحمد شريف سليم (الذى درس فى فرنسا) .

وجاء من بعدهم فوج تصدره على الجارم ومصطفى أمين وأحمد عبده خير الدين :

وظلت كتب هؤلاء تدرس حتى جاء فوج زكي المهندس وعبد الحميد حسن ومحمد على مصطفى (ولولا الحياء لذكرت معهم من ساهم معهم في التدريس والتأليف) ؟

ومن الإنصاف أن أقرر أنه ظهر مع هذا الفوج الثالث اثنان من خريجي مدرسة المعلمين العليا كان لهما فضل كبير في تطوير التربية وعلم النفس ، هما المرحوم إسماعيل القباني والأستاذ أمين مرسى قنديل مد الله في عمره . ولولا انصراف الزميل محمد خلف الله أحمد إلى الدراسات الأدبية (مع استظلالها بالدراسات النفسية) لكان الرائد الأول للفوج الجديد الذى انتقل إليه علم النفس على يد خريجي معهد التربية بعد إنشائه :

بقى أن أقول كلمة عن تلك الدبلومات التي كان يحصل عليها المصريون عامة وخريجو دار العلوم خاصة ، من جامعات إنجلترة :

لقد كانت الدراسة للحصول على هذه الدبلومات دراسة جادة عميقة ، تستهدف التثقيف العلمي لمهنة التدريس ، وقد نهل منها هؤلاء الدارسون ، ونقلوا ما ثقفوا إلى أبناء وطنهم . ولكن السؤال الذى كان يراودهم دائما هو : لماذا لا يسمح لهم بالحصول على درجات عليا غير الدبلومات ؟

وهذا هو السبب : كانت سياسة دنلوب والإنجليز عامة هي أن لا يحصل المصريون على درجات جامعية أعلى مما كان يحصل عليه الموظفون البريطانيون في مصر ، والذين كان لابد أن يكونوا رؤساء لهؤلاء المصريين بعد عودتهم من بعثاتهم . لم يكن منطقهم يسمح أن يكون المرءوس حاصلا على مؤهل أعلى من مؤهل رئيسه :

وأعجب ما في الأمر أنه بعد أن أزيح الكابوس البريطاني عن الحكومة ، ظلت هذه السياسة حقبة ، إما بحكم القصور الذاتي ، وإما لأن الرؤساء الذين حلوا محل الإنجليز ، كانوا من ذلك الفريق الذى لم يكن قد سمح له بالحصول على الدرجات الجامعية العالية ، فخشوا أن يأتي جيل بشهادات أعلى من شهاداتهم :

والحمد لله قد تغير الحال الآن .

درس فقيدنا بضع سنوات في المدارس الثانوية قبل أن ينتقل إلى دار العلوم . وهذه مأساة أخرى في تاريخ التعليم في مصر . فقد شاءت السياسة الإنجليزية أن هؤلاء الرواد الذين كانوا يختارون أوائل دفعهم في التخرج ، بعد أن يتخصصوا في علوم التربية ، يعودون إلى مصر ليدرسوا اللغة العربية سنوات تطول أو تقصر ، في مدارس ثانوية أو ابتدائية ، أو مدارس التجارة والزراعة المتوسطة التي عين فيها على الجارم عقب عودته من إنجلترة . ثم ينقلون بعد هذه السنين لتدريس علوم التربية في دار العلوم ومدرسة المعلمين العليا . وبعد ممارستهم لذلك عدة سنوات ينقلون لتفتيش اللغة العربية بالوزارة .

ولقد كنا نتندر : بأن الحكومة ترسل الخريج إلى إنجلتره لينسى اللغة العربية ويتعلم مواد التربية وعلم النفس ، ثم يعود ليدرس اللغة العربية كي ينسى مواد تخصصه فى إنجلتره ، فإذا تم ذلك نقل لتدريس ما نسى ، فى المدارس العليا ، فإذا تم نسيانه للغة العربية نقل مفتشا لهذه اللغة .

وأيا كانت روح الفكاهة التى حركتها هذه الدورة العجيبة التى تكررت منذ أواخر القرن الماضى حتى الثلث الأول من هذا القرن ، فإن الذى حدث هو أن هؤلاء الأساتذة الأجلاء ساهموا فى كل الميادين مساهمة مشكورة ، شهدت بها كتبهم وبحوثهم وتلاميذهم فى المجالين .

بعد أن خلف زكى المهندس أثره الملموس فى ميدان التربية وعلم النفس بدار العلوم ، نقل مفتشا بالوزارة ، وبقى عدة سنوات يوجه فئات المدرسين إلى أمثل الطرق التعليمية . ثم هفت نفسه مرة أخرى لمنصة الأستاذ فانتقل إلى معهده الذى نظمت فيه الدراسة على الأساس الجامعى ، فشغل كرسى التربية والفلسفة ، وظل يحتل هذا الكرسى حتى اختير وكيلا لكلية دار العلوم ثم عميدا لها سنة ١٩٤٥

وفى هذه الأثناء ضمت دار العلوم إلى جامعة القاهرة فأصبحت إحدى كلياتها . وقد ساهم الفقيد فى تحويل نظامها المدرسى إلى نظام جامعى ، وشغل كرسى النقد والبلاغة. (ألم أقل لكم إن هؤلاء الرواد تقلبوا فى تخصصات عمقت معرفتهم، ووسعت آفاقهم)

وظل عميدا حتى تقاعد فى سنة ١٩٤٧ تقاعد ولكنه لم يقعد . وحين أنشأ المرحوم الإمام المراغى أقسام التخصص فى الأزهر ، فى شعب ، تدرس كل واحدة منها مجموعة متكاملة من المواد العلمية ، كان منها شعبة الأخلاق والتربية . وكان من حظى أن دعيت للتدريس فيها ، ثم تشرفت بأن ساهم بالتدريس فيها معى أستاذى زكى المهندس . وبقى يزاول هذا العمل العلمى العظيم سنين عدة ، تخرج منها على يديه عشرات من أفاضل شيوخ الأزهر الذين كانوا روادا للنهضة الأزهرية . وأنا أذكر أن عميدا لكلية أصول الدين قابلنى منذ بضع سنوات ، وكنت أعرف له فضله وعلمه ، فلما رآنى أبالغ فى حفاوتى به قال لى: إنك أستاذى أنت وزكى المهندس . فقلت له : أنا درستك ، ولست أستاذك ، إنما أستاذك وأستاذى هو زكى المهندس .

وفى هذه الرحلة الطويلة من سنة عودته من إنجلتره سنة ١٩١٤ إلى سنة تقاعده عام ١٩٤٧ كان رصيده عشرات الآلاف من الطلاب والمعلمين ، وعدة آلاف من صفحات التأليف والترجمة ، وعدة مئات من المحاضرات والندوات .

ومن أهم كتبه :

١ ــ أخلاق الفنى (بالاشتراك مع زميل له)

٢ ــ محاضرات فى التربية

٣ ــ إلى المجد (همسات فى أذن الشباب)

٤ ــ رجل القرن العشرين

٥ ــ احلام اليقظة

٦ ــ المراهقــة

٧ ــ رسالة المعلم

٨ ــ النحو المصور .

ولهذا الكتاب الأخير ، بأجزائه الثلاثة ، دلالة خاصة على نزعة الفقيد للتجديد . فقد كان فى تحريكه عدسة المصور ؛ ليشرح قواعد النحو أقوى حجة تفحم أولئك الذين طالما تقولوا على مدرسى اللغة بأنهم يعيشون فى معركة زيد وعمرو .

والنظرة الفاحصة لهذه المؤلفات تدل على أنها تدور حول تربية الشباب ، فإن زكى المهندس لم يكن يمل الحديث عن توجيه الشباب ، حتى أن أحاديثه فى الإذاعة ــ وهذا ضرب آخر من ضروب نشاطه ــ لم تنس العنصر البشرى الذى كان يعد نفسه مسئولا عن ثقافته :

لقد علم داخل الفصول الدراسية ، وحاضر فى مدرجات الجامعة ، وخطب من منصات الجمعيات ، وأذاع على متن الاثير ، وكتب آراءه فى الكتب والصحف والمجلات . إن سنتين عاما إلا بضعة أشهر تتمثل امامى الآن وأنا أحاول أن أحيى صورا عزيزة للأستاذية والصداقة ، والزمالة فى دار العلوم مدة ، وفى التفتيش حقبة ، ثم فى هذا المجمع الموقر إلى أن فرق الموت بيننا .

سينقضى وقت طويل ــ طويل جدا ــ قبل أن تجد مصر من أبنائها شخصية تجمع كل هذه السمات ، وتخلف كل هذه الآثار . أستودع أستاذا وصديقا وزميلا ملأ صوته قاعة المجمع علما وثقافة وعفة لفظ . وأقدم أخلص العزاء لأسرته العائلية ، ولأسرته العلمية ؛ فكلنا فيه يعزى ويعزى .

أرجو أن يعفينا القدر من مثل هذا الموقف الحزين فترة نلتقط فيها أنفاسنا من شبح الموت ، الذى يخيم علينا ، ويأبى إلا أن يفجعنا كل عام فى عزيز من زملائنا .

أتذكر ياعمار (١) ؛ ما قلته لك منذ نحو عشرة أعوام :

تأزمت الأمور فلست تلقى
خطيبــا مستعــدا للرثــاء
فهلا كف عزرائيل عنــا
يــد القــدر المحرك للفنــاء
أقيموا دونــه ســدا وأخفوا
مــن « الأرشيــف » تاريخ الولاد
أريحــونا ولــو عامــا ليبقى
لنا صفــو الحيــاة بلا بكاء

أتمنى ألا أقف هذا الموقف مرة أخرى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتــه .

المعادى ١٨ من ذى القعدة ١٣٩٦
١٠ من نوفمـبر ١٩٧٦

مهدى علام
أمين المجمع

---

(١) الدكتور أحمد عمار عضو المجمع .

كلمة الشعر للدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش

شُيِّعتَ بالآيات والأنّاتِ
ياتارك الدنيا إلى الجنّاتِ

صرف الكلام بكى عليك ونحوه
لما بغى صرف الزمان العاتى

كأس تدور على الشفاه بسمّها
ورحى تدور فتحصد الهامات

والموت حق لا محالة إنما
تجرى العيون بصحبة الآهات

إن الحياة قصيرها وطويلها
سيّان عند مقوّض اللذّات

والعمر مهما طال ينقص دائما
والقلب يدنى الموت بالدقات

ليس الذى قد فات عمرك إنما
ما لم يفت منه إلى الميقات

والمهد مثل النعش يحمل ميتاً
ضمته أكفان مع اللفات

ياعالم الفصحى لبعدك لوعة
إن الفراق لأكبر اللوعات

أنت المعلم والأديب كلاهما
أستاذ جيل قد مضى والآت

رغم التطور ما فتئتَ محافظا
مستمسكاً بالزىِّ والعادات

مما يدل على اقتناعك أولا
وشجاعة فى معرض الطاقات

صف لى الحِمام وقد عهدتك صادقا
هل وقعه أقسى من العِلاّت ؟

أو أنه أدنى من الخوف الذى
ينتاب من يسعى إلى الأفلات !

هل من يموت لفوره خير له
من آن يموت على مدى ساعات ؟

أو أن لحظة موته أقسى له
مما مضى من قبل من ويلات !

هل موتة المطعون أكبر وطأة
من موتة المشنوق بالساحات ؟

أو موتة المسموم والملدوغ
بالحيّات والمخنوق بالغازات !

هل كلها موت كموت مريضنا
أو حتف من ماتوا من السكتات ؟

أو من يموت بطلقة من كفه
أدنى من المحروق بالشعلات !

حــار الفلاسفة الأوائل كلهم
بــين الحيــاة وعالم الأمــوات
حتى أتانا الأنبيــاء وبلّغــوا
يــوم القيامــة لا محــالة آت
ياخالق الدنيــا وجودك ثابت
بالغيب والأرزاق والإنبــات
والروح من أمر الإلــه وعلمه
ما أوتى الإنسان من قــدرات
يــارب كفّر سيئات ذنوبنــا
واغفر لنا ماكان من زلات
لا فضل إلا بالتقى بين الورى
بالعدل والأعمال بالنيات
والسابقون الفائزون مقامهــم
دار الخلود وروضة الجنــات

ابراهيم ادهم الدمرداش
عضو المجمع

زكي المهندس أمام الاشكالية العظمى

للدكتور محمد عزيز الحبابي

منذ أن بـــدأ الإنسان يعي أوضاعه ، حاصرته قضية الوجود والعدم ، فأصبحت الإشكالية الأولى فى كل الفلسفات هى أن نتأمل فى الوجود والموجود ، وفى العدم والمعدوم . بيد أننا لا نكاد نعثر على نسق فلسفى ينطلق من مفهوم الموت .

فـــا الموت ؟

بمجرد ما توصلت ببطاقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة تنعى إلى أمتنا الفقيد الحبيب ، حتى فاجأنى ذلك السؤال ، لاحقنى . إنه لسؤال مزعج ، نطرحه ، بل يطرح نفسه علينا . ويشتد إلحاحه بقدر ما نكن من معزة أو تقدير للهالك ، وأستاذنا الجليل زكى المهندس عزيز للطفه الجم ، ولصدق صداقته ، وخفة روحه ولخلقه الرفيع ، وهو أيضا محاط بالتقدير لمكانته فى ميادين العلم والتعليم ، والإخلاص فى خدمة اللغة العربية .

* * *

ها هـــو السؤال يعاودنى : ما الموت ؟

إنه الحاضر الغائب . كان منذ البداية يمرح فى قارات العدم ، ولا نتصور له نهاية . إننا نحيا تجارب الوجود فى أى فعل يصدر عن وعينا . كما نعانى الوجود كل مرة يفنى فيها واحد ممن نتواجد معهم . إنها معاناة ذات لونين نحياها كتجارب أنطولوجية ونفسانية ، فى مظهرين ، وجدانى ومجتمعى . مع الموت ، كذلك ، نحن فى صراع دائم ، إلا ان الموت لا يجابهنا علانيـــة ، على قارعة الوجود . فغالبا ما يفضل المراوغة والبغتة . آثاره ملموسة ، وبلا وضوح ، عينية ، وفى أوج الغموض ، تحاصرنا فى كل مكان وكل آن ، ولكن الموت يبقى هو هو ، على مر الأزمان وتغير الأمكنة ، دون مكان أو زمان . إنه العبء الثقيل الذى لا وزن له ولا أبعاد . الموت لايموت . يزرع الفناء ولا يفنى . يقوم بعملياته الصغرى والكبرى وهـــو لا يلمس ولا يرى : إنه التناقض المطلق : العدم لموجود ، الوجود المنعدم . بوجوده تنعدم الموجودات . ينساب فى كل الكائنات ، وهـــو بلا كينونـــة .

* * *

قليل من يقدرون على مواجهة تحدى الموت السافر والمقنع . وما أخالنى مبالغا ان عددت من تلك القلة . فقيدنا . أتذكر ابتساماته الهازئة ، وعصاه يهش بها على الأشباح ، وقامته المنتظمة عموديا التى عودها على أن لا تركع أمام جبروت السنين . يفضل السير على الأقدام واثقا فى ركبتيه ، حامدا فى محبة الحياة . فلا يصارع الموت إلا من يتقبل تضحيات ، طوال الحياة . كانت النكتة من أسلحة فقيدنا ، فى الصراع الطويل ،

حقا . إن النكتة لا تقضى على الموت ، ولكنها تحد من بلاء الخوف المزمن الذى تزرعه المنية فى القلوب ، وتبهر به العقول الحائرة . كان زكى المهندس يحسن النكتة ، بها يتحدى الموت .

النكتة ضياء فى غياهب الليل البارد المخيف الذى لا يعرف نهاية ، ليل الحقيقة المرة وهى تزرع الحيرة المطلقة ، وتسترق منا نور الهدوء والاطمئنان .

* * *

غمرنى عزيزنا بلطفه عند أول مأدبة جمعتنى وإياه ، جلسنا إلى نفس المائدة ، فتعاطفنا ، وبقيت أعتز بصداقته . حببت إليه أن يحكى لمجالسيه عن أجيال عرفها ، فإذا به لا ينقل عنها إلا الجانب الخفيف ، وبخفة دم تتناسق مع «آيس كريم » و « أم على» ، خصوصا بعد الجلسات الصباحيـــة بمجمع اللغة العربية بعروضها ومناقشاتها الدسمة :

امتاز المرحوم بقدرته على النكتة ، وعلى حسن صياغتها ، كما كان يحسن روايتها ، فى الأوقات الملائمـــة ، فتوفرت فيه شروط البلاغة والبيان . إن النكتة « البليغة » تسخر من العبث ومن العابثين . كل النفوس مكبوتة من جراء شبح الموت الماثل أبدا . فتأتى النكتة ، تقصف الضجر وتفجر الكبت . فنستعيد الأمل فننسى الكابوس المرعب ولو إلى حين . ولعمرى ، إذا كانت النكتة البارعة ، هــذا شأنها ، ألا يطبق عليها « إن من البيـــان لسحرا » ؟ سحر النكتة سلاح ونعمة لدى الطبائع الأثيرية . وإن فقيدنا لمن تلك الطينة .

نكتة كانت تأتى فى صفاء البراءة ، مرحة ، متفائلة ، لا تخدش ولا تجرح .

* * *

ثم مرة أخرى : مـــا الموت ؟

لقد حمنا حوله دون أن نخط له حدوداً . لو قدر للموت أن يتحدث عن نفسه لأكد أنه هو نفسه لا يعرف تحديداً ولا حدوداً . بل إنه ، فى حركاته الدائبة ، لا يجد أوقات فراغ ليتساءل عن هويته . إنه . . هو . . أى . . أى شيء ؟

كل إنسان يتأمل يموت وفى نفسه ازعاج من ذلك الـ « أى » . الموت لا يفسر ، وإنما نخافه ونخيف به ، إنه الزوبعة فوق رأسنا ، أبد الآبدين . إنه حوار متصل بين المرء ونفسه ، ولكنه حوار الصم البكم ، محاورة بين المعنى واللا معنى ، المعقول واللامعقول. العقلانية تتدخل فى المعقولات والأفعال الإرادية ، فأنى لها أن تناقش الموت ــ العبث الذى يأتى بلا ميعاد ، على غرة ، ودون رغبة فيه ، ويغيب حيث ينتظر المترقبون ؟ العقل يتدخل فى شئونى عندما تأتى أفعال منسجمة مع وعيي لها ، عندما أريدها محققة أو مرفوضة ، أما الموت فلا يخضع لإرادتى ؛ لن يستشيرنى عندما ستحل فعلته بى . فى

لحظات الموت ، يصبح الكوجيطو هو : لم أعد قادراً على التفكير ، إذن أنا موجود سلبياً ، جثة تعانى حينونة الانعدام . هناك لحظة ممتازة ، يتعانق فيها وجودى بعدمى ، كل المتناقضات تتجسد ، فى لحظة ممتازة تدخل فيها الإيجابيات والسلبيات حياداً حاداً. موتى ليس من عملى أنا ، ولكنه من شأنى ، يهمنى مباشرة .

لن أعود فأقول : « أنا » ، ولا أخاطب غيرى بـ « أنت » ، لا تواصل ولا نداء ؛ أنتقل من « متكلم » إلى « متكلم عنه » ، ويصير كلامى صوتاً صامتاً أبداً . أين منى ذلك الجهاز الذى كان يرغب ويشتهى ، كان يعقلن حياته ، ويريد ، ويتخيل ؟ لقد دخل فى خبر كان ! وماذا كان ؟ كان جهازاً موجهاً لأن يؤول إلى ما هو الآن . عاد إلى أرض الميعاد إلى الأرض الأم : «منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم» (قرآن كريم) ؛ كنت أملأ حيزاً من الفضاء وأمسيت بلا مكان ، ذهبت مع الموت ! الموت نديم لا يصحو وليس منا من يذوق سكرة الموت أكثر من مرة فى « حياته » . سكرة بلا خمر ، وكحول بلا عصير الموت .

أيها السادة

الحديث عن الموت لا يميته الموت ، ولا يبلور معناه . فلن يعزينا فى فقدان حبيبنا زكى المهندس إلا أن ندعو له بالرحمة ، وبخير الجزاء على ما أسداه للغة العربية من خدمات ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

محمد عزيز الحبابى

عضو المجمع المراسل من المغرب
